ربيع جابر

رواية

البيت الأخير

@ketab_n
25.12.2014

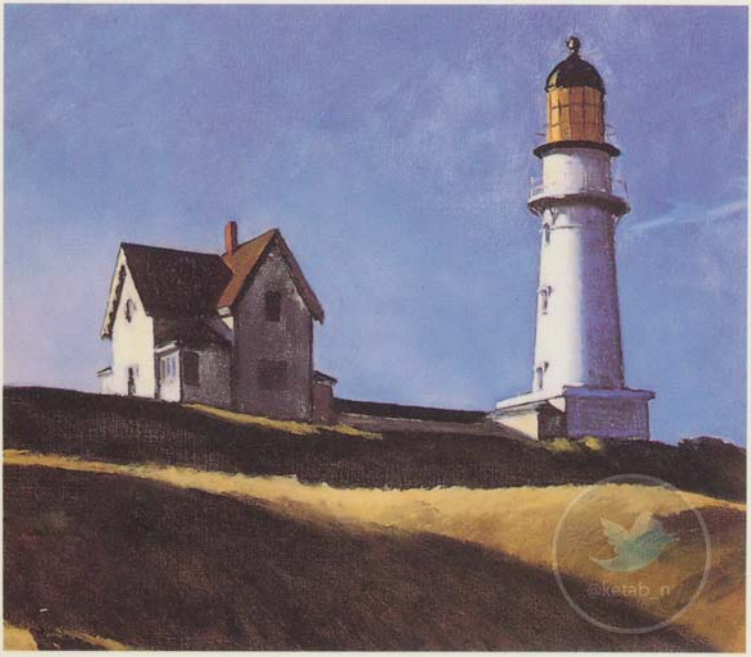

دار الآداب

ربيع جابر

البيت الأخير

رواية

@ketab_n

دار الآداب - بيروت

Twitter: @ketab_n

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
بيروت ١٩٩٦

Twitter: @ketab_n

الأحداث والشخصيات والأماكن والأسماء، في هذه الرواية، هي من نسج الخيال. فإذا وجد أيّ شبَه بين أشخاصها وأسمائهم وبين أناس حقيقيين، أو بين أماكنها وأحداثها، وأماكن حقيقية وأحداث، فلن يكون ذلك إلاّ محض مصادفة، ومن غرائب الخيال، ومجرّداً من أيّ قصد.

Twitter: @ketab_n

الجزء الأول

Twitter: @ketab_n

١

بدأ كلّ شيء أمام مرآة.

كان «ك» يقصّ شعره في صالون إلياس جوزف سفر، الكائن في شارع بْلِسّ في منطقة رأس بيروت. وكعادته كلّما دخل دكاناً في هذه المنطقة، كذب «ك» أمام الحلاّق قائلاً إنّه من بلدة كفرمِلأّت، وأن اسمه أُنسي، وأنّ والده، اسكندر، كان يسكن في هذا الشارع خلال السبعينات.

لكن، في هذه المرّة، كان الجنون في انتظاره، فالحلاّق تراجع إلى الخلف فوراً، تاركاً يده معلّقة في الفضاء والمشط يتدلّى منها، و«ك» رأى ذهول الحلاّق في المرآة: كان الرجل يضع نظّارات طبيّة تُضاعف من حجم عينيه، له شارب رفيع، كأنّه مرسوم تحت أنفه بقلم الرصاص، وكان يبدو في نحو الستّين من عمره. (قبل دقائق قليلة، وقبل أن ينطلق في كذبته، قرأ «ك» في الشهادة المؤطرة، المثبتة فوق المرآة، أن «معهد فوج الفرنسي لتصفيف الشعر» قد منح السيد الياس جوزف سفر «دبلوماً مع درجة امتياز» عام ١٩٦٣).

حصل هذا في ٧ تشرين الأوّل عام ١٩٩٣. وكان «ك» قد دخل إلى الصالون، هرباً من المطر، فإذا به يجلس على الكرسي الكبيرة ويقرّر أن يقصّ شعره ويحلق ذقنه. (منذ خمسة أشهر تقريباً لم يدخل المشط شعره. أمّا ذقنه فباتت تغطّي وجهه). وكان الصالون خالياً، والحلاّق في الزاوية يمسح الغبار عن مظلّة قديمة.

Twitter: @ketab_n

سأله الحلاّق هل يودّ أن يغسل شعره أوّلاً. فقال «ك» لا.

استخدم الحلاّق مرشّة مصنوعة من البلاستيك ليرطّب شعر «ك» برذاذ الماء، ثم أمسك المقصّ. أخذ «ك» يتكلّم. قال إنّه كان مريضاً طَوَال الأشهر الثلاثة الماضية، وأنّ الطبيب منعه من قصّ شعره. على الفور سأل الحلاّق «ك»: أيريد أن يحلق ذقنه؟ أجاب أنّه لا يعلم، وانه سيفكّر في الأمر.

كان المكان غارقاً في ضوء أبيض مشعّ، كضوء المستشفيات، وراح الحلاّق يدور حول «ك» صامتاً. كان المقصّ يُصدر صوتاً معدنياً متقطّعاً، وكان الصوت يملأ الصالون الصغير. تأمّل «ك» الكومودينات الخشبيّة الثلاث التي يستقرّ الرفّ الرخامي الطويل فوقها، وفكّر أنّها هنا منذ أربعين سنة، وفكّر أنّه يحبّها.

وكانت هناك قوارير عطر، وفَرَاش للشعر، وأمشاط، وأدوات حِلاقة، ومِقصّات مبعثرة فوق رفّ الرخام، فتأملها «ك» ورأى انعكاسها في المرآة. وكان هذا الانعكاس، كانعكاس «ك» وانعكاس الحلاّق، يتكرّر في المرآة إلى ما لا نهاية بسبب المرآة الأخرى، الموازية للأولى، المثبتة خلفهما.

كان «ك» جالساً على الكرسي الأقرب إلى البوّابة الزجاجية. والكرسي الأخرى، إلى يمينه، كانت شاغرة بطبيعة الحال. ووراءه كنبة ينتظر عليها الزبائن. وإلى يمينه أيضاً، وَسْط الجدار، نافذة مزوّدة بقضبان من الحديد مطلية بلون أزرق فاتح، هو أيضاً لون إطار النافذة الخشبي، ولون الكومودينات الثلاث. تذكر «ك» نوعاً من الحلوى كانت تُعِدّها جدّته قبل خمس وثلاثين سنة تقريباً (وكان آنذاك مايزال في الثامنة من عمره) فانتابه الإحساس العابر أنّه رسمٌ في لوحة زيتية غير منجزة، وطلع على الحلاّق بكذبة شملت اسمه واسم بلدته واسم والده.

(في دفاتر يومياته يطلق «ك» على هذه الكذبة اسم «الكذبة المثلّثة» أو «الآب والابن والبلدة القُدُس». وبواسطة هذه الدفاتر نفسها، اكتشف مارون، فيما بعد، أنّ ظهور هذه الكذبة تحقّق للمرّة الأولى في شهر آب عام ١٩٩٢).

Twitter: @ketab_n

ينتهي «ك» من لفظ كذبته، والصمت يطبق على الصالون. الآن، لا تسمع إلاّ أصوات السيارات العابرة خلف الزجاج. المنظر في المرآة غريب: شعر «ك» المنفوش عند قمّة الجمجمة، والمجزوز على الجانبين (هو طلب من الحلاّق أن يقصّه قصيراً جداً)، اللحية الكثيفة التي ماتزال تغطّي ذقنه وخدّيه، عيناه المحدقتان في المرآة. وفي الخلفية: الحلاّق بنظاراته القديمة الطران، المشط المعلّق من أصابعه كأنّه سيسقط أرضاً في أيّ لحظة، وثوبه الأزرق الباهت اللون. ويلفّ ذلك كلّه طبعاً صمت مطبق، ما إن كسره الحلاّق بكلامه حتى بدأت قصّتنا.

قال الحلاّق إنّه مايزال يتذكّر إسكندر، وأنّ الرجل كان دائماً يقصّ شعره ويحلق ذقنه في هذا الصالون، لكنه – أيّ الحلاّق – لم يعرف على الاطلاق أنّ اسكندر كان أباً. قال الحلاّق إنه مايزال يتذكّره جيّداً، بجسمه البدين وعينيه الزرقاوين ونظرته الهادئة. وقال إنّه يتذكّره أيضاً بسبب الاسم الغريب لبلدته، كفرمِلاّت.

نظر «ك» في المرآة فوجد عينيه تمتلئان بالماء. والحلاّق، الذي بدا كأنّه ينظر إلى مكان أبعد من المرآة، وأبعد من الجدار المحتجب خلفها، تابع الكلام كأنّه يحدّث نفسه: «كان بيته في أوّل الشارع، قرب المنارة».

قال «ك»: صحيح، قرب المركزالألماني.

وتابع الحلاّق: قدّام بيت الداعوق إذا لم أخطئ.

ومضى الحوار بينهما:

«ك»: «مضبوط».

الحلاّق: «بس ما كنت أعرف إنّو عندو ولاد».

«ك»: «مش ولاد! صبي واحد».

الحلاّق: «انت؟».

«ك»: «أنا».

Twitter: @ketab_n

الحلاّق: «غريب»!.

«ك»: «.....»

الحلاّق: «أبوك؟».

«ك»: مات في السنة الماضية، كان عائداً بالتاكسي من شغله في الضمان، فأصيب بسكتة قلبية. كانت السيّارة وصلت إلى أوّل الضيعة تقريباً.

ويصمت الحلاّق، فيقول «ك»: إن ذلك حصل في العام الماضي. ولا يعرف الحلاّق ماذا يقول. وفي النهاية، يتلعثم معلناً أنّه ما كان يعرف أنّ المرحوم يشتغل في الضمان.

يقول «ك» إنّ والده خسر كل ثروته في الحرب، وأنّه، بعد أن خسر كلّ شيء، أمّن صديق له وظيفة في صندوق الضمان الاجتماعي، وعاد ليبدأ من الصفر.

فيقول الحلاّق: «بس ما بتشبهه كثير» فصمت «ك».

كانت الدقائق تمرّ بطيئة. توقّف المطر عن التساقط. دخلت أشعّة الشمس قويّة إلى الصالون. طلب «ك» من الحلاّق أن يحلق له ذقنه أيضاً. عَبَرَت مجموعة صاخبة من الطلبة.

أغمض «ك» عينيه وقد تراجع برأسه إلى الخلف. كان في مقدوره أن يرى الكنبات والتماثيل، في بيت اسكندر الحمّاني، مغطاةً بالشراشف البيضاء، وضوء النهار ينزلق عليها كأنّه يمضي إلى مكانٍ آخر. ورأى اسكندر ممدّداً على سجادة مطرّزة بالنقوش، ورأى أنسي يصفّر قائلاً: «أقنعة مخيفة، لتمويه كلّ شيء، كأنّنا في برّاد للموتى!».

الآن كانت الموسَى تمرّ على ذقنه بنعومة. أحسّ ارتجافة خفيفة في ركبتيه. تخيّل بيت اسكندر قبل الحرب، تخيّل دَرَجه الرخامي العريض الذي يرصّع جانبيه درابزين من الحديد المشغول، ورأى الجنينة التي لا يُرى آخرها وقد توزّعت فيها مساكب الورد الملوّنة. أبصر، عند المدخل، الكوخ الأبيض النظيف، بشبابيكه الخشبية

Twitter: @ketab_n

المقطّعة كقطع البقلاوة، ورأى نصّار قاعداً هناك، مفتول الشاربين، يشرب الشاي وينظّف عدّة الجنينة.

وسمع صوتاً يقول: «نعيماً».

فتح «ك» عينيه ومال إلى الأمام قليلاً، ثم نظر إلى وجهه في المرآة. وعندئذ فقط رأى الحلاّق يتراجع محدّقاً في المرآة وهو يبتسم بفرح ودهشة، قبل أن يعلن أنّ اللحية كانت تحجب وجه «ك»، وأنّه، الآن فقط، تمكّن من ملاحظة الشبه المذهل بين «ك» وبين أبيه اسكندر.

***

يمشي «ك» تحت المطر. يدخّن السيجارة تلو السيجارة، وللحظة خاطفة يفكّر بالسير حتى نهاية شارع بُلِسّ، ويفكّر بالوقوف أمام البيت المهجور وأمام الجنينة التي أكلها الشوك. لكنّه لا يفعل ذلك.

إنّه يمشي تحت المطر. يدخّن السيجارة تلو السيجارة، يختار طرقاً تبعده عن المنارة وعن شارع بُلِسّ، يرتجف من البرد ومن الصقيع الذي يسري في رأسه ووجهه، ويدرك أنّه سيمشي حتى يهدّه التعب لأنّ جسده يفيض بالطاقة، كأنّ النّار تحرقه من الداخل.

«كلّ شيء يتساقط، كلّ شيء»، كان يفكر.

وبعد ذلك ابتسم وقال لنفسه: «لا، بالعكس»

إنّه مساء الخميس ٧ تشرين الأوّل ١٩٩٣. و«ك» الذي يمشي كالتّائه لا يعرف إلى أين يمضي.

***

ولد «ك» في بلدة كفرنبرخ، في قضاء الشوف، محافظة جبل لبنان، في ١٠ آذار ١٩٥١، من أبٍ لبنانيّ وأمٍّ فرنسية. حين مات أبوه كان مايزال في السابعة. وبعد خمس سنوات من موت والده، تزوّجت أمّه من مواطنٍ لها يعمل في السفارة الفرنسيّة ببيروت.

وبعد سنتين وبضعة أشهر من زواج أمّه، يجد «ك» نفسه أمام واحدٍ من خيارين: البقاء في لبنان برعاية جدّيه، وذلك بانتظار دخوله

Twitter: @ketab_n

إلى جامعة القدّيس يوسف؛ أو الهجرة مع أمّه وزوجها إلى وطنهما، فرنسا.

هكذا وقع «ك» في الحيرة، لأنّه فوجئ بقرار أمّه وزوجها. لكن الزوج، ميشال، كان له عذره، فوزارة الخارجية الفرنسية قرّرت نقله إلى باريس على وجه السرعة، وهو لا يستطيع إلاّ الرضوخ لقرارها، وذلك لحماية مستقبله الدبلوماسي.

قالت الأمّ انها لا تستطيع البقاء وحدها مرّة أخرى، ثم شهقت، وقال الزوج: طبعاً. ولبث «ك» حائراً لا يدري ماذا يقول، فكأنه أُلقي في زورق بلا مجاذيف.

نظر عفوياً باتجاه باب الغرفة، كأنّه يبحث عن مفرّ، فرأى الجدّة أمّ شوقي. كانت حزينة، وسألته أيَودّ أن يبقى معها ومع الجدّ أبو شوقي، فينشأ في البيت الذي نشأ فيه أبوه شوقي ولا يكون محاطاً إلاّ بالحنان.

وقالت الأمّ إنّ الخيار خياره، والتفتت إلى ميشال.

كان «ك» يحلم بأن يصبح محامياً، لأنّ والده كثيراً ما تمنّى ذلك لنفسه. وكان ميشال قد وعد أم «ك»، قبيل زواجه منها، أنّه سيحصل لابنها، حين ينتهي من دراسته الثانوية، على منحة تخوّله الدراسة في جامعة القدّيس يوسف في بيروت، أو في أيّ جامعة أخرى في باريس. كانت الأمّ تنظر إليه الآن، فقال ميشال إنّ وعده بالمنحة مايزال ساري المفعول بالطبع.

ستبقى تلك اللحظة مطبوعة في ذهن «ك» طوال حياته: الجدّة التي ترنو إليه بعينين حزينتين، والأمّ المتأهّبة قرب الباب بانتظار جوابه، وميشال المبتسم ابتسامة تريد أن تقول: «لك ما تريد، وقرارك يسعدني مهما كان.» وبعد ذلك يقول «ك» إنه سيبقى، وتمضي الأم إلى غرفة النوم كي تحزم حقائبها، ويتقدّم ميشال منه ويعطيه دفتراً صغيراً شارحاً أنّه «حساب توفير» في البنك اللبناني – الفرنسي، وأنّ هذا الدفتر هديّة منه كأبٍ وصديق.

Twitter: @ketab_n

هذا المشهد سوف يستعيده «ك» فيما بعد، وقد سيطرت على جوّه رائحة دم تصل إلى الغرفة عبر النافذة المفتوحة على المصطبة، حيث أبو شوقيّ يذبح خروف العيد.

وحين سيخبر «ك» صديقه مارون بهذه القصّة، في البيت الذي استأجراه معاً قرب حديقة الصنائع عام ١٩٦٨، خلال دراستهما الحقوق في جامعة القدّيس يوسف، فإنه سوف يطلق ضحكات صاخبة عند وصفه لمشهد جدّه، راكعاً قرب الخروف المذبوح، وهو يلتفت مذعوراً إلى صوت الجدّة ليسمع بشارتها، فكأنّ الجدّ كان يحتاج إلى صرخة الجدّة كعذر لإظهار فزعه من الدم المتدفّق من عنق الخروف السمين.

الجدّة تقول: إن «ك» سيبقى معهما. فيقفز الجدّ ويعانق «ك» ملطّخاً كنزته بالدمّ، فتخرج الأمّ لترى ابنها مغطى بالدم، فتزعق وتقع مغشياً عليها، ثم يخرج الزوج هو أيضاً ويحسب أنّ الأمّ حزينة لأنّ الابن لن يسافر، فيشتم المسيح والأطفال الذين لم يأتوا إليه، فلا تفهم الجدّة قوله، وكذلك الجدّ. أما «ك»، الذي قرأ الانجيل باللّغة الفرنسية، فيفهم جيّداً، ويقرّر أن يردّ الهدية إلى ميشال، «الأب والصديق».

هل جرى كلّ ذلك حقّاً؟ في ما يخصّ تفاصيل الرائحة والدم والإغماء ودفتر البنك، لا يعتقد مارون أنّ القصة دقيقة، ويعلم، عدا هذه التفاصيل، أنّ القصّة حقيقيّة لأنّه سمعها مرّة ثانية، ومن الأم، عام ١٩٧١ في مونبارناس بباريس.

***

لكننا الآن في ٧ تشرين الأوّل عام ١٩٩٣.

تركنا «ك» وقد خرج من صالون الحلاقة وأخذ يمشي ويدخن. السماء تمطر. «ك» يصعد صوب شارع الحمرا ثم ينعطف يساراً، ويمشي فوق الرصيف المضاء بلافتات محلاّت الثياب.

لافتات النيون، بشعاعها الأبيض الباهر، تعيده إلى جوّ صالون

Twitter: @ketab_n

الحلاقة، وهو لا يعرف كيف حلّ الظلام بهذه السرعة. يسير حتى السفارة الإيطالية، ويدور حولها مسرعاً ثم يقطع الشارع العريض راكضاً. يتجاوز الزحمة قرب موقف الباصات الكبيرة ويشعل سيجارة أخرى دون أن يتوقّف عن المشي. تحرق القداحة يده، لكنه لا يهتم.

ينعطف يميناً، يسرع، يتجاوز فندق البريستول ثم يمضي في شارع مدام كوري. الليل بارد ورطب وهو يمشي، وينحدر صوب البحر. البنايات العالية تحيط به من الجانبين، والشارع المعتم يمتدّ أمام قدميه، وهو يرى بحراً فينحدر صوبه. وحين يصبح قريباً منه، يذهب يميناً، ثم يجلس، لثانية، على حافة الرصيف، يأخذ نفساً ويشعل سيجارة. ويقوم واقفاً مرّة أخرى.

يركض ولا ينظر إلاّ أمامه. وحين يصل قرب المنارة يخفق قلبه سريعاً. يلتفت، لثانية، فيرى قناطر البيت الكبير فوق الكورنيش، ثم يشيح بوجهه بعيداً. أضواء العواميد لونها برتقالي، تشعّ فوق البحر كأنّها ترسم طريقاً إلى حيث لا يعلم أحد.

بات الرصيف عريضاً جداً. على يساره صيادو السمك، فوق رؤوسهم المظلاّت، قربهم قصبات الصيد مسنودة إلى درابزين الحديد، والموج يأخذ الصنّارة ويردّها، والكرة النحاسية المثبتة إلى رأس القصبة ترنّ. و«ك» يسمع رنينها يطغى على خفقات قلبه. ويأخذ نفساً عميقاً فتدخل رائحة بيروت قاسية في أنفه.

يقطع الكورنيش إلى الجهة الأخرى ويتسلّق طلعة عين المريسة. يصل إلى الزقاق المعتم، بعد المنعطف حيث تمثال جمال عبد الناصر يمشي باتجاه جدار الجامعة الأميركية ثم يستدير ويصعد في الطريق الضيّقة المؤدّية إلى «الجيفينور». هناك، وسط المساحة المغمورة بالضوء الأبيض، يقف «ك» لاهثاً، ويدرك للمرّة الأولى، وبعد ستّة وثلاثين عاماً من اللامبالاة، أنّه لا يعرف شيئاً عن أبيه.

كان قد تبلّل تماماً: شعره، ثيابه، جلده، سجائره. وانتبه إلى الألم في عينيه. كان المكان مهجوراً، لكن مصابيح السيّارات العابرة

Twitter: @ketab_n

في خياله ظلّت تثقب بؤبؤيه. مسح الماء عن وجهه فوجد نفسه يرتجف.

كان قد دار دورة واسعة مركزها نقطةٌ مّا تقع وَسْط شارع الكومودور، وكان عليه الآن أن يذهب إلى تلك النقطة بأسرع ما يمكن: حدّق «ك» في حذائه ثم هُرِع إلى بناية الكومو - غاردن، حيث يعيش وحيداً منذ خمس عشرة سنة.

***

أقفل الباب بالمفتاح. أضاء المصابيح الثلاثة. مصباح الحمّام ثم مصباح الغرفة ثم مصباح المطبخ. فتح البرّاد الصغير الموضوع في الزاوية. أخرج قنينة الفودكا. خلع معطفه ورماه على الكرسيّ. فتّش في الخزانة وفي الكومودينة حتى عثر على علبة سجائر.

جلس على حافّة السرير، قبالة المكتبة. قلب القنينة على فمه. أخذ نفَساً عميقاً من السيجارة. كانت ثيابه المبلّلة تلتصق بجسده.

التفت يساراً ونظر: الستائر مفتوحة، اللّيل سميك وراء البوّابة الزجاجية الجرّارة. ضوء المصباح الباهر يحوّل زجاج البوّابة إلى مرآة كبيرة. حدّق إلى وجهه فوجده مشوّهاً. لم يفكّر أنه الوسخ الذي على الزجاج، وفكّر أنّه يسقط ويقع.

أغمض عينيه ومدّ ذراعه على طولهما والتقط كتاباً عن الرفّ الرابع. وحين فتح عينيه لم ينظر إلى عنوان الكتاب.

- هذه اللعبة ما عادت تنفع، قال لنفسه.

الكتاب كان «دون كيشوت». أعاده دون أن ينظر إليه. على كلّ حال، هو يعرف كتبه من ثقل وزنها ومن ملمس غلافها.

حدّق «ك» في الزجاج: رأى وجهه، ورأى الحلاّق يتراجع، وسمع تلك الكلمات: «بلى، الآن أُلاحظ الشبه القوي بينك وبين أبيك اسكندر».

هل هذا ما قاله الحلاّق؟ نعم، تقريباً.

Twitter: @ketab_n

في الغرفة الموصدة، تكرّرت الكلمات نفسها إلى ما لا نهاية. وفكّر «ك» المحاصر. فكّر أنّه يفقد نفسه، وأنّ جسده يغادره، وأنّ عقله يغادره أيضاً. وفي تلك اللحظات فكّر في مارون، وفكّر في جدّيه، وفكّر في الكتاب الذي أراد كتابته ذات يوم، وفكّر في أمّه. وكانت الغرفة تدور من حوله: الخزانة تدور، المكتبة المليئة بالروايات تدور، الجدران المبطّنة بالفلّين تدور، البوّابة الزجاجية تدور، والسقف أيضاً يدور.

كان «ك» يهوي. كأنّه يسقط في بئر بلا قرار. وكان يضحك. كان جسده يؤلمه لكن أرنباً قفز من رأسه وأخذ يركض أمامه. وفكّر «ك» انه الأرنب الذي تسبّب بنزول أليس إلى بلاد العجائب، ونسي أنّه يهوي، فضحك.

وفي لحظةٍ مّا أدرك «ك» أنّه ليس بطلاً في رواية، وأنها النهاية حقّاً. ورغم ذلك لم يتوقّف عن الضحك. كان كلّ شيء فيه يرتجف، والقنينة الفارغة وقعت من يده، والسيجارة أيضاً.

وكانت هناك صور تلتصق بوجهه: صورة مارون، صورة يوسف حبشي الأشقر، صورة اسكندر المثبتة فوق الغلاف الأخير لرواية «لا تنبت جذور في السماء»، صورة والده بالأبيض والأسود واقفاً مع جدّه أبو شوقي أمام صيدلية بشارة بارودي على ساحة البرج، صورة أمّه مع ميشال في حديقة بيتهما في باريس، صورته في شقّة الصنائع متدثّراً ببطانية مارون، صورة النيران المتصاعدة من بلدة الدامور. صورة الطواحين الهوائية شمالي مدريد.

ويدرك «ك» أنّه قد بات مهجوراً تماماً. يصل إلى الباب، فيقع قربه، وكلّ شيء يضيع: السنوات، الغرف، الحبّ الذي مات، الحياة التي تلاشى صوتها خلف جدران الفلين، الأب الذي لم يُعطَ له، الأحلام التي سُرقت منه، أمّه التي لم تكن أمّه، إسكندر الذي وُجد ليذهب، مارون الذي رحل، وكلّ هؤلاء الذين قرأ عنهم في الكتب، كلّ شيء يتداخل مع كلّ شيء. و«ك» يتساقط على الأرض، والوجوه تتلاشى أمام عينيه.

Twitter: @ketab_n

كلّ الوجوه، إلاّ وجهَ اسكندر، فكأنّهم لم يقتلوه عند باب المقبرة.

و«ك» يقف، يفتح الباب، وينزل الدرج قفزاً. يخرج إلى الشارع. يركض ويركض ويركض. الشوارع معتمة، والمطر يهطل مرّة أخرى. وهو ينحدر صوب البحر، ولا يعود أبداً.

***

Twitter: @ketab_n

٢

لاحظ محمد أنّ «ك» لا يخرج من البناية أبدا، بل هو لم يرَه قط منذ أسبوع بل أكثر.

هذه الملاحظة تشكّلت في ذهن محمّد واضحةً عند ظهيرة ٢٥ تشرين الأوّل ١٩٩٣، أي بعد عشرين يوماً تقريباً على اختفاء «ك» الفعلي. وكان من الطبيعي تماماً أنّ أحداً لم يلاحظ اختفاء «ك» قبل محمّد، والسبب بسيط جدّاً: إنّ «ك» لا يعني شيئاً لأحد. إنّ أحداً – باستثناء تلك الشخصيات في الروايات التي يقرأها ويعيد قراءتها – لا يعني شيئاً لـ «ك». فـ «ك» ليس له لا أصدقاء، ولا أهل، أو، على الأقلّ: ليس له أصدقاء أو أهل في لبنان.

ومحمّد هو الرجل الذي يبقى جالساً في المكتب الزجاجي أسفل بناية الكومو – غاردن من السابعة صباحاً (يقوم قبل ذلك بإيصال بناته الخمس إلى المدرسة)، إلى الثامنة مساءً (إنّه لا يترك المكتب سوى ساعة واحدة يتناول خلالها طعّام الغداء عند المعلّم سمير صاحب المطعم المجاور).

ومحمّد، فضلاً عن ذلك، هو الرّجل الذي يملك مفاتيح كلّ شقّة من شقق البناية.

إنّه عصر ٢٥ تشرين الأوّل عام ١٩٩٣. محمد يجلس على الكرسي مراقباً أهل البناية، خارجين منها أو داخلين إليها. كما توقّع، يلمح أخيراً عجوزي الطابق السادس: رجل في نحو السبعين

Twitter: @ketab_n

من عمره، وامرأة تبدو أكبر منه بسنوات، مع أنّها لم تبلغ الستّين. ومحمّد يناديهما ثم يسرع صوبهما.

يسألهما متى التقيا «ك» آخر مرّة. يقول الرجل إنّه لم يعد يتذكّر. وتُطرق المرأة لحظة ثم تنظر إلى زوجها وتسأله متى قاما بتبديل مصباح المدخل. فيسألها الرجل عن أيّ مصباح تتكلّم، فتقول إنّها تتكلّم عن المصباح الذي يظل محروقاً، مصباح الممر في الطابق السادس طبعاً. وينظر محمّد إليهما كأنّ الأمر لا يعنيه. يقول الرجل: آه. ويبدو انه قد تذكّر، ومحمد ينتظر بفارغ الصبر، فيتكلّم الرجل أخيراً ليقول إنهما بدّلا المصباح في أوّل الشهر، وأن «ك» ساعدهما بذلك، وانهما بعد ذلك لم يشاهداه.

يذهب محمّد لاستشارة صديقه، المعلّم سمير، لكنّه يعدل عن رأيه قبل أن يصل إلى المطعم. يعود إلى البناية ويطرق الباب على عبدو – الرجل البنغلادشي الذي يتولّى تنظيف البناية منذ عشر سنوات تقريباً، والذي يقطن مع عائلته في الطابق السفلي، على بعد خطوات من مكتب محمّد.

حين يفتح عبدو الباب، ينتبه محمّد أنّ الرجل لا ينتعل حذاءه. فيطلب منه أن يفعل ذلك فوراً لأنّ عليهما القيام بعمل مهم.

الكهرباء ليست مقطوعة. يدخلان إلى المصعد الكهربائي. المرايا تحيط بهما من الجوانب الثلاثة. ومحمد يحدّق في وجه عبدو الكالح، ويتساءل هل مات «ك»، وهل سيعثر عليه ممدّداً في سريره، بارداً كسمكة، والرائحة تفوح منه. ويسأل عبدو عن طبيعة العمل المهمّ، فيردّ محمّد على السؤال بسؤال، وعبدو يجيب أنّه لم يدخل شقّة «ك» منذ أكثر من سنتين، وأنّه، حتى قبل ذلك، في السنوات الأخرى، نادراً ما طلب منه «ك» القيام بتنظيف الأرض أو مساعدته في نقل أيّ غرض.

– وقناني الغاز؟، يسأله محمّد.

– يضعها قدّام الباب، يجيب عبدو.

يبتسم محمّد. «القاف» التي يلفظها عبدو «كافاً» تضحكه دائماً،

Twitter: @ketab_n

كذلك لهجة عبدو، والطريقة التي يبدو فيها كأنّه يقفز عن الأرض مع كلّ كلمة تخرج من فمه.

يتوقّف المصعد. يخرج محمّد أوّلاً. باب الشقّة رقم ٦٣ يواجههما.

يُدخل محمد المفتاح في القفل. فيرفع عبدو رأسه كأنّه يتشمّم الهواء، ثم يبتسم. يفتح محمد الباب ويقف. فيدخل عبدو. المصابيح الثلاثة مضاءة. المكان مهجور. رائحة كتب تفوح، رائحة هواء محبوس. يمضي عبدو إلى البوّابة الزجاجية ويجرّها إلى اليسار مسافة سنتمترات قليلة. يطفئ محمّد المصابيح، ينحني عبدو ويلتقط زجاجة الفودكا.

يخرجان من الغرفة، ويغلق محمد الباب ثم ينزلان بالمصعد. يضحك عبدو رافعاً القنينة في الفضاء، فيخبطه محمد على كتفه ويقول له إنّه أبله. ويدفع عبدو باب الحديد غير مبالٍ فيخرج محمد قبله. يتبعه عبدو ويلتفت محمد، فيرمي عبدو القنينة في برميل النفايات مدركاً أنّه سيخرجها عند المساء كي يبيعها لإنعام جامع القناني الفارغة. ويمضي محمّد إلى مكتبه الزجاجي فيشعل سيجارة ويفكّر أنّ «ك» قد سافر إلى سوريا كعادته، أو صعد إلى أهله في الجبل.

وهكذا تمضي الأيّام: «ك» لا يظهر، محمد يحسب أنّ الرجل قد ذهب في رحلة طويلة، العجوزان يفتقدان الرجل الأربعيني، صاحب النظرة الهادئة، وجارهما الذي لا يُسمع له صوت، منذ خمس عشرة سنة. وعبدو نفسه يتساءل: لماذا لم يعد يبصر «ك» خارجاً في الليل كي يشتري ربطة خبز، أو قادماً عند العصر وفي يده كيس مليء بالكتب. ويأسف عبدو لانخفاض معدّل القناني المرمية في برميل النفايات، ويفكّر أنّ إنعام – الذي يأتي مرّة في نهاية كل شهر – سيصاب بالخيبة هذه المرّة.

بغير هذه الخواطر العابرة في رأس العجوزين، أو في رأس محمد وعبدو، يبدو «ك» كأنّه لم يكن في هذا العالم ذات يوم، وكأنّ أمّه لم تلده في صباح ٢٠ آذار ١٩٥١.

Twitter: @ketab_n

٣

غادر مارون بغدادي فرنسا، متوجّهاً إلى بيروت، مساء السادس من تشرين الثاني عام ١٩٩٣.

كانت الطائرة شبه خالية. والبرق يشقّ السماء خلف النافذة المربّعة. استرخى مارون في المقعد ٤٣، فكّ الزرّ العلوي لقميصه، فتح حقيبته السامسونيت، أخرج منها ظرفاً ورقياً كبيراً، ثم اغمض عينيه.

كانت هناك رائحة عطر خفيفة في جوّ المقصورة، سمع صوت موسيقى خافتة تنبعث من المقدّمة، وغاب في الذكريات.

كانت السماء تمطر. إنّه في صالة أحد فنادق كاليفورنيا، يتحدّث مع بيروت. هناك زحمة في الصالة. الضوء قوي، والهواء راكد. متى كان ذلك؟ في بداية هذه السنة أم في نهاية العام الماضي؟

يسأله «ك» ما الذي أخذه إلى أميركا؟

فيقول إنه هنا في زيارة عمل.

ويضحك «ك».

يخبره مارون أنّه سيصنع فيلماً بعنوان «القوّاد الأخير»، بتمويل من هوليوود، فيحصل على ما يكفي من الدولارات كي يعود إلى بيروت ويصنع فيلم حياته.

يضحك «ك» مرّة أخرى.

Twitter: @ketab_n

فيقول مارون لـ«ك» إنّه قرأ السيناريو وترجمه إلى الفرنسية وقام بإرساله إلى شركة الإنتاج، وأنهم سيوافقون.

ويُذكّره «ك» بالاتفاقية بينهما.

يقول مارون: إن كلّ شيء سيجري كما اتفقا، ولن يعرف أحد أنّ لـ«ك» علاقة بالأمر من قريب أو بعيد.

ويمضيان في الحوار:

«ك»: «وإذا طلبوا منّك أسماء كتّاب لبنانيين، ماذا تقول لهم؟ أنت قلت لي إن المنتجين يطالبون بأسماء دائماً، أليس كذلك؟».

مارون: «اطمئن. الفكرة فكرتي. أليس كذلك؟ في الحدّ الأقصى سيطلبون منّي أن أتعاون مع روائيٍّ مّا بغية صياغة حوارات متينة. حسناً، في هذه الحالة أطرح بضعة أسماء وتنتهي المسألة. الياس خوري، أو رشيد الضعيف، أو حسن داوود أو ما بعرف مين».

«ك»: «ولا تذكر اسمي أبداً».

يضحك مارون ويسأله: «لكن من أنت؟ أنا لا أعرفك».

«ك»: «طيّب، عظيم، صحيح، ومن أنا أصلاً؟».

ولا يدرك مارون أنّ هذه آخر كلمات يسمعها من «ك».

ذكرى هذهِ المكالمة التي جرت خلال العام الماضي، تجرّ مارون إلى ذكرى أخرى بعيدة. كانت تمطر أيضاً. لكنّه في البيت، مع زوجته فيرونيك وابنه طارق وابنته ليلى. إنّهم يشاهدون فيلمه الجديد على التلفزيون. هو متوتّر، وفيرونيك تطلب من ليلى أن تذهب إلى سريرها. وطارق يحدّق في الشاشة. ومارون يفكّر أنّ هذا فيلم لا يصلح للأولاد. أعتمت الشاشة، وظهرت صورة فزّاعة وسط حقل، ثم أعتمت مجدّداً. تركهم وذهب إلى غرفة النوم، واتّصل بلبنان. استغرق الأمر عبدو كي يصعد قفزاً إلى الطابق السادس قرابة الدقيقتين. وحين عاد كان «ك» خلفه.

مارون: «الكهرباء مقطوعة عندكم».

Twitter: @ketab_n

«ك»: «صحيح».

مارون: «عرفت لأن عبدو تأخّر».

«ك»: «إنّه يلهث».

مارون: «أعرف، تخيّلته يقفز على الدرج، قفزاً».

«ك»: «كيف أحوالك؟».

مارون: «أحوالي كلّها نشاط، كالعادة. إنّهم يعرضون فيلمي في هذه اللحظات».

«ك»: «والأولاد، كيف طارق؟».

مارون: «غداً عيد ميلاده».

«ك»: «قرأت مقالاً عنك».

مارون: «من كتبه؟».

«ك»: «لا أحد».

مارون: «سأرسل لك الفيلم خلال أيام. عندي النسخة الانكليزية فقط، وعلى كلٍّ هي الأفضل».

«ك»: «لكنّه لن يصل قبل شهرين».

مارون: «لماذا؟».

«ك»: «بسبب عنوانه. أليس عنوانه: «بطيئاً... بطيئاً في الرّيح؟».

مارون: «في الريح، لا في البريد الجوّي. وأنت، كيف أحوالك؟».

«ك»: «عظيم. متلك. كلّي نشاط. البارحة نظّفت المكان».

مارون: «وصاحبتك؟».

«ك»: «لا أعلم. إنّها غريبة هذه الأيّام».

مارون: «غريبة – كيف؟».

«ك»: «غريبة – بدأت تضجر مني!».

مارون: «غريبة – طبيعية إذن».

Twitter: @ketab_n

يضحكان.

مارون: «والسيناريو، متى سترسله إليّ؟».

«ك»: «بعد أن أكتبه طبعاً».

مارون: «ومتى تكتبه؟».

«ك»: «لن أفعل».

مارون: «لكنّنا اتفقنا. أنت وعدتني».

«ك»: «أعلم ذلك».

مارون: «إذن؟».

«ك»: «إذن، لا أعلم».

مارون: «لماذا؟».

«ك»: «لأنّي أكره السينما، ولأنّي أحب الروايات، ولأنّي أعيد قراءة كافكا هذه الأيّام».

مارون: «لكنك وعدتني، قلت لي إنّك: ستكتب لي سيناريو واحدا كخدمة شخصية».

«ك»: «صحيح».

مارون: «وما الذي تبدّل الآن؟».

«ك»: «اسمع، عندي فكرة قد تعجبك. هل قرأت رواية يوسف حبشي الأشقر الجديدة؟».

مارون: «اسألني أوّلاً هل قرأت القديمة؟».

يضحكان.

يتخيل مارون «ك» واقفاً في المكتب الزجاجي المضاء بمصابيح النيون، وعبدو يقف في مدخل المبنى مرتجفاً من البرد، بانتظار انتهاء المكالمة. وبين حين وآخر ينظر إلى الشارع حيث السيّارات المركونة، وحيث العتمة تغطّي قمم الأشجار الثلاث القريبة من الفندق المهجور.

Twitter: @ketab_n

و«ك» يشرح: أستطيع أن أصنع منها سيناريواً.

مـارون: وتدخلني في قـصّـة شـراء حـقـوق الاقـتـبـاس ونَقَعُ في مشاكل لا بداية لها ولا نهاية.

«ك»: .....

مارون: حسناً، تكلّم، أخبرني عن الفكرة.

«ك»: انتظر لحظة.

إنّه يجلس على حافة السرير العريض. فيرونيك تقف في الباب الموارب. يتحدّثان بالفرنسية.

– ما الأمر؟، يسألها.

– ألن تشاهد الفيلم؟.

– لقد قرأت قصّته عشرين مرّة، ثم أخرجته بنفسي، وبعد ذلك شـاهدته أكـثـر من ثلاثين مـرّة خـلال أقلّ من شـهـر واحـد، فلمـاذا أشاهده الآن؟.

– لأنّك تحب أفلامك.

– تقصدين: لأنّي أحبّ نفسي.

– هذه أيضاً!.

– إني أتكلّم مع بيروت.

– مع من؟.

– مع صديق.

– ذكر!.

– صديق، ك.

– الصوفي! حسناً.

فـيـرونيك تغـادر الغـرفـة. تـغلق البـاب خلفـهـا فـيـتـلاشى صـوت التلفزيون.

Twitter: @ketab_n

مارون: آلو...

«ك»: آلو...

مارون: يمكنك أن تبدأ.

«ك»: سألخّص لك القصّة أوّلاً ثم أقترح فكرتي، مفهوم؟

مارون: مفهوم.

«ك»: هناك بطلان: اسكندر ويوسف. اسكندر نعرفه في الرواية السابقة «لا تنبت جذور في السماء» ولقد نشرها الأشقر عام ١٩٧١.

مارون: اختصرْ.

«ك»: هذا هو الاختصار. التواريخ هنا مهمّة جداً كما ستكتشف لاحقاً. وإذا لم تكفّ عن مقاطعتي... دعني أخبرك أنّي تركت كافكا وحيداً في الغرفة مع دزينة جرذان فوق وجهه، وأنّ هذا الشاب المسلول هو مسلٍّ أكثر منك أحياناً، فـ...

مارون مقاطعاً بضحكة: حسنا، فهمت، تكلّم.

«ك»: اسكندر إذن نعرفه من الرواية السابقة. إنّه باختصار رجل وحيد، ميزته الأساسية صِدْقه مع ذاته، صدقه الجارح الذي يُبعد عنه الجميع، لأنّه يمنعهم من تمويه أنفسهم. واسكندر له صديق واحد مهمّ هو أنسي. وهو مثلك نشيط جداً ومليء بالطموح؛ هذا في الرواية الأولى. لكن، في «الظل والصدى»، نرى صديقاً آخر لإسكندر هو خليل، وهو كاتب قَصَصي ورجل فقير، وابن خليل هو يوسف، ويوسف وحيد بين خمس بنات، وهو البطل الأساسي الثاني، بعد اسكندر، في هذه الرواية. ولقد سماه والده بهذا الاسم تيمناً بيوسف الخروبي الذي غرق في البحر بعد أيام قليلة من ولادة الطفل. ويوسف الخروبي هو بطل أوّل رواية نشرها الأشقر، رواية «أربعة افراس حمر» التي صدرت عام ١٩٦٤، ويوسف الخروبي هذا كان صديقاً لاسكندر ومعلّماً له، وهو يمثّل لاسكندر شيئاً يشبه يسوع المسيح لأنّه مات فداء. فلقد غرق وهو يساعد أحدهم. إنه لم يكن يعرف السباحة، فهو بالتالي أشبه ما يكون بالمخلّص».

Twitter: @ketab_n

مارون: هناك ثلاث روايات عن اسكندر إذن، هناك ثلاثية؟

«ك»: «لا. فقط روايتان. الأولى، الافراس الحمر، لا علاقة لها بشيء، لا باسكندر ولا بالأشقر ولا بأحد. عليك أن تنسى أنّها موجودة. هناك فقط رواية عام ١٩٧١ ورواية عام ١٩٨٩، على الأقلّ في القصّة التي أحاول تركيبها.

مارون: طيّب، أكمل.

«ك»: في الرواية الأولى، «لا تنبت جذور...»، يكتب الأشقر عن اسكندر وأنسي كوجهين لعملة واحدة. في الرواية الثانية، بعد عشرين عاماً تقريباً، يكتب الأشقر عن اسكندر ويوسف، الرجل والظلّ الناقص، مفهوم؟

مارون: مفهوم أستاذ، تابع.

«ك»: رواية ١٩٧١ هي قبل الحرب، أما رواية عام ١٩٨٩ فهي رواية حربنا، حرب السنتين ٧٥ – ٧٦ وما بعد هذه الحرب. اسكندر بالطبع محايد وضد الحرب، كالأشقر نفسه في كتابه «المظلّة والملك وهاجس الموت» الذي أصدره عام ١٩٨٠، وهو الكتاب الذي يعتبره الأشقر الكتاب الأقرب إلى قلبه، وهو يشبه اليوميات وأدب الاعترافات. هذا هو اسكندر، رجل مستوحد وضدّ الحرب ومالك إمكانيات هائلة ومجمّدة، وهذه الإمكانيات مجمّدة لأنّه يدرك أنّه يعيش وَسْط عالم لا عدالة فيه لأنّه مؤقّت، وهو لا ينتحر فقط كي لا يورث والديه غصّة أبدية، وبالتالي فهو يعيش كأنّه في حلم، أو كأنّه ميت، ولا يحب أحداً، ولا أحدٌ يحبّه، إلاّ خليل ومارت ربّما. والذي يحصل: أن يوسف يقع في غرام مارت، وهي الفرنسية التي تعيش مع اسكندر منذ الرواية السابقة. ويوسف يأتي دائماً مع والده خليل من زاروب البلاط في الأشرفية إلى المنارة في رأس بيروت، كي يزورا اسكندر. هذه الزيارة يقومان بها أيّام الآحاد. يأتيان مشياً من زاروب البلاط إلى ساحة البرج، يأكلان كنافة بجبن عند الصمدي، يأخذان الأوتوبيس حتى السفارة البابوية أو الجامعة الأميركية، ويتمشيان حتى يصلا إلى بيت اسكندر في آخر خط المنارة.

Twitter: @ketab_n

والحقيقة أنّ خليل هو الذي يزور اسكندر، أمّا يوسف فيأتي كي يجلس في حضن مارت التي تقرأ معه كتباً تجلبها من مكتبة اسكندر الكبيرة، والتي تجلس معه على الشرفة العالية كي يتفرجا على السماء أو البحر أو حرج العفص. فمارت أرادت دائماً أن تكون أمّاً، وأم يوسف مشغولة عنه بعلاقتها برَجل يدعى أسد. وفي هذه النقطة يتشابه يوسف مع بطل رواية «أربعة افراس...»، لكن هذا لا يهمّنا.

مارون: ما الذي يهمّنا؟

«ك»: الذي يحصل فيما بعد. يوسف سيكبر ويقارن بين بيته الضيّق وبيت اسكندر الذي يشبه القصر. يفكّر أنّ بيته فيه حمّام واحد، وأنّ لديه أخوات يقفن في الصفّ كلّ صباح للاغتسال، ويرى الرخام والمرايا في حمامات قصر اسكندر. يقارن بيته بالقصر، ويفكّر أيضاً أنّ اسكندر يملك ماذا؟»

مارون يجيب: الفرنسية.

«ك»: طبعاً، الفرنسية، مارت. واسكندر الصامت يجعل يوسف يكرهه لأنّه بعيد دائماً ولا يمكن الوصول إليه، وخليل يزيد الطين بلّة حين يقول ليوسف إنّ اسكندر رجل عظيم ولا يهمّه المال وأن قلبه طيّب وانّه صادق، وأشياء كهذه، وبالتالي ما الذي يحصل ليوسف؟

مارون يجيب: يزداد كرهه لاسكندر.

«ك»: حسناً، ومارت؟

مارون: تتحول إلى حب يوسف لأنّها تكتشف أن اسكندر لا يحب أحداً، لأنّه لا يستطيع أن يحبّ، لأنّه صادق.

«ك»: وكيف عرفت أنت كلّ هذا؟

مارون: بقوّة الاستنتاج.

«ك»: ربما.

مارون: بالتأكيد.

Twitter: @ketab_n

«ك»: أعجبتك القصّة؟»

مارون: أكملها أوّلاً.

«ك»: حسناً، تبدأ الحرب. يوسف يتحوّل إلى مقاتل في صفوف الكتائب. من الأشرفية يقصف الغربية ويقصف رأس بيروت. وكلّما حصل وقفٌ لإطلاق النّار، يقطع خليل معبر المتحف إلى الغربية لزيارة اسكندر.

مارون: وذات مرّة، بينما كان يعبر المتحف، يخطفونه ويقتلونه.

«ك»: أنت حقاً لم تقرأ الرواية؟

مارون: لا. لم أقراها. استنتجت ذلك استنتاجاً.

«ك»: كيف؟

مارون: لأني أعرفك.

«ك»: لكني لست من كتبها.

مارون: صحيح لكنّك أحببتها، وهذا أمرٌ مشابه.

«ك»: ماتزال قريباً يا مارون.

مارون: لكني رحلت. أنت قلت لي، ألا تذكر؟

«ك»: بلى، رحلت، لكنّك كالموتى: ترحل لكنّك تبقى قريباً. أنت مثل جدّي.

مارون: كذّاب.

«ك»: لا. إني فقط أحلم كثيراً.

مارون: وبعد أن يموت الرجل، خليل؟

«ك»: يقرّر يوسف أن ينتقم له بالقصف والقصف والقصف. ويدخل أيضاً في معارك الأسواق، يقتل ويسرق ويحارب كالجميع. وبعد ذلك يصاب بالقرف. وبعد القرف يذهب إلى السجن، وهناك يكتب كلّ شيء.

مارون: يصير كاتباً؟ مثل أبيه؟

Twitter: @ketab_n

«ك»: لا. ليس في البداية على الأقلّ. ففي البداية لا بدّ له من أن يتذكّر كلّ شيء. وهنا روعة الكتاب. انه يتذكّر كي يفهم، لكن هل تعرف كيف يتذكّر؟ يتذكر الأشياء في مشاهد فتتداخل الوجوه وتتلاحق الصور كأن...

مارون: كأن الحياة سينما.

«ك»: أو كأنّها مجرّد منام. ما رأيك؟

مارون: تابعْ، تابع.

«ك»: هذا كلّ شيء. يوسف في السجن يتذكّر كلّ شيء مكرّراً عبارة واحدة هي «الشاشة عُلّقت» وفي بعض الأحيان يقول: كأنّها شاشة سينمائية...

مارون: تابع.

«ك»: ماذا أتابع؟ تدريجيّاً يفهم يوسف اسكندر، فيوسف خارج من حرب كما كان اسكندر من قبله!

مارون: لكنّك قلت إنّ اسكندر لم يحارب.

«ك»: هنا تأتي رواية «لا تنبت جذور...» فاسكندر حربه من نوع آخر. وهي حرب أعمق من القصف. إنها الوحدة والخيبة، إنّها طلب التواصل والبحث عن التوازن الشخصي وسْط عالم كلّ شيء فيه مؤقّت وهشّ وقابل للعطل...

مارون: هذا كلّه أدب، وأدب رديء، كيف نجعله سينما؟

«ك»: بسهولة. فأنت وحدك الرديء. ولو أنّك قرأت «لا تنبت جذور...» لاكتشفت كيف؟ لدينا مثلاً مشهد اسكندر مع انسي في غرفة الدير، هناك مشهد مقهى مطلّ على الوادي، هناك قصر اسكندر، هناك الضيعة... نستطيع هنا أن نصنع سينما حقيقية.

مارون: يا حقير. يا كاره السينما. يا كذّاب.

يضحكان.

«ك»: أعجبتك الفكرة؟

Twitter: @ketab_n

مارون: أكملها، أوّلاً!

«ك»: يوسف يتذكّر اسكندر وهو يكتب. يتذكّر ويكتب معتبراً أنّ كلّ ما هو غير مكتوب هو أيضاً مزيّف. وتدريجيّاً يفهم يوسف اسكندر ويدرك حقيقته فيصير كأنّه اسكندر. بلى، الحكاية الكلاسيكية: تفرّغ للكتابة عن شخصٍ مّا وستتحوّل إلى هذا الشخص مع مرور الوقت. وتنتهي الروِاية. يوسف يصير مثل اسكندر ومارت ترحل وخليل أعطاك عمره. أمّا اسكندر، فلا نفهم. قبل أن يصبح يوسف مثل اسكندر، تموت أم اسكندر. وهذه بداية الظلّ والصدى. فأنْسِي الذي يظهر في الفصول الأولى كي يربط الرواية بتلك التي سبقتها، يجيء إلى بيت اسكندر كي يخبره بموت أمّه في كفرملاّت. إنّه يدخل بيت اسكندر فيجد الكنبات واللوحات والتماثيل مغطّاة بالشراشف البيضاء، وأمام الباب يرى كلب اسكندر وقد صار عجوزاً وشعره يتساقط. أنسي يتذكّر في هذه اللحظات بداية «لا تنبت جذور في السماء»، لأنّه يتذكّر قصر اسكندر في أيّام العزّ، حين كان الكلب قويّاً وشعره كثيفاً. هذا المشهد يأخذه الأشقر من رواية الأميركي شتاينبك. وكما حصل في تلك الرواية المسمّاة «عن الرجال والفئران» يحصل هنا، فيقتل أنسي الكلب بعد أن يوافق اسكندر ونفهم نحن أنّها بداية النهاية الحقيقية. اسكندر يعطي أنسي مالاً كي يهاجر من البلد، وأنسي يخبر اسكندر أنّ أمّه ماتت، وينصحه بعدم الذهاب إلى الجنازة وإلاّ قتلوه. من؟ أسد وأسمر ويوسف وغيرهم. المهم اسكندر، واسكندر يقرّر الصعود إلى الجنازة. وفي السيّارة، في طريقه إلى الضيعة، يتذكّر كلّ حياته. وفي الضيعة يقرّر انتظار الجنازة في المقبرة. والذي يحصل هو التالي: جماعة أسمر يسبقون الجنازة إلى المقبرة فيعثرون على اسكندر هناك. يركضون صوبه كي يجهزوا عليه ولا نعرف ما الذي يحصل بالضبط.

مارون: كيف؟

«ك»: أخبرتك. هكذا تنتهي الرواية. هناك واحد معهم اسمه شربل يبدو مختلفاً عنهم لأنّه، إلى حدٍّ مّا، يفهم اسكندر. لذلك

Twitter: @ketab_n

يصرخ بالذين معه «لا». والذي يروي هذا الفصل الأخير هو يوسف نفسه، ابن خليل، لا يوسف المؤلّف ابن اميل، ويوسف ابن خليل ينهي الفصل والرواية كما يلي: صاح شربل بهم لا، لا. كان بعيداً، لم يسمعوه. هربت معهم عن طريق الغابة.

مارون: هكذا، حرفياً! انت تحفظها.

«ك»: قرأتها ألف مرّة. هكذا حرفياً.

مارون: أعدها مرّة أخرى.

«ك»: «صاح شربل بهم لا، لا. كان بعيداً، لم يسمعوه. هربت معهم عن طريق الغابة».

مارون: وقبل ذلك كيف يصفهم؟ هل يحملون أسلحة؟

«ك»: بالطبع. إنهم ميلشيا حقيقية.

مارون: ذلك يعني أنّهم أطلقوا النّار عليه.

«ك»: هذا المرجّح، وإلاّ فلماذا هربوا؟

مارون: نعم، بالتأكيد، قوّصوه، وعلى أغلب الظنّ قتلوه، لكن يوسف لم يشارك كما يبدو، فهو يقول عنهم: إنهم «لم يسمعوه»، وهذا يعني أنّه هو سمع صرخة شربل، وأنّه فقط شارك في الهروب لاحقاً. أليس كذلك؟

«ك»: لا أعلم. جائز.

مارون: أليس هناك ما يشرح لنا المزيد؟

«ك»: بلى، يوسف وصف قبل ذلك بلحظات ابتسامة اسكندر الواقف وراء بوّابة المقبرة، لحظة رؤيته لهم راكضين صوبه وفي أيديهم سلاح. والمؤلّف، الأشقر، يوحي لنا أنّ اسكندر جاء إلى هنا كي يموت. وهو في الحقيقة يقول ذلك بصراحة قبل صفحات قليلة إذ يصف صلاة يؤلّفها بطله اسكندر، ولا يلبث أن يخبرنا أنّ الوقت لن يتسنّى لاسكندر كي يردّد هذه الصلاة أو يحفظها.

مارون: إذن الغموض الحقيقي يتعلّق بيوسف، لا بموت اسكندر الأكيد، فهل شارك يوسف في الجريمة أم لا؟

Twitter: @ketab_n

«ك»: أنت الذي تعتقد أنّ موت اسكندر أمر مؤكّد. والنقّاد أيضاً. ويوسف حبشي الأشقر نفسه. أنا لي رأي آخر».

مارون: اسكندر لم يمت!

«ك»: بالطبع لم يمت. أصابوه بالرصاص، ذلك صحيح، لقد سقط، فظنّوا أنّه مات. ظنّوا ذلك لأنّهم خافوا أن يقتربوا ليتأكدوا من موته، لأنّ جنازة أمّه كانت ستصل في أيّ لحظة. وكان هو يغرق في دمه قرب بوّابة المقبرة، فظنّوا أنّه مات وهربوا عبر الغابة. والمؤلّف الأشقر سقط في الخدعة لأنّه ببساطة بات متعباً، ويريد أن يرتاح من اسكندر الذي عذّبه طويلاً.

مارون: «كيف تعرف ما يخصّ الأشقر؟»

«ك»: أعرف أنّه بات متعباً لأنّه من مواليد عام ١٩٢٩، أي هو أكبر بسنة واحدة من اسكندر المولود في ١٩ شباط عام ١٩٣٠. وأعرف أيضاً أنّه يريد أن يرتاح من اسكندر لأنّه حاول ذلك فيما مضى. فهو اعتبر في عام ١٩٨١، في ندوة دار الفن، أنّ كلّ شيء مات في داخله، وأنّه لم يعد يملك ما يكتبه.

مارون: وكل هذا، موثّق عندك؟

«ك»: طبعاً.

مارون: فإن اسكندر قد مات إذن عند الكاتب؟.

«ك»: بالتأكيد.

مارون: وأنت تقول لا.

«ك»: بالتأكيد.

مارون: والفيلم؟.

«ك»: الفيلم مركزه يوسف. يوسف يكتشف أن اسكندر لم يمت، ولذلك، فإنّه، بعد أن يخرج من السجن يقرّر البحث عنه. لكن أين هو اسكندر؟ هل سافر بحثاً عن مارت مثلاً، أو عن أنسي؟

Twitter: @ketab_n

مـارون: ي. يبـحث عن أ. الذي يبـحث عن أ. آخـر، وأ. الآخـر يبحث عن ي. نفسه... فيلم عن البحث، متاهة؟

«ك»: صحيح، فيلم عن المتاهة. كالأسواق التجارية المهدّمة، وأنت الذي صوّرت المشهد يا أبا حروب صغيرة وبلهاء.

يضحكان.

مارون: تبقى مشكلة المال والحقوق وكتابة السيناريو.

«ك»: والوقت.

الطائرة ترتجّ. مـارون يفـتح عـينيـه. الركّـاب مـعظمـهم تغطّوا بالشراشف البيضاء الرقيقة. أطفأوا المصابيح الصغيرة المثبتة فوق رؤوسهم واسترخوا في مقاعدهم المريحة، مغمضي الأعين.

استقام مارون جالساً في مقعده. رأى المضيفة قادمة، وفي يدها دفتر صغير. ابتسم لها فانحنت قليلاً سألته: هل تريد شيئاً. طلب منها فنجان «كابتشينو». وهي تأمّلته ثم سألته: هل تريد شيئاً آخر. قال مارون: لا، وراقبها تكتب على دفترها، وفكّر انّها نحيلة وطويلة وجميلة وأخبرها ذلك. ابتسمت ونظرت حواليها ثم قالت له إنها تعرفه. وكانا يتكلّمان بالفرنسية.

هو: من أين؟

هي: من التلفزيون.

هو: شاهدتِ فيلماً من إخراجي.

هي: لا، شاهدتك في برنامج.

هو: وهل أعجبك البرنامج؟

هي: أعجبتني أنت. لكنّك أجمل من الصورة بكثير.

ذهبت. الطائرة هادئة تماماً. في الخارج عتمة كثيفة. والنافذة المربّعة تبدو كقطعة زجاج مطلية بدهان أسود. فجأة خيّل إلى مارون انّه يسمع أصوات قذائف بعيدة، وتذكر «ك»، وأغمض عينيه مرّة أخرى.

Twitter: @ketab_n

شتاء عام ١٩٩١.

في الاستديو، خلال تصويره بعض مشاهد فيلمه «خارج الحياة». كان هيبوليت جيراردو، الممثّل الرئيسي، متعباً. قال مارون «خذو استراحة، نصف ساعة». تفرّقوا كلٌّ إلى زاوية، وخرج البعض إلى الباحة القريبة. ذهب مارون إلى آخر الممرّ ووقف قرب علبة الهاتف. تردّد قليلاً ثم اتّصل بلبنان. بقي الهاتف يرنّ طوال دقيقتين أو ثلاث ثم رفعت السمّاعة في الجانب الآخر. كان ذلك محمد. وسمعه مارون وهو ينادي عبدو، ثم سمع عبدو يقول إنّه فهم، وبعد ذلك سمع مارون باب المصعد يفتح ثم يغلق. ترك السمّاعة على أذنه وخطا خطوة إلى اليمين ونظر إلى أوّل الممرّ. كانت المرأة المسؤولة عن التنظيفات جالسة على الأرض في ثوبها الأخضر الفاتح، كانت تدخّن، وتنفخ الدخان صوب السقف في دوائر. ثم سمع صوت «ك» قادماً من الجهة الأخرى.

سأله مارون: هل قرأ الرسالة؟

قال «ك»: إنّه قرأها.

سأله مارون عن رأيه.

فقال «ك» أنْ لا رأي له.

مارون: لماذا؟

«ك»: لأنّي لا أفهم في السياسة؟

مارون: وما علاقة السياسة؟

«ك»: الفيلم، كما تفكّر فيه، فيلم سياسيّ. أنا اقترحت فيلماً عن يوسف واسكندر، أنت تريده عن يوسف وخليل. تريد فيلماً عن الأجيال، عن الأبناء والبنين، حسناً، اتّصل بالسيّد تورجينيف واطلب منه هو أن يكتب لك السيناريو.

مارون: لكن...

«ك»: اسمع يا مارون، أنا لا أحسن الكذب، وأنت تعرفني. الفيلم

Twitter: @ketab_n

الذي تفكّر فيه هو فيلم مغامرات بوليسية. أنت تريد يوسف أن يعود إلى لبنان كي يبحث عن قتلة والده خليل لينتقم منهم. حسناً، فهمنا، وبعد ذلك تريده أن يغفر لهم. هل هذه فكرتك؟

مارون: هذه فكرتي.

«ك»: وماذا يبقى من القصّة الأولى؟

مارون: الأشخاص. طبعاً اسكندر نلغيه، لأنّنا لا نستطيع أن نجد تمويلاً لفيلم فلسفي أبطاله من لبنان. لكن من جهة أخرى يبقى يوسف. ربّما غيّرْنا اسمه فسمّيناه مروان، وربّما جعلناه طبيباً. هكذا تصبح رحلاته إلى أوروبا أسهل. لكن يجب أن نغيّر اسمه لسببين، الأوّل يرتبط بمسألة حقوق الاقتباس التي تكلّمنا عنها، والثاني: أنني لا أريد لبطل فيلمي أن يحمل اسم أبي. وماذا بعد؟ والد البطل يموت قتلاً، حسناً، هذا أيضاً يبقى دون تبديل. أمّا قصف يوسف للغربية انتقاماً لأبيه، فنجري هنا تعديلاً بسيطاً، لأنّ يوسف ليس كتائبياً في الفيلم بل شيوعي، ولهذا نجعل لفريدة أخته حبيباً، وهذا الحبيب نجعله كتائبياً، ونجعله يقصف الغربية فور سماعه خبر مقتل والد حبيبته. ما رأيك؟

«ك»: ما علاقتي أنا؟

مارون: لماذا تكلّمني بهذه اللهجة؟

«ك»: ....

مارون: ما الأمر؟

«ك»: لا شيء... هل انتهيت، أهذا كل ما يفعله يوسف. فقط يبحث عن الذين قتلوا أباه كي ينتقم له، ثم حين يجدهم يغفر لهم!

مارون: تقريباً. إنه أيضاً يحضر جنازة أمّه كما فعل اسكندر في قصّتك. وهو كذلك يقوم بزيارة الصديق الذي كان يدرس معه في كلية الحقوق في اليسوعية، وهو الصديق الدرزي الذي كان يشاركه تلك الشقّة قرب حديقة الصنائع.

«ك»: لكنّك قلت إنّك ستجعله طبيباً.

Twitter: @ketab_n

مارون: صحيح، لكنّه قبل أن يبدأ دراسة الطب يكون قد درس سنتين في كليّة الحقوق.

«ك»: وهل يعثر على صديقه؟

مارون: أنا لم أقل إنه سيبحث عنه، بل قلت إنه سيزوره. إنه يعرف أين هو، ويذهب إليه ببساطة.

«ك»: صحيح، يذهب إليه، لكن هل يَجدُه؟

فتح مارون عينيه. كانت المضيفة تقف أمامه. أخذ منها الكوب، وشكرها. كان البخار يتصاعد من الكوب. سألته ماذا يقرأ. نظر إلى الظرف الورقي الكبير المستقرّ في حضنه، وانتبه إلى الأوراق التي كادت تسقط منه. ابتسم، وأخبرها أنّه يقرأ سيناريو فيلمه الجديد. قالت له إنها ستعود بعد دقيقة فقط. ونظر إلى وجه الفنجان، وتساءل كم مرّة هاتَفَ «ك» بعد ذلك. وتساءل كيف وافق «ك» على الكتابة له.

رشف من الكوب ونظر من النافذة. ظلمة كثيفة. وتكرّرت تلك الجملة داخل رأسه: «صحيح، يذهب إليه، لكن هل يجده؟» ونظر إلى النافذة مرّة أخرى، وكان وجهه ينعكس فيها شاحباً ومرهقاً. وقرّر أن يمضي إلى الحمّام كي يغسل وجهه. وتساءل مرّة أخرى: لماذا قَبِل «ك» أن يكتب قصّة لم يقتنع بها؟

قبل أن ينهض عادت المضيفة.

هي: فيلمك الجديد، ما هي قصّته؟

هو: إنّها قصّة رجل يبحث عن الذين قتلوا أباه.

هي: فيلم بوليسي.

هو: تقريباً.

هي: فرنسي أم انكليزي؟

هو: لا هذا ولا ذاك، عربي، لبناني.

Twitter: @ketab_n

هي: عربي أو لبناني؟

هو: لبناني، عربي، لكن ليس بالمصري.

صوت من المقدّمة ينادي. والمضيفة تذهب.

ومارون يفكّر أنّها تشبه فيرونيك من الخلف، لكن فيرونيك أسمن قليلاً. يحسّ ضيقاً في صدره ويفكّر أنّه بحاجة لأنْ ينام.

منذ أسبوع تقريباً يعاني من الأرق. ففي اليوم الأخير من الشهر الماضي هاتَفَ بيروت، وفهم من محمد أن «ك» لم يأتِ إلى البناية منذ أسابيع.. قال محمّد إنّه لا يعرف عنوان «ك» في الجبل، وطلب من مارون العنوان. ومارون قال لمحمّد أن ينسى الأمر لأنّه هو سيهاتف أهل «ك» بنفسه، ثم أقفل الخطّ.

في ذلك المساء، في السرير، سألته فيرونيك بماذا يفكر، فأخبرها عن المكالمة الهاتفية.

قالت فيرونيك: «لكن «ك» ليس عنده أهل في الجبل.

قال مارون: هو كذب على محمّد حين استأجر في البناية لأن ذلك أسهل.

فيرونيك: لماذا أسهل؟

مارون: أنت فرنسية ولن تفهمي. لبنان ليس فرنسا يا فيرونيك. هناك الناس تخاف من أصغر طفل إذا كان مقطوعاً من شجرة ولا أهل له. وبالتالي فهم لا يثقون فيه ولا يعطونه شقّة قرب بيوتهم.

فيرونيك: لماذا أحسّ أني قد سمعت هذا الكلام من قبل؟

مارون: لأني قلته لك في أوّل مرّة سألتني فيها عن «ك».

فيرونيك: لكن متى كانت آخر مرّة اتّصلت فيها بـ«ك»؟

مارون: لا أعرف. منذ عشرة أشهر تقريباً.

اتصل مارون مرّة أخرى بلبنان.

Twitter: @ketab_n

كان هذا في الثالث من هذا الشهر، أي قبل ثلاثة أيّام تماماً.

سأل محمد: هل عاد «ك»؟

أجابه محمد: لا.

أخذ مارون نفساً طويلاً، وبدأ يكذب.

قال مارون لمحمد إن «ك» في هنغاريا، وانه سيعود قبل نهاية الشهر.

سأله محمّد هل اتّصل بأهل «ك».

قال مارون إنّه فعل ذلك، وهم أخبروه عن سفر «ك».

قال محمد: شكراً. خفت أن يكون قد حصل له شيء.

قال مارون: لا، لا تخف، لا شيء حصل له.

قال محمد: حسناً.

عادت المضيفة، بدا وجهها جميلاً جدّاً.

هي: هل ستبقى طويلاً في لبنان؟

هو: لا أعلم.

هي: لو طلبت منك رقم هاتفك، ماذا تقول؟

هو: رقم هاتفي في لبنان أم في فرنسا؟

هي: في فرنسا طبعاً.

هو: لماذا لا تطلبين رقمي في لبنان؟

هي: لا أدري. في لبنان كلّهم يعرفونك، أليس كذلك؟ في فرنسا الأمر مختلف قليلاً. أحب هذا. أحب الرجال المهمّين، والذين في الوقت نفسه لا يعرفهم الجميع.

هو: وما رأيك في رجل مهم جدّاً ولا يعرفه أحد؟

هي: إنّه الرجل الذي أموت من أجل أن يحبّني.

Twitter: @ketab_n

هو: لكن هناك مشكلة.

هي: ماذا؟

هو: رجل كهذا ليس عنده هاتف.

الطائرة تهتزّ. الكابتن يطلب من الركّاب شدّ أحزمة الأمان. المضيفة تأخذ الكوب من يد مارون وتبتعد. هو يراقبها تلتفت مبتسمة. ويفكّر أنّها، مثل «ك»، قضت ساعات طويلة من حياتها وهي تقرأ الروايات.

– انها الساعة العاشرة ليلاً بتوقيت بيروت. نرجو أن تكونوا قد استمتعتم بالرحلة...

مارون ينزل درج الطائرة. الهواء رطب وبارد.

مارون يتساءل كيف مضى ما يقارب السنة دون أن يهاتف «ك».

مارون يتذكر المستشفى في مدريد.

مارون يفكّر أنّه سوف يجد «ك».

يقف وسط المطار وينظر إلى الفراغ الكبير حوله.

يستقل سيّارة تاكسي صفراء اللون تأخذه إلى بيت صديقه زهير رحّال.

***

Twitter: @ketab_n

٤

مارون يبدأ العمل فوراً.

من بيت صديقه زهير رحّال يهاتف صديقاً ثانياً هو جوزف سماحة، ويطلب منه الاتصال بصديق ثالث هو حسن داود. بعد ذلك يضع السماعة، وينظر إلى ساعته الأوميغا. انها العاشرة تماماً.

يغمض عينيه ليرتاح قليلاً من عناء الرحلة. وحين يسمع جرس الباب، يفتح عينيه وينظر إلى ساعته مرّة أخرى. إنها العاشرة والثلث. يدخل حسن داود.

في أقلّ من دقيقتين يكونان قد غادرا معاً في سيّارة حسن الأولدزموبيل. نزهة ليلية تستغرق قرابة الساعة. بعض الشوارع مضاءة، وبعضها غارق في عتمة خريفية صامتة.

يتحدّثان عن الفيلم. حسن يقدّم اقتراحات، ومارون يفكّر أنّه أمر غريب: «ك» يكتب السيناريو برغم أنّه لا يحبّه، إنه يكتبه فقط لأنّ مارون طلب منه. وبعد أن ينتهي من كتابته يقوم بإرساله بالبريد السريع إلى باريس. هناك يقرأ مارون السيناريو ويقوم بترجمته إلى الفرنسية خلال يومين، ثم يعرضه على شركة الإنتاج اللبنانية – الفرنسية بصفته تخطيطاً أوليّاً لفيلمه عن حرب لبنان. توافق شركة الإنتاج على المشروع مشترطةً على مارون التعاون مع روائي لبناني يكون قادراً على كتابة حوارات الفيلم كاملة، وعلى إعداد الصيغة النهائية للسيناريو. لكن مارون يؤجّل كلّ شيء قرابة السنة بسبب عملٍ يُعرض عليه في أميركا.

Twitter: @ketab_n

– «أنا موافق»، يقول حسن داود. «السيناريو أعجبني لكنْ عندي اقتراحان».

تقطع السيارة تصالب طرق ثم تنطلق بقوّة.

يقول مارون إنّه سيتّصل بباريس في صباح الغد، وأن العقد سيكون جاهزاً خلال يومين، وأنّ المال سيصل في أقلّ من أسبوع.

تتوقّف السيّارة قرب الفندق النمساوي لأنّ مارون يريد أن ينزل هنا.

يسأله حسن: ألا تريدني أن أوصلك إلى بيت أمّك؟

يجيب مارون: لا، شكراً. عليّ أن أزور أحدهم.

السيارة الأميركية تبتعد. الواجهة الزجاجية للمطعم القريب تضيء الرصيف حول مارون. الجهة الأخرى من الشارع مظلمة. السماء صافية وباردة، ولا صوت يسمع إلاّ صوت تلفزيون بعيد، ينظر مارون إلى داخل المطعم فلا يرى أحداً. يشم رائحة بطاطا مقلية تملأ الجوّ.

مارون يمشي. عيناه تنظران إلى لافتة النيون الخاصّة بمحلاّت الشرقاوي للأدوات الكهربائية. أخيراً يصل. والآن ينعطف يميناً ويدخل في الزقاق المؤدّي إلى بناية الكومو – غاردن.

المرأة الواقفة بتنورتها القصيرة تحت الضوء الأحمر للبار المجاور للبناية، تتقدّم خطوة وتنادي عليه «يا حلو». فيلتفت ويبتسم شارداً ثم يتابع طريقه.

يستقلّ المصعد الكهربائي إلى الطابق السادس. يضع حقيبتيه أمام بوّابة الشقّة ٦٣. يقطع ممرّ الطابق ثم يدفع البوّابة الخاصّة بغرفة العدادات الكهربائية، ويدخل. عتمة شفّافة، والضوء يأتي من الخلف ويرمي ظلّه أمامه، على البلاط المتّسخ. وحين يتقدّم مارون خطوة أخرى يطول الظلّ متسلّقاً الجدار المقابل.

«الصندوق الثالث عن اليمين، فوق اللوح الخشب». ومارون الأطول من «ك» لا يحتاج لأن يقف على رؤوس أصابعه؛ فقط يرفع يده ويتلمّس الرفّ متمهّلاً، فيعثر على المفتاح في موضعه.

الوقت يقارب منتصف الليل. لكن قبل أن ينتهي يوم ٦ تشرين الثاني عام ١٩٩٣، يدور مفتاح في قفل، ويجد مارون بغدادي نفسه داخل غرفة «ك».

Twitter: @ketab_n

الجزء الثاني

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١

وضعت حقائبي أرضاً، أغلقت الباب خلفي، وأخذت أتلمّس الحائط عن يساري بحثاً عن زرّ الضوء. العتمة تغمرني، ورائحة رطبة ودافئة تسبح في جوّ الغرفة. وحركة الهواء الخفيفة أنبأتني أنّ البوّابة الزجاجية الجرّارة غير مقفلة بإحكام.

قبل أن أصل إلى زرّ الضوء ارتطمت أصابعي بمسكة باب الحمّام المكسورة. كان الألم فظيعاً، كأنّ شخصاً مختبئاً في الظلمة ضربني بقضيب من حديد. الصوت الذي خرج منّي، صوت التأوّه، خرج غصباً عنّي. للوهلة الأولى انتابني ذعر قوي: ماذا لو سمع الجيران صرختي؟ وخلال هذه اللحظات من الذعر، كنت قد وصلت إلى زر الضوء.

هل أضيء المصباح؟ كنت خائفاً. لو سمع أحد صرختي فإنّه، بالتأكيد، سيخرج ليرى ما الأمر. ألا يرى الضوء، عندئذ، خارجاً من تحت الباب، ويدرك أنّ أحدهم في الداخل؟ وربّما طرق الباب. وربّما لم يطرقه، لكنّه حتماً سيخبر محمّد في الصباح. وعندئذ...

ثم تذكرت: «لا صوت يخرج من هنا، ولا ضوء».

رفعت زر الضوء إلى أعلى فشعّ المصباح، وملأ الغرفة أمامي بضوء أصفر يشبه البخار. من مكاني، وسط المدخل الضيّق، كان بمقدوري أن أرى الجَنْبَة السفلى للسرير، وجانب المكتبة القريب، والبوّابة الزجاجية المواجهة. فجأة انتبهت إلى الوجع في سلسلتي

Twitter: @ketab_n

الفقرية، وعندئذ فقط رأيت العينين المحدّقتين بي من وراء الزجاج. تراجعت إلى الخلف، فاصطدمت ببوّابة الخشب. ثم أطلقت ضحكة:

– ما هذا يا مارون، صرت تخاف من صورتك في الزجاج!

حين سمعت صوتي أحسست الهدوء. رغم ذلك فتحت أوّلاً باب الحمّام ودخلت إليه. كانت المغسلة خلف الباب تماماً، فكان الدخول إلى الحمّام على شيء من الصعوبة. تخيّلت «ك» يترنّح ثملاً ويدفع الباب ليدخل، فيندفع الباب بقوّة مرتطماً بحافّة المغسلة ثم يرتدّ بالقوّة ذاتها ويخبط وجهه.

أضأت المصباح ووقفت أمام المرآة. غسلت وجهي واستخدمت المنشفة المدلاة من مسمار معقوف ثم خرجت. لعبت مع نفسي قائلاً إني سأجده ممدّداً في السرير، متكوّماً حول نفسه والبطانية تغطّيه. وفكّرت أنّه شرب كثيراً وأنّه يغطّ في نوم عميق منذ البارحة.

فوق السرير كانت البطانية «مجعوكة». وكان اللحاف يتكوّم فوق المخدّة، وطرفه يلامس البلاط المتّسخ. قرب السرير، إلى جهتي، كان معطف «ك» النبيذي يستقرّ فوق كرسي مصنوع من البلاستيك الأبيض. ووجدتني أتحرّك صوبه. إلى يساري كانت الخزانة مقفلة. وقبل أن أصل إلى المعطف خطوت باتّجاه الخزانة وتجمّدت في مكاني.

بلى، هناك صوت في المطبخ.

باب المطبخ بعد الخزانة مباشرة. إنّه ضيّق ومنخفض كدرفتي الخزانة. لكن لونه أبيض، وليس بنيّاً محروقاً. كان الباب مغلقاً. نظرت إلى أسفله فرأيت بقعاً سوداء جامدة.

هل هذا دم أم بقايا قهوة؟

أخذت نفساً عميقاً ثم جذبت الباب نحوي. لم يكن للباب مسكة بل قطعة حبل قصيرة مُثَبَّتة إلى خشبه بالمسامير. ومع أنّ الباب كان مفتوحاً الآن، فإنّ أصابعي ظلّت تضغط على قطعة الحبل القصيرة.

Twitter: @ketab_n

لم أجد «ك» في الداخل منطرحاً في المطبخ الأضيق من حمام طائرة، والدم النازف من شرايين معصميه يسيل حتى قدميّ. لم أجد «ك» يتدلّى من حبل كنت أعرف أنّ ملمسه يشابه ملمس الحبل الذي أقبض عليه. لم أجد أحداً.

فقط وجدت العتمة التي يبدّدها الضوء القادم من خلفي، وظلّي الذي يقع قصيراً قدّامي تماماً. رخام المجلى القديم كان متّسخاً ومغطّى بالعفن. وفوق الطرف البعيد للمجلى كان رأس الغاز هو أيضاً متّسخاً وملطّخاً بتفل القهوة. أضأت المصباح فرأيت أنبوب الغاز الموصول بالرأس. كان لونه أزرق باهتاً، وكان يخرج من ثقب في الدرفة الخشبية أسفل المجلى، ووجدت يدي تمتد وتفتح الدرفة، ورأيتني أحدق في قارورة الغاز التي يغطيها الصدأ، وكان صوته يرنّ في رأسي: «كنْ متأكداً أنّني على الأقلّ لن أفعل ذلك كما فعله كاواباتا*.»

عدت إلى الغرفة وجلست على حافة السرير. كانت هناك علبة سجائر تستقرّ قربي. لم أدخّن سيجارة واحدة منذ عام ١٩٨٣.

هل تكفي عشر سنوات ليقول الواحد إنّه نجح، وإنّه تمكّن من التوقّف عن التدخين؟ لا فقط بغية المحافظة على رئتيه، ولكن أيضاً لإثبات صلابة الإرادة؟

فتحت العلبة وأخرجت سيجارة. نظرت إلى الكومودينة الصغيرة التي يلامس طرفها المخدّة، فلم أرَ ما أبحث عنه. انبطحت على جنبي الأيمن وفتحت جارورها. كان الجارور، كسطح الكومودينة، معجوقاً بالكاسيتات والأقلام وقصاصات الصحف. تركت السرير وذهبت إلى المطبخ. فتحت إحدى الدرفات الخشبية التي تعلو المجلى، فرأيت أكياساً صغيرة تحتوي سكراً وبنّاً وملحاً وأرزّاً وعدساً. فتحت درفة ثانية فرأيت فناجين شاي وبعض الصحون والملاعق وحين أزحت أحد الفناجين رأيت قدّاحة حمراء.

(*) ياسوناري كاواباتا (١٨٩٩ - ١٩٧٢) روائي ياباني. انتحر مختنقاً بالغاز.

Twitter: @ketab_n

أخذتها وعدت إلى السرير. وبلا جدوى حاولت إشعال السيجارة. كان خزّان القداحة فارغاً من الغاز. نظرت إلى فوق، إلى السقف، وكنت أعرف أنّه، كالجدران، مبطّن بالفلّين أيضاً. ورغم ذلك لم أجرؤ على إطلاق شتيمتي. في تلك اللحظة ذاتها أحسست نظرات شخص مجهول تخترق ظهري. كان ذلك شبيهاً بعرض أوّل لأحد أفلامي: الترقب والخوف وتلك العيون التي تراقب حركة رأسك من الخلف وتجعلك تفكّر: إنهم لا ينظرون إلى فيلمك الجديد، إنّهم ينظرون إلى رعبك الدائم. لم أعد أحتمل. كان ذلك قاتلاً. التفتُّ بسرعة لكن الستائر كانت تغطّي هذا الجزء من البوّابة الزجاجية. قفزت من السرير، وخطوت إلى اليمين. كان الزجاج يواجهني، ووجهي كان منعكساً فيه. تقدّمتُ صوب البوابة. كانت تشبه امرأة لا أعرفها، وتذكرت كلمات «ك».

كانت الريح الباردة تدخل في الشقّ. أدخلت أصابعي وأمسكت حافة البوّابة وجررتها يساراً. كانت ثقيلة، والصوت الذي أصدرته أفزعني. كانت الشرفة الواسعة فارغة إلاّ من علبة كرتونية مبلّلة في الزاوية البعيدة، وحبلٍ رُبط طرفه إلى درابزين الحديد. فكرت أن مساحة الغرفة أصغر من مساحة شرفتها. تراجعت وأغلقت البوّابة. إلى يميني، في الزاوية التي يشكّلها الجدار مع البوّابة، تتدلّى حبال الستائر. جذبتها نزولاً فتحرّكت الستائر باتّجاهي وأخْفت عني البوابة.

هل تلاشت صورتي الآن؟ أم أنّني ماأزال في الخارج، أرتجف من البرد وأحدّق في السرير والكرسي والمعطف والشخص الطويل الذي يقف مع سيجارة غير مشتعلة؟

تساقطتُ على الكرسي. كان قلبي يخفِق بسرعة. لم يكن بمقدوري أن أفهم ما يجري. كلمات «ك» تطنّ في رأسي، وأفكاره تنبعث في داخلي، كأنّه شبح يسكنني. كأنّني «زومبي» له. وتذكّرت الكابوس الذي رأيته تلك الليلة، ورأيت فيرونيك تنحني فوقي وتسألني: ما الأمر، وكنت أرتجف.

Twitter: @ketab_n

شهيق، زفير. شهيق، زفير. سيجارة واستعادة الهدوء، هذا ما يجب أن أفعله. هذا أوّلاً. وأيضاً لا بدّ من التفكير بصفاء. حسناً، التفكير بصفاء: أدخل إلى المطبخ، أفتح قارورة الغاز، أستخدم القدّاحة، أشعل رأس الغاز، من رأس الغاز المشتعل أولع سيجارتي، وبعد ذلك أقفل القارورة.

فعلت ذلك ثم عدت إلى حافة السرير. جذبت نَفَساً عميقاً من السيجارة. طعمُها مر. قلت إنّها ليست قديمة فقط، لكنّها تعرّضت للبلل أيضاً. أدركت أنّني أستعيد نفسي. نظرتُ إلى ساعتي: مضى السبت.

إنّها الواحدة ليلاً. ٧ تشرين الثاني ١٩٩٣. أنا في بيروت. جئت إلى هنا كي أجد «ك». وسأصنع فيلماً أيضاً. حسناً، إنني بخير. والخطوة الأولى تمّ تنفيذها. فأنا في غرفته الآن.

حسناً، أنظر إلى الساعة مرّة أخرى: الواحدة ودقيقتان.

أنفخ الدخان صعوداً، أحاول أن أنفخه في دوائر لكنّي لا أنجح. أتوقّف عن المحاولة. أقف وأدور في مكاني. كيف سأجد «ك»؟ أمدّ يدي وألمس المعطف. أتذكّر الحبل المثبت إلى بوّابة المطبخ. كيف سأجد «ك»؟

أمشي صوب المكتبة. الكتب مبعثرة على الرفوف. المكتبة تغطّي الجدار من الأرض حتى السقف. بعد المكتبة يظهر الجدار مسافة سنتمترات قليلة، ثم يصل إلى نهايته. هنا، في الزاوية، تتدلّى حبال الستائر. لماذا قال إنها حبال كئيبة، بماذا كان يفكّر؟

أستدير وأنظر إلى الجدار المقابل. كلّ الجدران هنا لونها بنّي فاتح، والسقف أيضاً. إنّه لون الفلّين المضغوط. استعار «ك» الفكرة من مارسيل بروست. كان ذلك في عام ١٩٧٩. قام أيضاً بتبديل البوّابة الزجاجية القديمة، وكلّفه ذلك مبلغاً محترماً.

هذا الجدار تغطي معظمه الصور والملصقات واللوحات. على الفور تلفتني صورة ملوّنة لبلدة مغطّاة بالثلج. في وَسَط الصورة

Twitter: @ketab_n

بيت أبيض، شبابيكه خُضْر. الطريق التي تعبر قرب البيت تمتد إلى آخر الأفق. لكن البيت مفصول عن الطريق بخط ثخين من الأعشاب البريّة. وهناك دخان يتصاعد من مدخنة البيت، وخلف الدخان تظهر قمم الأشجار الكثيرة. الطريق تظهر وكأنّ بدايتها هنا، في هذه الغرفة، فوق الطاولة الملاصقة للجدار تحديداً.

الطاولة التي تلاصق حافتها الجدار، تلامس الجانب الأسفل من الصورة الملصقة على علو منخفض. هذه الطاولة، المصنوعة من خشب الجوز، هي قطعة الأثاث الوحيدة التي جلبها «ك» معه إلى هنا قبل خمس عشرة سنة، يوم قرّر أن يعيش في هذا المكان. وقبل ذلك بعشر سنوات أخرى، كان قد فكّر بنقلها من غرفته في بيت جدّه إلى البيت الذي استأجرناه معاً، بالقرب من حديقة الصنائع، في أيام دراسة الحقوق والمراهقة والنضال. آنذاك لم يقم بنقلها، لأنّني لم أكن أملك سيّارة.

السيجارة تكاد تحرق أصابعي. أرمي عقب السيجارة أرْضاً. إلى جانبه، أرى عقباً آخر. أنحني، وألتقطه. أبتسم متذكّراً شرلوك هولمز.

متى دخّن «ك» هذه السيجارة؟ لماذا رمى عقبها أرضاً؟ وهل احترقت أصابعه هو أيضاً آنذاك؟ على الفور انتبه إلى الرماد قرب قدمي. كيف نسيت السيجارة؟ كيف تركت رمادها يقع أرضاً؟ كيف مضى الوقت؟

أنظر إلى ساعتي، أرى العقارب، أفكّر أنّه الوقت، أرفع رأسي، أنظر مجدّداً إلى الصورة، إلى الطاولة إلى الكتب المستقرّة فوقها. من أيّة مجلّة انتزع تلك الصورة يا ترى، هذه الصورة؟ أرى طارق جالساً أمام التلفزيون يعبث بمجلاّت أمّه، وأسمع صوت فيرونيك.

– «أفهم أنك لا تستطيع الاهتمام بالأولاد لأنّ لديك عملك. لكنّك لا تفعل شيئاً في هذه اللحظة، فلماذا لا تطلب من طارق أن يكفّ عن تمزيق مجلاّتي؟»

– من أخبرك أنّني لا أفعل شيئاً؟

Twitter: @ketab_n

– وما الذي تفعله الآن؟

– إني أستريح.

طارق يضحك. فيرونيك أيضاً. لكني أعرف أنّها ستصبح لئيمة حين ندخل لننام.

تقدمت من الطاولة، جلست على كرسي الحديد. طاولة خشب وكرسي حديد، وكرسي آخر من البلاستيك. هناك أيضاً السرير الذي لا يزيد عرضه عن تسعين سنتمتراً، وهناك الخزانة القديمة والبرّاد الصغير الذي يبدو كهرّة خائفة. «برّاد خائف في زاوية، بين باب مطبخ بارد، وجدار صامت كقبر». وطبعاً، المكتبة الواقفة خلفي «مثل رجل عجوز قضى حياته يقرأ في كتب التاريخ». هذا هو كلّ أثاث هذه الغرفة، هذه الشقة، هذا البيت. بيت «ك» منذ ذلك اليوم الماطر البعيد. آنذاك لم يكن الفندق القريب مهجوراً، ولم أكن قد تزوجت بعد.

أصابعي على الطاولة كما في تلك الصورة، لبيكاسو. أحدّق في أصابعي وفي الطاولة. أرفع رأسي قليلاً وأنظر إلى الجدار. أمُدّ يديّ وأميل على الطاولة والامس الجدار برؤوس أصابعي، والامس البيت الأبيض وشبابيكه الخُضْر.

– طق، طق، طق، هل أنت في الداخل يا «ك»؟

أرتمي على السرير، أتخلّص من الحذاء ومن ثيابي، التفّ باللحاف، أغطّي رأسي بالبطانية، وأسقط في نومٍ عميق.

فيما بعد يأتي «ك».

Twitter: @ketab_n

٢

في البداية أرى أمّي ممدّدة على سرير حديدي لا أعرف أين رأيته من قبل. صغير جداً هذا السرير، كأنّه سرير طفلة. وحين تعتدل أمي جالسة أنتبه إلى الحبال التي تتدلى من القضيب المثْبت فوق السرير، فأكتشف أنّ أمّي مصابة بشلل نصفي. أنظر إلى يديها القابضتين على حلقتي الحبلين وأرى العروق المنتفخة والشرايين البارزة، وأسمع صوت الدم يتدفق فيها كأنّي أجلس قرب نهر.

تشير إليّ أن أقترب، فأرى نفسي أتقدّم. لست أنا، بل الصبي الذي كنته قبل أكثر من ثلاثين عاماً. كأني أرى فيلماً عنّي. وأكاد أرى طرف ميكروفون أسود في أعلى «الكادر». أنا لا أعرف: هل المخرج شخصٌ غيري؟ وتلفتني حركة الصبي: هل كنت أشبهه ذات يوم؟ نعم بالتأكيد.

الصبي يتقدّم من السرير متجاوزاً منقل فحم كبيراً تتوهّج فيه الجمار. هناك مصباح أصفر قوي يضيء المكان. وظلّ القضيب الحديدي يسقط فوق البطانية التي تغطّي الأمّ. ما لون هذه البطانية؟ أزرق أم أخضر؟

الصبي وجهه متورّد. كأنّه دخل البيت لتوّه. الأم تربّت بيدها على الفراش. الصبي يجلس حيث أشارت.

الأم: أين كنت؟

Twitter: @ketab_n

الصبي: تحت.

الأم: ماذا كنت تفعل؟

الصبي: لا شيء.

الأم: أستاذك، الأب شربل، كان هنا قبل قليل.

الصبي: ...

الأم: وقال إنك تبيع العلكة والشوكولاته والمفرقعات في ساحة ساسين.

الصبي: .....

الأم: من أين تجلب المال لتشتريها؟

الصبي: ...

الأم: أنت لا تسرق، أنا أعرف ذلك. لا بدّ أنّ والدك قد أعطاك المال، أو جورج.

الصبي: جورج؟

الأم: حسناً، والدك إذن. لكن أخبرني، لماذا تبيع هذه الأشياء، لماذا تحتاج إلى المال؟

الصبي: ...

الأم: عليك أن تقول لي.

الصبي: ...

الأم: هل تريد أن يسألك أبوك؟

الصبي: أريد أن أشتري كاميرا.

الأم: كاميرا؟ للتصوير؟

الصبي: ...

الأم: وإذا أعطيتك ثمنها، هل تتوقّف عن بيع العلكة؟

الضوء يتلاشى. صوت موسيقى. وأيضاً طرطقة طاولات، ثم

Twitter: @ketab_n

صوت مِقصّ. وتلك الرائحة الدافئة لغرفة المونتاج. وأراني أمام سرير أمّي مرّة أخرى.

أشمّ رائحة عطر فألتفت متوقّعاً رؤية أختي فريدة. طبعاً لا أراها. ولكن، هي لم تتزوّج بعد، فلماذا لا أراها؟ هناك دخان يتصاعد من المنقل. إنّه إبريق النحاس. لقد وقع. أسرع إليه وأبعده بورقة مطوية. خلفي سعال أمّي. ثم أرى أبي.

يذهب إلى النافذة ويفتحها. في الخارج يتساقط الثلج ندفاً. أنظر إليه مذهولاً، ما هذا؟.

أبي يقول: لم تثلج في بيروت منذ الأتراك.

أمي تقول: تلك السنة جاء الفرنسيون.

أبي يقول: وأصحاب التنانير، الانكليز المخنّثون.

في غرفة صغيرة أشاهد الفيلم مع صديقة أميركية. تسألني عن حكاية التنانير، فأخبرها أنّ الانكليز حين دخلوا بلادنا، عند نهاية الحرب العالمية الأولى، أرسلوا في مقدّمة جيشهم فرقة سكوتلندية يرتدي أفرادها التنانير ويحملون أبواقاً نحاسية ضخمة. الصديقة تطلق ضحكة طويلة؛ أتجنّب نظراتها وأتابع المشاهدة.

يسألني أبي: أين جورج. فأقول له إنني لا أعرف.

ثم يسألني: أليس هو أخاك؟ كيف لا تعرف؟ اذهب وابحث عنه.

أمي تنهرني: هيّا، بسرعة.

أشعر بالخوف. يدفعني أبي خارجاً ويغلق الباب. هنا برد وهواء. منظر الجدار يخيفني. الشقوق السوداء، القشرة المتساقطة، العفن والوسخ. والدرج الطويل.

لكني أفعل ذلك. أنزل الطوابق الخمسة راكضاً وأخرج إلى الشارع. أركض حتى الزاوية. أقف أمام الصيدلية المغلقة. أسمع الجلبة فوقي، في بيت فضّول، وأرتجف. أرفع رأسي وأنظر باتّجاه بيتنا. أرى ظلاً خلف النافذة ثم تسقط ستارة نبيذية اللون بين الظلّ

Twitter: @ketab_n

وبيني. أبقى وحيداً في الشارع المغطّى بالثلج. أتذكّر العلب التي خبّأتها خلف مطعم جوزف الحايك. أركض حتى ساحة ساسين. أنحدر صوب المطعم وأدور حوله. أجد العلب في مكانها، قرب مدخل المخزن القديم. أخرج ألواح الشوكولاته وأعدّها، إنّه جورج، لقد أخذ منها.

عليّ أن أجده، عليّ أن أجده قبل أن يأكلها أو يبيعها. لكن أين هو؟ ثم أسمع تلك الحركة. بلى، إنّه في الداخل، في المخزن، لكن كيف دخل؟ أدور حول المخزن ثم أنبطح فوق الثلج قبالة النافذة الغارق نصفها في الأرض. أنتظر حتى تعتاد عيناي العتمة. أرى قدميه لكن جسده يختفي خلف الصناديق. أطرق الزجاج بأصابع متجمّدة. تتحرّك القدمان، ثم أرى الوجه. هذا ليس جورج، إنّه «ك».

تقبلني فيرونيك في عينيّ. حرارتي مرتفعة، والعرق يتصبّب من جسمي. تقول فيرونيك إنّني وقعت في الستديو، وأن الطبيب قال إنّ عليّ البقاء في السرير لمدّة يومين.

– لماذا؟

– لا شيء. فقط إنهاك.

يجب أن اتّصل بالمستشفى. يجب أن أتكلم مع طبيب آخر. يجب أن أقوم بالفحوص الضرورية. يجب أن أكون منتبهاً. يجب أن...

فيرونيك تقول إنّ جاك بيروان اتصل قبل ساعات قليلة، للاطمئنان على صحّتي.

لم أعد أسمع صوتها. منذ زمن بعيد لم يعد صوتها يصل إليّ.

في المخزن أجلس مع جورج بين الصناديق.

أقول: هناك ثلج في الخارج.

يقول: في بيروت لا تُثلج أبداً.

أقول: تعال، تعال فانظر.

يقول: ماذا؟

Twitter: @ketab_n

أقول: الثلج.

يقول: لماذا جئت إلى هنا؟

أقول: كي أجدك!

يقول: ومن طلب منك أن تجدني؟

أقول: أبي وأمي.

يقول: كنت أعرف.

أقول: ولماذا تختبئ هنا أصلاً؟

يقول: أنا لا أتدخّل في حياتك.

أقول: غير صحيح.

يقول: ارجعْ إلى البيت، هَيّا!

أقول: لا أريد.

يقول: لماذا؟

أقول: لأنّي لا أحبّه.

يقول: حسناً، أنا ذاهب إلى البيت.

أقول: أما أنا، فسأبقى هنا حتى يأتي «ك».

يقول: أنت أبله، «ك» لن يأتي أبداً.

أقول: أنت تقول هذا لأنّك تغار منه.

يقول: أنا أغار من «ك»؟

يضحك. يُخرج مفتاحاً من جيبه. يفتح الباب. يدخل الهواء البارد. أرى الثلج يتساقط فوق حذائه الأسود. بعد ذلك يختفي وتعود تلك العتمة.

أسمع صوت الفئران وأنظر إلى الجدار وإلى النافذة في أعلاه. الضوء يتضاءل. اللون الأبيض المصفرّ يتحوّل إلى لون رمادي كالح. الثلج توقف عن التساقط. أسمع صوت بطني. أصابعي تؤلمني. برد فظيع. الريح تضرب الباب.

Twitter: @ketab_n

أغمض عينيّ وأنام. مازلت جالساً على السرير قرب أمّي. أين رأيت هذا السرير، أين؟ فجأة أتذكّر، إنّه سرير أم شوقي، جدّة «ك». وهذه، هذه ليست أمّي، أمّي ليست مفلوجة، هذه أم شوقي!

لكن أمّ شوقي ماتت، فكيف تكون هنا، وفي هذا البيت، في بيت أمّي!

لا بدّ أنّني أحلم.

انْقَلب على جنبي فأرى كومودينة، وأرى آلة تسجيل فوقها، وأرى كاسيتات أيضاً. أفتح عينيّ جيّداً فأرى برّاداً أبيض صغيراً. أغمض عينيّ مرّة أخرى. أفكّر بالنهوض والدخول إلى الحمّام. أريد أن أفرغ مثانتي وأريد أن أغسل وجهي. أعرف كوابيسي، وهذه الأحلام المتشابكة كبكرات أفلام مختلفة جرى توصيلها ببعضها عشوائياً. إنها مثل المسلسلات التجارية، فما إن تبدأ حتى تغدو نهايتها شبه مستحيلة.

أريد أن أغادر السرير، لكنّي لا أستطيع، ودون أن أنتبه أسقط في النوم مجدّداً، ملتفّاً باللحاف والبطانية.

إني أركض في شوارع التباريس بالأشرفية. وهناك صبيّ أكبر منّي يطاردني، وفي يده شريط من النحاس. إنه شريط كهرباء. كنت ذاهباً لأقصّ شعري، فقفز لي من وراء براميل النفايات وهجم عليّ. تراجعتُ وأخذت أركض. إنّه يصرخ بي كالأخوت. ما اسمه؟ أيمن. أيمن ماذا؟ أيمن شامل. لكن لماذا يكرهني هكذا؟

أهرب صوب الملعب. من أين أتى هذا الملعب إلى التباريس؟ أنا أعرف هذا الملعب. إنّه في بعقلين. مرّة ذهبت إلى هناك مع «ك». قرب الملعب طريق ترابية تنحدر صوب جلالي الزيتون. «ك» أخبرني أنّ الأستاذ سعيد حمادة بَنَى هنا مدرسة هي نسخة مصغّرة عن الجامعة الأميركية في بيروت. الملاعب تحمل الأسماء نفسها كملاعب الجامعة، ومباني المدرسة كذلك. أليس هذا جميلاً؟

Twitter: @ketab_n

أهرب وصوته يلاحقني وشريط النحاس. أركض بين أشجار الزيتون. أخبرني «ك» أنّ سعيد بك حمادة كان صديقاً لڤانديك وبْلِسّ ودودج، وأنّه درس في الاي.يو.بي ثم صار أستاذاً فيها. وسليم الحصّ كان تلميذه. وقال «ك» إنّ سعيد بك اشتغل مع الأميركان في الحرب الأولى والثانية وقام بتوزيع الإعاشات سرّاً على بيوت الفقراء في الجبل.

أنطّ إلى الجلّ تحتي. قلبي يطرق كالطبل. أيمن مازال خلفي. كان عليّ أن أهرب صوب البيت. لماذا كلّما طاردني أحدهم ركضت في كلّ الاتجاهات إلاّ اتّجاه البيت؟

الصوت خلفي، وشريط النّحاس يقصّ الهواء. أركض والصفير يتبعني. لماذا لا أتسلّق شجرة وأدافع عن نفسي من فوق؟ إذا أراد أن يتبعني إلى فوق يمكنني أن أرفسه وأن أدوس يديه! لكن ماذا لو أخذ يقذفني بالحجارة من تحت؟

أركض في الخلّة بين أشجار الزيتون. أخبرني «ك» أنّ هذه الخلّة اسمها خلّة الدير. هنا بدأت حروب لبنان الأهلية. هنا وقعت المعركة بين أولاد بعقلين وأولاد دير القمر. تحت شجرة من هذه الأشجار نصب البعقليني فخّاً لحجلة، وحين وقعت فيه أطلق الديري عليها النار، فبدأت الحرب بين الموارنة والدروز.

أتعثّر وأهوي. رأسي يصطدم بصخرة. الدم يسيل بين عينيّ وأنا أقف. أضع يديّ على رأسي وأمشي. وحدي أنا في الغابة. والظلام بدأ يهبط. أتسلّق شجرة فأرى ضوءاً بعيداً. أمشي صوبه فأجد كوخاً. أدخل إليه فأجد سطل ماء في الزاوية. أغسل رأسي ثم أجلس خلف طاولة. على الطاولة صحن حَساء ورغيف خبز. التهم الرغيف وأشرب الحساء. في الكوخ سرير واحد، أتمدّد فوقه. أحدّق في السقف فأرى عقرباً. قبل أن أتحرّك يسقط العقرب فوق وجهي، فأتذكّر خدعتي فجأة.

وفي اللحظة التالية يدخل «ك».

Twitter: @ketab_n

٣

وهكذا جاء «ك».

في أغلب مناماتي، أرى نفسي أتحرّك وأتكلّم كأنّني أشاهد نفسي بطلاً في فيلم. أحياناً يكون هذا الفيلم من إخراجي، أحياناً من إخراج آخرين. أحياناً أعرف من هم، أحياناً لا أعرف. عام ١٩٨٧ مثلاً كان هناك منام واحد يتكرّر كلّ ليلة. أكون جالساً مع فيرونيك حين تركض ليلى صوبي حاملة مجلّة فيها صورتي. طبعاً يكون المقال عن فيلم «الرجل المحجّب». أحياناً تكون المجلّة فرنسية، وفي أحيان أخرى تكون عربية. وفي كلّ مرّة يطلب منّي طارق أن أقرأ له المقال بصوت عالٍ وأن أشرح له ماذا يقول النّاس عن فيلمي الجديد.

يقول طارق: هذا المقال كتبه عمّو بيار؟

فأقول أنا: صحيح. وأفكّر: هل قال طارق «عمّو» باللّغة العربية؟

وتقول فيرونيك إنّها لا تفهم. فالأصحاب أيضاً لم يحبّوا هذا الفيلم. وتقول إنّ عليّ مراجعة نفسي جيّداً.

مجلة «اليوم السابع»، عدد ٥ تشرين الأول ١٩٨٧: «...كأنّ الحرب لم تكن إلاّ مذابح، ومذابح مقابلة...».

على التلفزيون أيضاً، الشتائم هي ذاتها: «يبالغ بغدادي في تصوير اللعبة على أنّها صراع بين قَتَلَة، وتصفية حسابات، ونحن ندرك أن الشعب اللبناني ذو ثقافة وحضارة، وله قضايا محقّة».

Twitter: @ketab_n

يقول طارق: هل التلفزيون الفرنسي أيضاً يكرهك يا بابا؟

وأفكّر أنا: ما هذه الحكاية، طارق يقول «يا بابا»!

هكذا يبدأ المنام دائماً، ثم اسمع صوتاً يشبه صوت ميشال البرتيني. هذا الصوت يقول لي: «إسمع يا مارون، لا تهتم، كلّهم لا يفهمون. المهم أنّك قمت بذلك. ليس سهلاً أن تُعيد بناء بيروت في قلب فرنسا. ليس سهلاً أن تصنع حرباً أخرى بمفردك. إنّ هذا هو أنت يا مارون، فلا تهتمّ بهم».

وفي لحظة خاطفة أفهم: إنّني أحلم: ما يجري الآن ليس حقيقياً، ما يجري كلّه منام.

ثم أتساءل: من هو المخرج؟ لست أنا بالتأكيد، إنّهم يصلبونني، وأنا لا أنتحر، فمن المخرج؟

لكنّ أحداً لا يجيب. عندئذ العب لعبتي المفضّلة.

– السيد سكورسيزي، هلاّ توليت الاخراج؟

وهكذا يتبدّل كلّ شيء. بعض التمارين الرياضية، ثم أفتح الجارور. المسدّس والحزام المليء بالطلقات ثم الانطلاق في السيّارة الصفراء. النقّاد يجتمعون في قلعة على رأس الجبل. رائحة الحشيشة تملأ المكان. ادخل فيخرج حارس من وراء باب ويشهر مسدّساً.

من هذا الحارس الأبله؟ إنّني أعرفه.

يقول الحارس بالفرنسية: هيا، اذهب من هنا.

أقول له بالانكليزية: هل تتكلّم معي؟

يقول الحارس بالعربية: انصرف فوراً!

أكرّر جملتي نفسها، بالانكليزية أيضاً، تماماً مثل روبرت دي نيرو: هل تتكلّم معي؟

وحين يدفعني بيده، أخرج مسدّسين، وأبدأ بإطلاق النّار على الجميع.

Twitter: @ketab_n

٤

وهكذا جاء «ك».

كنت ممدداً على ظهري في كوخ حين سقط العقرب فوق وجهي. فجأة تذكرت خدعتي فهتفت: السيد «ك»، هلاّ توليت الإخراج؟

دخل «ك» وكان العقرب قد اختفى. جلسنا: بعضُنا قبالة بعض، الطاولة بيننا، وفوقها صحن الحساء فارغاً، وقربه فُتات من الخبز.

قال «ك»: أرى أنّك قضيت على عشائي!

قلت: آسف.

قال: ونمت على سريري!

قلت: آسف أيضاً.

قال: كيف دخلت؟

لم أقل شيئاً.

قال «ك»: وماذا جئت تفعل هنا؟

قلت: جئت أبحث عنك، جئت لأجدك.

قال: ومن سمح لك بأن تجدني؟

لم أقل شيئاً.

عندئذ أعاد سؤاله الأوّل: كيف دخلت؟

قلت: كما تدخل أنت. من الباب. استخدمت المفتاح الذي

Twitter: @ketab_n

أخبرتني عنه.

قال: لم أفعل.

قلت: بلى، كتبت لي في رسالة عن مخبئه.

قال: كنت سكران.

قلت: لماذا تفعل هذا؟

قال: انظرْ!

نظرت إلى حيث أشار بإصبعه فرأيت ثعباناً ضخماً.

قلت: ما هذا؟

قال: أيمن شامل. إنه مايزال ورائي.

قلت: أنت تكذب. لماذا تكذب يا «ك»؟

قال: كلّنا نكذب، لكن الثعبان هناك، انظر!

قفز الثعبان في الفضاء، رأيت نابه المسموم.

Twitter: @ketab_n

٥

استيقظت فَزعاً. حاولت أن أتذكّر الكابوس فلم أقدر. كنت ألهث، نظرت إلى ساعتي. إنّها العاشرة صباحاً؛ كيف مضى الوقت بهذه السرعة؟

تركت السرير حافياً. في الحمّام غسلت وجهي. فجأة تذكرت الثعبان. لكن ما الذي جرى قبل ذلك؟ أين كنت؟ ماذا فعلت؟ لم أتذكّر شيئاً.

ضوء النهار يرتسم خيطاً نحيلاً في الزاوية حيث حبال الستائر. الستائر السميكة تمنع دخول الضوء. أزيح الستارة قليلاً فأرى الفندق المهجور. أعود إلى السرير وأجلس على حافته. أرتدي الكنزة ثم أقف وأرتدي البنطلون. أبحث تحت السرير فأجد مشاية جلدية. وأكتشف أنّها ليست صغيرة على قدميّ.

أفتح البرّاد فأجده مليئاً بقناني البيرة. أجد أيضاً علبة «بيكون». أنزع الغلاف الأصفر عن قطعتين والتهمهما. لا أعثر على فتاحة قناني في المطبخ. أستخدم مسكة باب الخزانة. تفور البيرة على يدي وفوق البلاط.

أشعر بالبرد. أضع المعطف النبيذي على كتفيّ. وأجلس قرب آلة التسجيل. بين الكاسيتات أعثر على كاسيت لأسمهان. أضعها في الآلة.

الصوت يخرج مرتفعاً. بسرعة أقوم بخفضه. تُرى هل سمع

Twitter: @ketab_n

الصوتَ أحدٌ ما؟ إلى أيّ درجة يستطيع هذا الفلّين أن يعزل الغرفة عن العالم؟

أشرب القنينة ثم افتح غيرها. الأغنية تجلب لي ذكريات سرعان ما تبدأ بإزعاجي. لذلك أبدّل الكاسيت. أضع كاسيتاً لفرقة «البينك فلويد». أفتح الجارور وأفتّش فيه. لا شيء. فقط كاسيتات أخرى، وأقلام، وقصاصات صحف لا قيمة لها. في البداية اعتقدت أنّ هذه القصاصات ربّما كانت تعني شيئاً. قرأتها فإذا بها جميعاً تخبر عن حوادث أمنية: سرقات، جرائم، محاولات قتل إلخ...

رفعت القنينة في الفضاء وقلت: نخبك مسيو هولمز!

أغنية Hey You!

بعد لحظات عثرت على فتّاحة قنانٍ في عمق الجارور. وبين الأقلام وجدت قلماً ذهبياً ناعماً ظننت أنّ «ك» لم يَشْتَره لنفسه. وخلال ثوانٍ تذكّرت: لقد أهديته هذا القلم قبل سبعة أعوام أو ثمانية.

متى بالضبط؟ عام ١٩٨٤. وكانت فيرونيك مريضة جداً. وكان الجيش قد خرج من «الغربية» عقب انتفاضة ٦ شباط. وكنت أزور بيروت ليومين، وبقيت أربعة أيّام وغضبت فيرونيك منّي.

أذهب إلى البرّاد مرّة أخرى. أُخرج علبة الجبنة وألتهم قطعة ثالثة. على الرفّ الثاني صحن من الفاصوليا المتبّلة بالطحينة والحامض والزيت والثوم. والعفن يغطّي معظمه. أخرج الصحن وأغلق البرّاد. تحت المجلى، إلى يمين قارورة الغاز، سطل نفايات؛ أليس كذلك؟

أدخل إلى المطبخ وأنظر. هناك ثلاث درفات خشبية تحت المجلى. أفتح الدرفة الوسطى فأرى السطل الأحمر، كما توقعت تماماً. أفرغ محتويات الصحن داخله. تخرج الرائحة حادّة. بعد ذلك أضع الصحن في المجلى. حين أفتح الحنفية تطفو بقع الزيت فوق الماء، أمّا العفن الأبيض الذي بقي ملتصقاً بالصحن كالقطن، فينكمش

Twitter: @ketab_n

على نفسه متحوّلاً إلى كرات بحجم حبوب الحمّص.

أفتح الدرفة الأقرب إلى باب المطبخ، فأجد قناني ماء فارغة، كيساً مليئاً بالفحم، منقلاً صغيراً.

أفكر أنّني لم أرَ منقلاً أصغر من هذا المنقل في حياتي، وأنّه يشبه منقلاً خاصاً بدمية «باربي».

أُغلق الحنفية ثم أعود إلى الغرفة. أرمي المعطف عن كتفيّ وأقرّر أن أقوم ببعض التمارين الرياضية. لا أفعل ذلك، وأجدني أندفع صوب الخزانة، وأخرج صندوق الدفاتر منها.

Twitter: @ketab_n

٦

وضعت صندوق الدفاتر على الطاولة وجلست. تلاشى الصوت الصاخب للغيتار الكهربائي ثم سمعت تكّة آلة التسجيل.

شربت ما تبقى من قنينة البيرة. دخلت إلى المطبخ حاملاً القدّاحة، وأشعلت سيجارة مستخدماً راس الغاز. عدت إلى الطاولة وتأكدت من الأرقام مرّة أخرى: في الصندوق تسعة دفاتر من الحجم الكبير. كلّ دفتر يحتوي على مئة صفحة تقريباً. الدفتر الأخير فقط مازال نصفه ابيض. على النصف الأوّل من هذا الدفتر كتب «ك» يوميات ربيع وصيف عام ١٩٩٢، تتوقف اليوميات عند شهر أيلول. أقرأ قليلاً في الدفتر الأوّل، ثم أتركه وأفتح الدفتر الثالث، ثم الدفتر الأخير.

لماذا توقف «ك» عن كتابة يومياته بعد نهار الثلثاء ١٥ أيلول ١٩٩٢؟ أقرأ ما كتبه في ذلك النهار فلا أجد شيئاً غريباً. بعض الكلام عن كتاب قراه خلال الأسبوع الماضي، وجملة واحدة في وصف صداع رأسه: «الميغران يؤلمني، والكون بأسره يؤلمني أيضاً». هذه الجملة الأخيرة لا أجدها غريبة لأنّها تتكرّر في الدفاتر الأخرى أيضاً، كما أنّني أعرفها جيّداً لأنّ «ك» اعتاد تَرْدادها في رسائله إليّ.

أشعل سيجارة أخرى من عقب السيجارة السابقة. قبل لحظات اكتشفت منفضة زجاجية بين الكتب والمجلاّت المبعثرة فوق الطاولة. المنفضة فارغة لكنّها ليست نظيفة، فالرماد ملتصق بقعرها كقشرة

Twitter: @ketab_n

سميكة من الخزّ المتعفّن. أضع العقب القصير على حافتها وأنظر إلى خيط الدخان الرفيع صاعداً في الفضاء. أفكّر أنّني قرأت شيئاً عن هذا قبل لحظات. نعم، كان «ك» يصف جلوسه أمام خيط دخان يتصاعد من سيجارة تستقرّ على حافة منفضة. أكانت هذه المنفضة ذاتها؟

أَنظر إلى ساعتي ثم أقف. أُزيح الستارة قليلاً وأجرّ البوّابة يساراً، يدخل الهواء ويدخل الصوت. ليس صوت سيّارات عابرة، وليس صوت أناس يتكلّمون، فقط صوت، فقط شيء ليس صمتاً، وليس سكوناً بلا نهاية.

المدينة هادئة. أنظر إلى الساعة مرّة أخرى. ظهيرة أحَدٍ خريفي. العالم مايزال بخير. الفندق المهجور يغرق في ضوء الشمس. أراقب سرب حمام يحوم فوق إحدى البنايات. فيما بعد أعود إلى الطاولة.

في أحد الدفاتر أعثُر على وصف لسرب الحمام الذي شاهدته قبل قليل.

Twitter: @ketab_n

٧

قرابة العاشرة ليلاً أستعدّ للخروج.

أنتَعِل حذائي وأمشّط شعري ثم أبوّل وأغسل يديّ. أرتدي معطف «ك» فوق ثيابي ثم أزيح الستارة وأنظر إلى نفسي في الزجاج. أصلح ياقة المعطف وأحدّق في وجهي.

أرض الشرفة تغطّيها العتمة. في الخارج، وراء زجاج البوّابة، أرى الغرفة التي أقف فيها. غرفة في هذا الجانب، وغرفة في الجانب الآخر. أُخرج السيجارة الأخيرة من العلبة وأضعها في جيب المعطف. هكذا سأتذكّر شراء السجائر والكبريت.

بعد أن أطفئ المصابيح أُلصق أذني بالباب. بالطبع لا أسمع شيئاً لأنّه مبطّن بالفلّين. حين أنتبه إلى هذه الحقيقة البسيطة أبتسم وأشقّ الباب بهدوء. لا صوت في الخارج، حسناً، هيا!

أستخدم أسلوب «ك»، فأتجنّب الانتظار أمام المصعد، وأتجنّب النزول فيه. أهبط الدرج قفزاً. المكتب الزجاجي في المدخل يبقى نوره مضاء طَوال الليل، لكنّه يقفل عند حلول المساء. بوّابة البناية لا تقفل أبداً؛ فقط خلال معارك عام ١٩٨٤ أصرّ محمّد على إقفالها قبل انتصاف الليل.

الشوارع مبلّلة بمطر خفيف. ضوء نيون أبيض يلمع فوق أوراق الشجرة الصغيرة عند زاوية الأوتيل المهجور. أفتّش عن الأشجار الأخرى فلا أجدها. لا بدّ أنّهم قطعوها.

Twitter: @ketab_n

عند باب البار القريب، أرى امرأة البارحة. وهي حين تراني تكرّر العبارة ذاتها: «يا حلو»، لكنها في هذه المرّة تبقى متّكئة على الباب الأحمر ولا تتقدّم، ولو خطوة واحدة. أنظر إلى فخذيها البدينين وأفكّر أنّ لونهما أزرق من البرد، وأن هذه الجوارب الصفراء تشبه جوارب الأطفال. أبتسم لها، وأتابع طريقي. فجأة تناديني. تقول شيئاً مثل «انت» أو «يا رجل»، أو لا أعرف ماذا بالتأكيد، لكني التفت.

إنّها تمشي نحوي متردّدة. تقف على حافة الرصيف ولا تنزل. كأنّ نزولها سيجبرها على التقدّم حتى النهاية. أنظر إليها منتظراً. تحرّك يدها وأرى أنّها في حَيرة. لكني لا أفهم حيرتها. النظرة في عينيها لا علاقة لها بطبيعة عملها، ولا بالمقدّمات أو الاستعدادات الضرورية لاصطياد زبون. إنّها نظرة مختلفة. أريد أن أعرف ماذا تريد، لكنهّا تستدير مسرعة وتتراجع إلى مكانها عند مدخل البار. خلفها رجل بدين حليق الذقن، يرتدي كنزة صوفية سوداء. أقرّر الابتعاد.

أجاوز المطعم المضاء ثم المفرق المؤدّي إلى الفندق النمساوي. سيّارات قليلة تعبر الشارع، أراقبها تبتعد. رويداً رويداً يموت الضوء الأحمر للمصابيح الخلفية. الرذاذ يَهْمي. قرب فندق الرويال – غاردن يتكرّر المشهد في رأسي. المرأة تتراجع والرجل يظهر خارجاً من البار. أراه يلهث. وأتخيّل درج البار الطويل. غالبية بارات هذه المنطقة تحت الأرض. آخر مرّة دخلت إلى بار هنا، كنت بصحبة «ك». كان ذلك قبل الاجتياح الاسرائيلي. فجأة تخطُر الفكرة لي: هل حسبت المرأة أنّني «ك»؟ هل خدعها المعطف الذي أرتديه؟

من فرن بربر أشتري منقوشة لحم بعجين. بلا حامض، بلا خضار، بلا كبيس. فقط أطلب رشّة ملح فوقها، وقنينة من اللبن البارد، ومن الرجل العجوز الجالس أمام عربته الخشبية الصغيرة في الجانب الآخر من الشارع، ابتاع ثلاث علب مارلبورو وقدّاحتين. آكل المنقوشة واقفاً قربه، وأشرب قنينة اللبن.

Twitter: @ketab_n

يسألني: تريد شيئاً آخر غير السجائر؟ التفت صوبه. أبتسم وأقول: لا، شكراً.

أُشعل سيجارة مارلبورو وأرمي الأخرى القديمة التي كانت في جيب المعطف. أنحدر باتجاه شارع الحمراء. كراسي مقهى المودكا مقلوبة فوق الطاولات. الزجاج نظيف برّاق. الضوء القوي يُظهر اتّساخ الرصيف القريب. المدينة تبدو مهجورة، كأنّ سكّانها قد غادروها على عجل.

في شتاء عام ١٩٨٠، كان «ك» مارّاً من هنا في نزهته المسائية المعتادة، حين هتف صوت باسمه. التفت فرأى سيّارة مرسيدس بيضاء تعود القهقرى، ورأى رأساً يخرج من النافذة. كان ذلك فهد بدر الدين، زميله في غرفة الفندق بمدريد. كان الشارع غارقاً في العتمة، فتعثّر فهد بحافة الرصيف.

يمشيان معاً نزولاً صوب شارع بُلِسّ. هناك صوت رصاص بعيد. سأل فهد «ك» أين أيّامه، فكذب «ك» قائلاً إنّه يعيش مع أهله في الجبل.

– صرت درزيّاً؟ سأله فهد مذهولاً.

– لا، فقط مزارعاً.

– ماذا تزرع، بندورة؟

– لا، أربّي دجاجاً. وفي الصيف نزرع بندورة ولوبياء وخياراً.

– وتركت؟

– تركت.

– لم يعد لك علاقة!

– أبداً.

كانا الآن قُبالة بوّابة الجامعة الأميركية.

قال فهد: لندخل ونشرب فنجاناً من القهوة.

Twitter: @ketab_n

قال «ك»: أين؟

قال فهد: عندي أصحاب هنا.

قال «ك» إن لديه موعداً بعد نصف ساعة.

– غرام؟ سأل فهد.

– تقريباً، قال «ك».

– أين تسكن في الجبل؟ في بلدتك؟

– لا، في بلدة أخرى.

– ما اسمها؟

– قرنايل.

– أعرفها، بعد حمانا، اليس كذلك؟

وأشعل كل منهما سيجارة.

قال فهد: أنا لم أترك. مركزي الآن في وطى المصيطبة، المركز القديم، أنت تذكره.

قال «ك»: لا، لا أذكره.

قال فهد: ورغم أنّهم وضعوا لي عيناً زجاجية، فمازلت أسدّد على نحو ممتاز. انظرْ، هذه إصابة من السنة الماضية، ماتزال تؤلمني.

كشف فهد عن ساقه اليمنى. رأى «ك» حفرة تحت الركبة.

قال فهد: وأنت، كيف أصبح نظرك؟

قال «ك»: جيّداً. أنت تعلم أن إصابتي لم تكن مباشرة.

قال فهد: أعرف، وهج الانفجار سبّب لك جروحاً في الشبكية، جروحاً قابلة للشفاء. أليس ذلك ما قاله الطبيب؟

قال «ك»: صحيح.

قال فهد: «هل تعلم، مازلت أراه في أحلامي.»

Twitter: @ketab_n

قال «ك»: الطبيب؟

قال فهد: لا، طلال. أرى نفسي أركض صوبه، وأرى الدم ينفجر من وجهه ثم تأتي النّار ولا أعود أرى شيئاً.

بقي «ك» صامتاً.

تابع فهد: والديدان أيضاً أراها كلّ ليلة. أنت تذكر إيليا، الذي كان معنا في مدريد!

قال «ك»: لم أعد أذكر.

قال فهد: إيليا خوري، من الأشرفية، الذي يكتب قصصاً!

قال «ك»: ما به؟

قال فهد: رأيته ذلك النهار. أهداني كتبه كلّها.

قال «ك» إن عليه أن يذهب لأنّه تأخّر.

قال فهد: أنا في المركز دائماً، عَرِّج علينا حين تنزل إلى بيروت.

هتف فهد: معي في المركز واحد كان معك في الدامور. إنّه يتكلّم عنك دائماً. هل...

خطى واسعة وسريعة. الصوت يتلاشى. السؤال لا يصل. و«ك» يفكّر أنّها ليلة مشؤومة هذه الليلة. وشارع بُلِسّ يمتد مظلماً أمام قدميه.

أشعلت سيجارة وأنا أمشي. كان ذلك صعباً. ظلّ الهواء يطفئ القدّاحة. ثم نجحت. عن يميني جدار الجامعة الأميركية. إلى يساري موقف للسيارات، تليه سينما أديسون. إلى هنا كان «ك» يأتي أحياناً، قنينة النبيذ مخبّأة تحت المعطف، وعلبة السجائر ماتزال في غلافها الشفاف. ينزل الدرج الطويل ويستقرّ بين المقاعد المحطّمة، في مقعد مايزال يشبه المقعد. العتمة ذات الرائحة تحيط به. والرؤوس القليلة الموزّعة في الصالة الفسيحة تبدو كأنّها مزروعة في الفضاء. يأتي عند الظهيرة ويغادر بعد حلول الظلام.

Twitter: @ketab_n

وقفت أمام البوابة الزجاجية المقفلة. تفرجت على ملصقات الأفلام. كان الضوء واهناً واستوقفتني صورة امرأة عارية تتمدّد على جنبها محتضنة ثعباناً أسود ضخماً. حدقت في الثعبان جيداً، لكني لم أرَ نابه. ربما لأنّ الضوء كان واهناً. وكانت هناك أيضاً ملصقات لأفلام حربية وأفلام بوليسية. البوّابة مقفلة بسلسلة حديد، أخذت أعبث بها مستمعاً إلى الصوت الذي تحْدثه. ورأيت نفسي أطلق النار من كلاشينكوف، وأدخل عبر الزجاج المحطّم بصحبة «ك».

ابتعدت عن البوّابة المقفلة عائداً صوب الدكاكين المفتوحة. من الدكان المواجه لبوّابة الجامعة اتّصلت بحسن داود. في البداية أجابتني ابنته. صوتها بدا غريباً جدّاً. تذكرت ليلى. ثم سمعت صوت حسن.

– «مرحباً مارون، أهلاً!».

قلت لحسن إنّني مستعجل، وانّني اتكلّم من المطار. وقلت له إنّني مسافر إلى هنغاريا خلال دقائق لعمل طرأ عليّ.

توقفت للحظة ثم تابعت: «أعود قبل نهاية الشهر. سأحاول الاتصال بك من هناك أيضاً. في كلّ الأحوال تابع العمل في السيناريو بأسرع ما يمكن. اعتبر أنّك وقعت العقد وأن المال في جيبك. علينا أن ننجز السيناريو قبل بداية كانون الأوّل، اتفقنا؟

– اتفقنا.

– اني أعتمد عليك.

– حاولْ أن تتصل بي من هنغاريا.

دفعت للرجل الجالس بين صناديق الشوكولاته ألف ليرة.

قال لي: «مخابرتك كانت في بيروت؟

قلت: نعم.

Twitter: @ketab_n

خرجت من الدكان وذهبت إلى اليمين. صعدت الطلعة القريبة من «الانكل سامز» مسرعاً. من دكان كبير في شارع جاندارك اشتريت ربطتي خبز، واشتريت معلّبات لحم وخضاراً، واشتريت المزيد من السجائر. دفعت ثمنها وتأهبت لمغادرة المكان، لكنّي لم أفعل. عدت إلى عمق الدكّان وأخرجت بعض قناني النبيذ من سلّة قشّ كبيرة، وجلبت أيضاً قنينة ويسكي. حين وضعت هذه الأغراض على الطاولة أمام البائع ابتسم لي.

أوقفت سيّارة تاكسي، وساعدني السائق على نقل الأغراض إلى الصندوق. فجأة أحسست بالخوف. طلبت من السائق أن ينتظرني لحظة ودخلت الدكّان مجدّداً.

– هل يمكنني استخدام هاتفك؟

– طبعاً. أجابني البائع.

طلبت رقم البيت في باريس. صبيّ الدكان كان يكنس الأرض. وخرج البائع وبدأ بإدخال صناديق البضاعة المصفوفة قرب الباب. نظرت إلى ساعتي. الحادية عشرة والربع. وضعت السمّاعة من يدي. البائع في الخارج، الصبي يجرّ برّاد المرطبات، والسائق في السيّارة يستمع إلى أغنية لأمّ كلثوم. قلت لنفسي إنّ أحداً لم ينتبه إلى حماقتي.

أخذ رأسي يؤلمني، اشتريت علبة أسبيرين. حاولت أن أتذكّر آخر مرّة اشتريت فيها مسكّناً للأوجاع، فلم أستطع.

في السيارة أخبرني السائق أنّه لا يشتغل حتى هذا الوقت المتأخّر عادة. لم أفهم دافعه إلى قول ذلك. ابتسمت له، ونظرت أمامي. انعطفت السيّارة بنا ووجدت نفسي قرب الفندق المهجور، فندق الكومودور.

دفعت له ضعف الأجرة المعتادة ثم ترجلت. كان الجوّ ساكناً، وبدا العالم مستغرقاً في نوم عميق.

Twitter: @ketab_n

الجزء الثالث

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١

كان ذلك في ليل الأحد ٧ تشرين الثاني ١٩٩٣.

ومارون يحبس نفسه داخل غرفة «ك»، وطوال الأسابيع الثلاثة التالية لا يخرج إلى أيّ مكان. فقط يقرأ في الدفاتر، وأحياناً يجد نفسه مضطراً لمراجعة بعض الكتب كي يفهم بدقّة معنى ما يقرأ. وهذه الكتب يعثر عليها بسهولة في مكتبة «ك» الممتازة التنظيم.

حين يتعب ينام. حين يجوع يأكل؛ يفتح علبة من لحم الضأن ويسخّنها قليلاً في المقلاة. عند الظهيرة يتناول كأساً من النبيذ. في الأمسيات يسكب بعض الويسكي في كوب شفّاف ويضيف بعض مكعّبات الثلج.

في نهاية الأسبوع الأوّل يتّسخ احتياطه من الملابس الداخلية. يلجأ إلى الخزانة فيعثر على بنطلونين، ويجد فانلّة قطنية واحدة. وحين تتّسخ بيجامته يرميها في الحقيبة الفارغة ويرتدي بيجامة «ك».

صباح كلّ يوم يغتسل أمام المجلى. بعد ذلك يدخل إلى الحمّام ويغسل شعره بالشامبو. في البداية يغسل شعره دورين. بعد أيّام يبدأ بغسله مرّة واحدة فقط كي لا تفرغ قارورة الشامبو بسرعة.

أحياناً، عند العصر، يصنع لنفسه بعض الشاي. وجد كيساً

Twitter: @ketab_n

مليئاً بالشاي في الخزانة. حين كان يُعدّ الإبريق في المطبخ، تذكر تلك الأيام في شقّة الصنائع.

مارون كان يقول لـ«ك» إنه بالتأكيد ليس درزياً لأنّ أحداً لا يحب الشاي على هذا النحو إلاّ إذا كان شيعياً.

ويضحك «ك» ويقول إنّه وُلد بلا دين، فهو درزي في بطاقة الهوية فقط، لكن الدّين الدرزي لا يعترف بدرزيته في الحقيقة، لأنّ الدرزيّ لا يمكن أن يربّى في بطنٍ غير درزية، وبطن امرأة تدعى جاكلين ليست هي بالتأكيد بطناً درزية.

ويبعد مارون كوب الشاي ويقول لـ«ك» إنه لا يطيق طعمه المرّ. ويأخذ «ك» الفنجان الآخر ويجلس في سرير مارون ملتفّاً ببطانية، يشرب الشاي ويسأل مارون عن ثريا.

السنوات تركض: مضت الستينات والسبعينات، حلّت الثمانينات. راحت ثريا، جاءت فيرونيك.

وفيرونيك تقول لمارون: هل تعلم يا مارون، انا أغار من «ك»؟

فيضحك مارون.

وتقول فيرونيك إنها لا تمزح. إنها تمرر يدها على بطنها المنتفخ ثم تنظر إلى الخارج. أضواء السيّارات البعيدة تلتمع في عتمة باريس الشفّافة. الخريف يدنو ومارون يحسّ ثقلاً في داخل صدره. كان يريد أن يسمّي ابنه باسم آخر. فلم توافق فيرونيك. سمّوه طارق. كتب له «ك» في رسالة انه يعيش حياة هادئة.

وفكّر مارون في حياة «ك» الهادئة. قبل شهر اتّصل به في بيروت. القوّات المتعدّدة الجنسية رحلت عن لبنان، والمطار مغلق. قال مارون لـ«ك» أن يترك بيروت إلى قبرص أو إلى الشام. وتابع: «سأنتظرك هناك ونسافر معاً».

قال «ك» إنّه لا يستطيع.

Twitter: @ketab_n

سأله مارون: لماذا؟

فقال له «ك»: ليس سهلاً أن تترك الأشياء.

صمت مارون. كان «ك» ينكأ جروحاً قديمة. كان يتكلّم عن ثريا، وعن مارون الذي تركها. ظلّ مارون صامتاً. وانقطع الخطّ.

في فيلم «حروب صغيرة» الذي أخرجه مارون عام ١٩٨٢، تقع ثريا في غرام طلال وتحمل منه. طلال يعيش ويدرس في بيروت بعيداً عن جذوره في الريف. البطل الآخر في الفيلم يدعى نبيل. نبيل يحب ثريا ويحب المغامرات، ولا يذهب إلى أيّ مكان بدون كاميرته.

ليس مارون نبيل في نظر «ك». إنّه طلال في نظره. «ك» كتب لمارون فيما بعد أنّه فهم اللعبة. لعبة مارون كانت في استعارة جذور «ك» لنفسه بحيث يتحوّل إلى طلال. وفي المقابل يقدّم مارون لـ«ك» تلك الكاميرا التي اشتراها في أيّام الطفولة بالمال الذي جناه من بيع الشوكولاته والمفرقعات في السيوفي وساحة ساسين. فمع هذه الكاميرا يتبدّل اسم «ك» فيصبح نبيل، ويتاح له أن يحوّل مودّته لثريا إلى حب.

فهم «ك» لعبة مارون. كان مارون يتبادل الأدوار مع «ك» كي يخبره أنّه صديقه الوحيد في هذا العالم.

لكن ما لم يفهمه «ك» هو قدرة مارون على ترك ثريا، تماماً كما فعل طلال في الفيلم.

بعد فيلم «حروب صغيرة»، بدأ الاجتياح الإسرائيلي. ذهب مارون إلى شقّة «ك» في الكومو – غاردن، وقال له: «تعال معي إلى فرنسا». كان «ك» يسعل بشدّة، وصنع شاياً له ولمارون وجلسا يتكلّمان. «ك» يجلس وسْط السرير ملتفاً ببطانية، مارون على كرسيّ الحديد قرب الطاولة.

قال مارون لـ«ك»: «تعال معي إلى فرنسا. هناك نستطيع أن نعمل معاً».

قال «ك»: «لا أحب فرنسا، إنها دولة استعمارية».

Twitter: @ketab_n

ضحكا، وقال مارون إنّه مايزال يكره الشاي. قال «ك» إنّ هناك أشياء لا تتبدّل، ثم وضع له ملعقة سكّر أخرى في كوبه.

قال مارون: أتذكر بعد مظاهرات عام ١٩٦٩، حين قلت لك تعال معي إلى فرنسا؟

«ك»: ....

مارون: آنذاك قلت لي إنّك تكره فرنسا لأنّ جاكلين تعيش هناك.

«ك»: ....

مارون: حسناً، جاكلين لم تعد هناك الآن، فما الذي يمنعك من السفر معي؟

«ك»: لا أستطيع أن أترك هذه الغرفة، كلّ كتبي هنا.

مارون: وقبل الحرب كنت تحب شقّة الصنائع، وكل كتبك كانت هناك، لكنّك تركتها.

«ك»: كان عندي كمية أقلّ من الكتب آنذاك. ولم يكن بينها روايات. كانت كلّها كتب تاريخ. كتب التاريخ يسهل حملها.

مارون: بدأت الفلسفة!

«ك»: اشرب كوبك قبل أن يبرد.

وسافر مارون إلى فرنسا. وهناك التقى فيرونيك.

كتب له «ك»: ثريا اختفت. لا أحد يعرف أين هي. اتصلتُ ببيت أهلها، فقالوا لي انها مخطوفة.

كتب له مارون: «أنا أيضاً اتّصلتُ ببيت اهلها لكنهم قالوا لي إنّها سافرت إلى أميركا.

كتب له «ك»: يبدو أنّ حبل الكذب قصير جداً. وبالمناسبة مبروك زواجك. آسف أنّني لم أحضر. لكنك تعرف موقفي التاريخي من الانتداب.

في شقّة الصنائع، أيّام دراسة الحقوق، كان «ك» مدمناً قراءة

Twitter: @ketab_n

التاريخ. وغير التاريخ لم يكن يقرأ شيئاً، باستثناء دروسه الجامعية. ومارون لم يكن يفهم كيف يستطيع «ك»، مدمن التاريخ، أن لا يهتم بالصحف ولا بأخبارها، ولا بالمظاهرات.

هكذا كان «ك»: يجلس في سرير مارون لأنّه أقرب إلى النافذة، يضع الصينية قربه، والكتاب مفتوح في حضنه. على الصينية قرعة المتّة وإبريق النحاس.

في أيام الصحو يضع كرسيّاً على الشرفة. يمدّ ساقيه حتى الدرابزين الحجري، ويدفع الكرسي إلى خلف. يقرأ حتى المساء.

فجأة تضاء اللمبة فوقه. يسمع صوت ثريا ثم صوت مارون. يجلبان كرسيين ويجلسان. تفتح ثريا قناني البيرة المثلجة، ويخبره مارون عن المكتبة التي احترقت لعطلٍ كهربائي، أو عن حادث الاصطدام الذي جرى فوق جسر فؤاد شهاب، أو عن الاشتباك الذي جرى بين جنديين من الجيش وأحد الفلسطينيين...

هكذا كان مارون. لا يقعد لحظة إلاّ ليفكّر مسرعاً بمكان آخر يسرع إليه. أحد الأصدقاء قال له إنّه لا يعرف كيف يجلس على الكرسي، وأنّه يقعد دائماً على حافتها كشخص مصاب بالبواسير.

في الليل، بعد ذهاب ثريا، يتحدّث مارون عنها طويلاً. وحين لا يتحدّث يسأله «ك» ما الأمر؟ وكان «ك» يحب أخبار ثريا، وينتظر يوم زواجها من مارون، كأنّه هو العريس.

ثم حدث ذلك. كان «ك» يناقش أستاذ مادّة التاريخ في موضوع دخول الجيش الفرنساوي إلى جبل لبنان بعد حرب ١٨٦٠، حين تخيّل الأستاذ أن هذا الشاب الذي بقي صامتاً منذ بداية الفصل الدراسي، والذي لا يبدو على علاقة بالجامعة أو بالدروس الأكاديمية، ليس قصده أن يناقش في موضوع التاريخ بل في موضوع السياسة.

عندئذ قال الأستاذ: «الطائفية ليست منهجاً»، يقصد أن «ك» يتحدّث بصفته درزياً.

Twitter: @ketab_n

لم يعرف «ك» ما الذي حصل له. كان الأمر يشبه الكابوس. كلّ ما أراد قوله إنّ الجيش الفرنساوي لم يقم بإنهاء الحرب بقدر ما أسّس لحرب أخرى ستأتي.

فما هذا الكلام الذي يقوله الأستاذ؟

ولماذا صمت الجميع هكذا من حوله؟

وتابع الأستاذ: لا نريد أحاديث الطوائف بعد الآن.

وفقد «ك» السيطرة على نفسه.

كان جسده يرتجف، وحين حاول جمع أوراقه سقطت أرضاً. ولم يعد يرى. قبل أيام قليلة رأى أنه يخترق غابة معتمة. كانت هناك رائحة خراء تملأ الجوّ. وأدرك أنّه يسير فوق رمال متحرّكة. كانت الأرض تنزلق تحت قدميه وأخذ يغوص في المستنقع، ثم غَشِيَتْ عينيه ظلمة رطبة.

أمسك الأوراق لكنها وقعت مرّة أخرى. وكان الصفّ صامتاً كالقبر. اندفع «ك» صوب الباب، فاصطدم بإحدى الطاولات.

ووصله صوت يقول: «هذا تصرّف غير مقبول إطلاقاً».

رفع رأسه وكانت ساقاه عالقتين في الأرض. ورأى ذلك الرجل. إنّه الأستاذ لكنّه بات يملك وجهاً آخر. أغمض «ك» عينيه وسمع صفير شريط نحاسي يقصّ الهواء.

الشمس تغيب و«ك» على الشرفة يشرب المتّة. إنّه لا يقرأ، إنّه فقط يتفرّج على السماء البرتقالية اللون.

سمع صوت السيّارة تتوقّف أمام البناية. سمع الأبواب تفتح وتغلق. بعد لحظات سمع صوت مارون وصوت ثريا خلفه. ثم ساد الصمت.

وقال له مارون إنّ قرار المجلس قد صدر. وكانت ثريا تبكي. لقد طردوه.

ملأ «ك» القرعة. وقف حاملاً الإبريق ومضى إلى المطبخ. أشعل

Twitter: @ketab_n

النار لتسخين الابريق. تساءل: ما الذي تفعله أمّه في تلك اللحظة بالذات. تخيّلها تمشي في مركز تجاري محملّةً بأكياس منتفخة، وفكّر انّها ستتعب بعد قليل.

سقط الإبرايق على الأرض، كادت المياه تحرقه.

تلك الليلة أخذه مارون إلى شاطئ الرملة البيضاء. هناك شربا نبيذاً قوياً ودخّنا السجائر قرب امواج البحر. قبل ذلك لم يكن «ك» يدخّن، وكان نادراً ما يشرب الكحول.

بدأ مارون يضحك. رياح البحر مالحة، والسماء تُرَصِّعها نجوم بيضاء. والمدينة، في الخلف، بعيدة كأنّها في عالم آخر.

مارون: لكن كيف ضربته؟

«ك»: لم أضربه، نطحته.

مارون: وكسرت أنفه وفقد نصف أسنانه، بنطحة؟

«ك»: ربما كنت ثوراً في حياتي الماضية.

مارون: ربما لهذا السبب يُنعت الدروز بالعجول.

لم يضحك «ك»، وأسقط مارون القنينة من يده، فلطخ ثيابه. عندئذ ضحك «ك» مشيراً إلى البقع الداكنة على بنطلون مارون وقميصه: وربما لهذا السبب يُنعت الموارنة بالخنازير.

الساعة الثالثة فجراً. في السماء خيوط ضوء خضراء. «ك» يتمدّد على ظهره، مارون على جنبه. الكورنيش فوقهما مهجور. أحياناً تعبره سيّارة مسرعة. البحر هادئ تماماً. صوته ثابت لا يتبدّل. كأنّه نواح بعيد.

الدنيا غائمة. عينا «ك» مفتوحتان. إنّه يفكّر ببيت جدّه. كأنّه يتمدّد على الكنبة في غرفة جدّيه. كأنّ الفجر يطلع في الخارج. كأنّ نباح الكلاب يتصاعد متقطّعاً من الحيّ القريب.

يقول مارون: «ماذا ستفعل؟

فلا يقول «ك» شيئاً.

Twitter: @ketab_n

ويقول مارون: «الجامعة اللبنانية هي الحلّ الوحيد، أو الأميركية، ما رأيك؟»، ثم يتلعثم. لسانه ثقيل من النبيذ الكثير الذي احتساه. يضحك «ك»، وكذلك مارون.

يتقيأ «ك» فوق الرمال.

بعد يومين تُحضر ثريا طلب دخول إلى الجامعة اللبنانية، وتساعد «ك» على تجهيز الأوراق اللازمة.

في عطلة الأسبوع يصعد الثلاثة معاً إلى الجبل: جدّة «ك» مريضة، يستقبلهم الجد في الصالون. يدخل «ك» إلى غرفة الجلوس. الجدّة في الزاوية، ممدّدة على السرير الصغير. كانت تنام كطفلة. جلس «ك» قربها، أبعد خصلة شعر عن وجهها. خيّل إليه انها تحلم بذويها.

في الصالون كانت ثريا تضحك وهي تميل على مارون. والجد يتكلّم مسروراً. جلس «ك» على كنبة منفردة. التفت الجد صوبه:

– كنت أخبرهم عن أمّ شكيب. البارحة سحبت السلم عن شرفتنا وكادت تسقط معه في الجلّ.

سأل «ك» عن جدّته، فأخبره الجدّ انّها مريضة منذ نهار الأربعاء: استيقظت في الليل وتقيّأت ثم بدا أن حرارتها مرتفعة.

– ... وفي الصباح أحضرت لها الطبيب، أنت تعرفه، أبو أيمن. قال إنّها جرثومة في المعدة ووصف لها دواء ثم نصحها أن تشرب يانسوناً مرّة كلّ ساعتين. الآن تحسّنت. البارحة نامت الليل كلّه.

حين ترك «ك» الصالون إلى المطبخ لحقت به ثريا. وفيما هما يعدّان القهوة، كان مارون يحكي للجدّ تفاصيل ما جرى.

غادروا المكان، وكانت الجدّة ماتزال نائمة. قال «ك» إنّهم قد يرجعون ليلاً وينامون هنا. في الخارج لسعهم الهواء البارد. وكانت رائحة الصعتر البرّي تصعد إليهم من الوادي فوّاحة قويّة.

قال الجد: ارتدوا ثياباً كافية، لئلا تصابوا بالرشح.

Twitter: @ketab_n

في السيارة قالت ثريا: إلى أين نذهب؟.

كانت تنظر في المرآة.

في الخلف كان «ك» ينظر إلى يديه، قال: «إلى بيروت».

ثبتت ثريا مبدّل السرعة على وضعية الانطلاق، نظرت إلى «ك» في المرآة، وسألته: لكن، لماذا قلت لجدّك إنّنا قد نرجع في المساء؟.

على المقعد المجاور لها، أطلق مارون ضحكة قصيرة.

تلك الليلة شاهدوا في سينما الأمبير فيلماً من بطولة سبنسر ترايسي. وفي طريق العودة، اصطدمت سيّارة ثريا بأوتوبيس مسرع في شارع السراي. آنذاك كانت سينما الأمبير ماتزال على ساحة البرج.

مارون يقرأ في الدفاتر ويشرب الشاي ويدخن. أحياناً يضع كاسيتاً في آلة التسجيل، أو يقوم ليمشي في الغرفة. يتفرّج على المكتبة أو الصور المعلّقة على الجدار المقابل، ثم يعود إلى دفاتر «ك». والبرد يقوى يوماً بعد يوم.

أمام مارون رسْمٌ لساحة البرج. رسم «ك» بيروت القديمة على شكل مستطيل. تحت الرسم كتب: إنّ بيروت هي مستطيل، لا أكثر ولا أقلّ. في الحرب تهدم المستطيل. الآن بيروت مستطيل جديد. ضلعه الغربي كورنيش المنارة.. ضلعه الشرقي شارع مدام كوري. ضلعه الجنوبي الطلعة القريبة من مدينة الملاهي والممتدة صعوداً حتى الروشة ومطعم نصر. أمّا ضلعه الشمالي فطلعة عين المريسة صعوداً حتى التصالب الذي يلي بناية نجار، حيث المفرق إلى اليمين يؤدّي إلى فندق البريستول، ثم إلى شارع مدام كوري.

«هذه هي مدينتي»، كتب «ك»، «وفي داخل هذا المستطيل أدور دون توقّف ثم أعود إلى حيث أنا».

تخيّل مارون أضلاع المستطيل، فوجدها متعرّجة، وابتسم.

Twitter: @ketab_n

قبل زمن غير بعيد جداً، في القرن التاسع عشر وقبله، كانت بيروت مدينة صغيرة تنام بين أسوار لا سبيل للخروج منها إلا عبر ثمانية أبواب. وفي الرسم الذي نسخه «ك» على دفتره السميك عن مخطوطة محفوظة في الجامعة الأميركية في بيروت، يعود تاريخها إلى عام ١٨٣٠، تظهر بيروت كمتاهة من الأزقة الضيّقة مرسومة وسْط مستطيل لا يتعدّى طول ضلعه الأكبر ستمائة متر. والرحّالة الذين كانوا يعبرون المدينة آنذاك كانوا يتفقون على صفتين محدّدتين لها: الضيق والقذارة.

كتب «ك»: إنّ بيروت لها رائحة. وكتب أنّ هذه الرائحة لا تخرج من البحر القريب، ولا تخرج من صناديق النفايات، ولا تخرج من أزقتها المتّسخة. كتب: إن رائحة بيروت تخرج من جدران بيوتها.

هذه الرائحة التي تخرج من الجدران، ومن النّاس الذين يقيمون خلفها، اكتشفها قبل «ك» بمئة سنة شاب روسي كان يقيم في بيروت طلباً للعلم. وجد مارون مذكرات ذلك الشاب في مكتبة «ك». هذه المذكرات مطبوعة ضمن كتاب يحمل عنوان «بيروت وجبل لبنان على مشارف القرن العشرين، دراسة في التاريخ الاجتماعي من خلال مذكرات العالم الروسي الكبير أ. كريمسكي».

عاش كريمسكي في لبنان بين عامي ١٨٩٦ و١٨٩٨. كان في العقد الثالث من عمره، وكان يكتب لأخته ماشا التي تعيش مع الأهل في روسيا، رسالة واحدة كلّ يوم.

مارون يتصفّح الكتاب. تستوقفه الإشارات الحُمْر التي وضعها «ك» على الصفحة ١٨٤: «بيروت في ١٣ و١٤ حزيران ١٨٩٧: كلب مسعور عضّ أكثر من عشرين شخصاً في بيروت، لذلك أمر الوالي بناء على نصيحة إحدى الشخصيات المسيحية من آل طراد بتسميم جميع كلاب المدينة. وهكذا نفق عدد كبير منها تمّ رميها بالبحر، ولكن بعضها استطاع الفرار والاختباء».

تحت هذا المقطع رسم «ك» سهماً حتى الهامش. في الهامش قرأ مارون الكلمات التالية مكتوبة بالحبر الأحمر: «تلك الكلاب التي فرّت

Twitter: @ketab_n

واختبأت، هل تكون هي نفسها الكلاب التي خرجت من الأسواق التجارية المهدّمة خلال الأيّام الماضية؟ لكن كيف تمكّنت من البقاء على قيد الحياة طوال عشرات السنين التي مرّت، وماذا كانت تأكل؟ عظام موتاها أم عظام الأبناء أم عظام الآباء؟ أم أن كلاب هذه المدينة تقتات من رائحة جدرانها لا من العظام!».

في الصفحة ١٨٧ أيضاً وجد خطاً أحمر يشير إلى نهار ٧ تموز ١٨٩٧: «ما كدت أفرغ من كتابة هذه الكلمات حتى بدأت الحرب – حربي ضد البعوض الذي جذبه نور المصباح إلى غرفتي».

ضحك مارون. في الليلة الماضية قرأ في دفاتر «ك» وصفاً لليلةٍ حارّة جداً. حرّ تلك الليلة الفظيع أجبر «ك» على ترك البوّابة الزجاجية مفتوحة خلال ساعات نومه. نتج عن هذا القرار تسلل سرب من البعوض إلى داخل الغرفة. في الصباح استيقظ «ك» متورّماً. فرك عنقه وذراعيه بالسبيرتو ثم كتب في الدفتر: «هذه الليلة كاد البعوض يجرّني من سريري إلى الشرفة».

في شقّة الصنائع أيضاً كانا يحاربان البعوض كلّ ليلة. مارون يشعل أقراص «الكاتول»، و«ك» يرميها خارجاً لأنّها تخنقه هو قبل أن تخنق البعوض، وثريا تضحك. بعد أيّام وقفت ثريا على بابهما تحمل ناموسيتين. وحسِب مارون و«ك» أنهما ربحا المعركة ضد البعوض. لكن الحشرات الطنانة لم تقل كلمتها الأخيرة إلاّ قبيل الفجر. كان ذلك شبيهاً بكابوس. في لحظة واحدة قفز «ك» وقفز مارون، فالبعوض كان يطنّ في فضاء الغرفة ويرتطم بالجدران كجيش مجنون.

في دفاتر «ك»، وجد مارون وصفاً لبيوت لبنان القديمة. لم يتمكن مارون من قراءة اسم الكاتب. فهم فقط أنّه انكليزي، وأنّه أقام في لبنان خلال بدايات القرن الماضي. الكاتب الانكليزي وصف جدران البيوت في لبنان قائلاً إنها تبنى من حجر رملي يمتصّ الرطوبة على نحو فظيع محوّلاً البيوت إلى نوع من نباتات الفطر العملاقة. قرّر مارون أنّ الكاتب يبالغ.

Twitter: @ketab_n

في مكان آخر، يقول الكاتب الانكليزي: إنّ البيوت اللبنانية لا تعرف الزجاج. فقط قصر الأمير بشير في بيت الدّين وبعض قصور كبار القوم، عرفت الزجاج. وفي قصر الأمير بشير مرايا أيضاً تستخدمها النساء للتبرّج. كأنّ القصر بلاط أوروبي.

ابتاعت فيرونيك مرآة كبيرة قبل عامين. وحين رأى مارون ابنه طارق يتفرّج على وجهه منعكساً فيها تذكر أباه. روى الأب لمارون أنّ بيت جدّه كان أوّل بيت تدخله مرآة في الأشرفية. وحين سمع «ك» هذه الحكاية ظلّ صامتاً. لم يتكلّم عن آل سرسق، ولم يقل شيئاً.

وها هو الآن يقرأ الدفاتر فيكتشف كذبة أبيه البيضاء.

كانت نوافذ البيوت تزود بالأباجور الخشبي والمغاليق المتينة. وخلال فصل الشتاء، حين تشتد العواصف برياحها وأمطارها، كان على الأهالي إغلاق درفات النوافذ لإبعاد الصقيع. هذا الأمر كان يعني وصل الليل بالنهار، طوال الفترة التي تخيم فيها العاصفة.

كتب «ك»: «كانوا يضيئون القناديل التي تعمل على الكاز، أو زيت الزيتون، في أوقات محدّدة: عند الترويقة أو الغداء أو العشاء مثلاً. ومن يملك الجرأة كان يغادر بيته لزيارة جاره. وفي هذه الحالة، وبسبب من تراث وتاريخ طويل في الشهامة العربية وأصول الضيافة البدوية، الجار يضطر إلى إشعال القنديل لتكريم ضيفه».

قرّر مارون أن «ك» يبالغ. لقد أخبره أبو مارون أنّ الجيران كانوا يتعاونون في الشتاء على جرف الثلوج عن سطوح بيوتهم، ومن أمام الأبواب. وحتّى في عام ١٩٢٠، حين غطّى الثلج بيروت، وحطّم أشجار الزيتون في صحراء الشويفات، وأغرق السفن الراسية قرب الشاطئ، حتى في ذلك العام الذي شهد إعلان الجنرال غورو الفرنسي لدولة لبنان الكبير، ظلّت النّاس قادرة على مواصلة حياتها اليومية.

يشعل مارون سيجارة. يقوم إلى البرّاد. يخرج قنينة بيرة. يشرب البيرة المثلجة، يدخن، ويقرأ عن الأسكيمو.

Twitter: @ketab_n

«أتساءل كيف يعيشون هناك. في تلك البيوت التي يصنعونها من الثلج لعزلها عن البرد. إنهم يشعلون النّار داخل بيوتهم الثلجية، وهذه البيوت لا تذوب بسبب من الصقيع الشديد. لكن أنفاسهم، ألا تتراكم على الجدران؟ وكيف لا تخنقهم؟

«سؤال ثانٍ يحيّرني دائماً: كيف ينام بعضهم مع بعض في ذلك البرد المرعب؟ والذي يجرؤ على خلع ثيابه، ألا يتجمّد فوراً؟»

«برغم هذا، أجد حياتهم رائعة. الليل عندهم قد يمتد طوال نصف سنة، أليس هذا بديعاً؟ وكيف يصنعون حفرة في قشرة النهر المتجمّدة، وينزلون الصنّارة في الحفرة لاصطياد الأسماك!!»

ويضحك مارون...

قبل الحرب صعد مع «ك» إلى جبل الباروك. هناك، في منطقة من الغابات تسمى «دلبون»، كمنا في معبر ضيق لاصطياد طيور الحجل البريّة. كانت الشمس تغيب، وكان البرد قارساً.

نادى مارون على «ك» من خلف الصخرة البعيدة: «اسمع، إذا أطلقنا النار معاً على حجلة واحدة كيف نعرف من أصابها؟.

أجاب «ك»: إذا لم تسدّ بوزك لن نطلق النار إلاّ على الهواء.

هتف مارون: يستطيع بعضنا أن يطلق على بعض.

«ك» اصطاد حجلة واحدة، ومارون أطلق على حجلتين، فكاد يصيب «ك».

في الطريق إلى بيروت، كانت سيّارة ثريا اليابانية الصغيرة تهتزّ مرتجفة.

مارون: يا لها من طريق! ما هذه الحفر؟

«ك»: هذه الحفر يصنعها أمثالك من الصيادين.

مارون: لا، لست صيّاداً جيّداً. لقد أطلقت عليك مرّتين، وفي المرّتين أخطأتك.

«ك» يضحك ومارون ينظر إلى الحجلة التي تستقر قرب قدمي «ك».

Twitter: @ketab_n

قال «ك»: هل تعلم أنّ حروب لبنان بدأت بسبب طير كهذا الطير؟

أجاب مارون: أخبرتني ذلك مليون مرّة.

قال «ك»: سأخبرك بماذا يتفوّق علينا أهل اليونان. إنّهم فقط أكثر إنسانية. الحجلة لا يمكن أن تصنع الحروب بينهم، وحدها المرأة تصنعها.

قال مارون: لو كنت أنا من اصطاد هذه الحجلة، هل كنت تحوّلت إلى مؤرّخ ضخم وفيلسوف؟.

بعد أقلّ من شهر اصطحب مارون «ك» إلى بيت قريب له في البترون.

قال مارون: الآن نكتشف من منا هو الصيّاد.

كان قريب مارون أصغر منهما بسنتين. قال إنّ السمك يكثر في هذه الفترة من السنة.

مارون اصطاد السمكة الأولى، وميشال اصطاد الثانية، و«ك» اصطاد الثالثة. وانفجرت رعود السماء فجأة، وهطل المطر بغزارة.

في الشاحنة القديمة، كان «ك» مضغوطا بين الاثنين، فقال لهما إن العاصفة سرقت منه سمكة كانت عالقة بصنّارته.

وأطلق قريب مارون ضحكة بذيئة.

شرح مارون لـ«ك»: في البترون تطلق كلمة صنارة على العضو الجنسي عند الرجل.

في بعض الليالي، كان مارون يفتح الراديو على إذاعة لندن، أو إذاعة مونت كارلو، أو إحدى الإذاعات المحلية. كان يسكب لنفسه كأساً من النبيذ أو الويسكي ويضع الدفاتر جانباً وينظر إلى الخزانة القديمة محدّقاً في خشبها المتشقّق ويفكّر في «ك».

في إحدى المرّات، تساءل «ك» في الدفاتر: «الخزانة التي في غرفتي، هل صنعت من أخشاب كانت بقايا من نافذة الغرفة التي عاش فيها كريمسكي قبل أكثر من مئة سنة؟»

Twitter: @ketab_n

كان كريمسكي يعيش في غرفة استأجرها في بيت يوسف عطايا. كانت الغرفة باردة ورطبة. وزوجة يوسف عطايا كانت تقدّم لكريمسكي الحساء الساخن بعد «تصفيته» من قطع اللحم. كان كريمسكي دائم الحنين إلى دفء البيت البعيد، وإلى مأكل أخته الشهية. وكان يمشي أحياناً حتى التلال القريبة من بيروت ليتفرّج على أشجار اللوز المزهرة.

في رسالته الأولى من بيروت، والمؤرّخة في الأوّل من تشرين الثاني ١٨٩٦، يكتب كريمسكي: «أصحاب الدار فقراء يسكنون بيتاً متواضعاً أرضه حجرية. لقد عاودني الروماتيزم وامتدّ إلى يدي اليسرى وظهري. الطقس حارّ في الخارج، والعرق يتصبّب من جسدي فأدخل الغرفة بأرضها الباردة ونافذتها المشرّعة للهواء، وتكون النتيجة: الروماتيزم لي... والرطوبة العفنه للكتب».

يفكّر مارون أن «ك» كتب كلمات مشابهة في الدفتر الثاني أو الثالث. ويقف ويقوم ببعض التمارين الرياضية. إنّه يشعر بألم خفيف في كتفه وظهره.

في بيروت اكتشف كريمسكي أنّهم «هنا لا يشربون الشاي». النّاس في بيروت تشرب فنجاناً من القهوة عند الصباح. وهكذا تضاعفت وحشة كريمسكي المدمن للشاي. في البداية، بحث عن الشاي في الأسواق، وخلال بحثه أرسل إلى ماشا وأهله يطلب منهم أن يرسلوا عدّة تحضير الشاي. لم يجد شاياً، فقد الأمل. في ٥ كانون الأوّل ١٨٩٦ كتب إلى أهله: «لا حاجة بكم إلى إرسال السماور، فقد نسيت عادة شرب الشاي، وأنا محروم منه. وفضلاً عن ذلك، ليست الصعوبة في السماور، بل في الشاي نفسه. إنّه لا يباع في بيروت لأنّ النّاس يشربون نوعاً من العشب الذي لا أعرفه ولم أستطع تذوّقه».

لقد قضت جدّة «ك» الأيّام الأخيرة من حياتها تأكل الجبن، وتشرب الزهورات أو اليانسون. وكان الجدّ يذهب بنفسه إلى الحقول القريبة ليقطف لها أنواع الأزهار المختلفة. وذات مرّة، بينما كان يتسلّق إحدى الأشجار، سقط وكاد يكسر ساقه.

Twitter: @ketab_n

حين كان مارون صبيّاً صغيراً، كان يصاب بالرشح عند بداية كلّ شتاء. وكانت أمّه تضعه في السرير، وتشعل «كانون» فحم قرب بوّابة الغرفة. وكل أربع أو خمس ساعات، كانت تنهض إلى المطبخ وتحضر الإبريق القديم وعلبة التنك المليئة بأصناف الزهور العطرية اليابسة. كانت تملأ الإبريق بالماء وتضعه فوق المنقل. كانت تحرّك الجمرات وتنتظر غليان الماء. وكان، هو، يراقبها من الخلف وينتظر. حين يغلي الماء، كانت الأم تضع حفنة من الزهورات في الابريق، ثم تبعده قليلاً عن النّار. ويستقرّ الإبريق فوق زاوية الكانون ويغلي بهدوء، حتى يتصاعد البخار وتغمر الغرفة رائحة عطرية فوّاحة. وحين تسكب أمّه الزهورات المغلية في الكوب، كان ينظر إلى الضوء منعكساً على سطحه، ويبتسم لأمّه. يكون البيت فارغاً إلاّ منهما، الأب في العمل، وجورج وفريدة في المدرسة.

في الدفتر الرابع، بتاريخ ٢ كانون الأوّل ١٩٨٦، يكتب «ك»: «حياتي ليست هادئة تماماً، فمنذ شهر لم ينزل المطر، والحرّ شديد، صحّتي جيّدة ولكن قلبي ليس على ما يرام».

تذكّر مارون أنّ «ك» كتب له في إحدى الرسائل كلاماً مماثلاً. على هامش الصفحة ذاتها من الدفتر الرابع. قرأ مارون هذه الملاحظة: «انظر» كريمسكي، الصفحة ١٣٢».

فتح مارون الكتاب المستقرّ على الطاولة قربه. في وسط الصفحة خطٌّ أحمر، قرأ: «حياتي في بيروت ليست هادئة تماماً، فمنذ شهر لم ينزل المطر والحرّ شديد، صحتي جيّدة ولكن قلبي ليس على ما يرام». كتب كريمسكي ذلك في ٢٧ كانون الأوّل ١٨٩٦.

كان كريمسكي يعيش على مسافة ثلاثة أرباع الساعة من الجامعة الأميركية سيراً على الأقدام. وكانت الجامعة، آنذاك تسمى «الكلية الأميركية». قام «ك» ببعض الحسابات، مستخدماً خريطة لبيروت وجدها في أحد الأطالس، فوجد أنّ بمقدوره أن يصل إلى بيت يوسف عطايا في أقلّ من نصف ساعة مشياً، وفي خمس دقائق بالسرفيس.

Twitter: @ketab_n

أغلق مارون الدفتر، قلبه يؤلمه.

ذات مرّة، حلم «ك» أنّه يستيقظ على رنين جرس الباب. حين ينهض ليفتح الباب يتعثّر بمشايته. وقبل أن يفتح الباب يتصور أن القادم هو مارون، وأنّه عاد من فرنسا. لكنّه حين يفتح الباب لا يجد نفسه إلاّ أمام هواء بارد سرعان ما يتكاثف متحوّلاً إلى تمثال من البخار يحمل وجهاً أشقر يدرك «ك» أنّه يخصّ كريمسكي.

أغلق مارون الدفتر، رأسه يؤلمه.

بعد سنوات طويلة، في عامي ١٩٩٠ و١٩٩١، تبدّلت أحلام «ك». بات يرى نفسه رجلاً عجوزاً، كأنّه المرحوم جدّه. يكون دائماً جالساً على مصطبة بيت حجري، في يده الغليون، وقبالته قرية يزيّن سقوفها القرميد الأحمر. هذا الحلم ينتهي على نحو فظيع: تتساقط أمطار غزيرة ويذوب القرميد الأحمر كلوح شوكولاتةٍ منسيٍّ تحت أشعة الشمس. تتحوّل القرية إلى كتلة من الوحل، وتنهار المصطبة تحت «ك»، ويسقط في ظلمة ليس لها قرار.

في نهايات ١٩٩١ توضّح المنام. أدرك «ك» أنّه لا يشبه جدّه العجوز، بقدر ما يشبه جرجي الحماني، والد اسكندر الحماني، كما وصفه يوسف حبشي الأشقر في الفصل الخامس من رواية «الظلّ والصدى».

على الرفّ الثالث من المكتبة نسختان من رواية «الظلّ والصدى». واحدة صفراء، والأخرى جديدة مازال غلافها يلمع. اختار مارون النسخة الجديدة.

في إحدى ليالي ذلك الأسبوع الأوّل، ليلة الجمعة ١٢ تشرين الثاني ١٩٩٣ على التحديد، وقرابة الساعة العاشرة والثلث، انتاب مارون جوع شديد. توقّف عن القراءة وقام إلى المطبخ. فتح علبة من البازيلاء المسلوقة وأفرغها في المقلاة. وفتح علبة من لحم الضأن ثم أشعل الغاز. أحسّ بالبرد. عاد إلى الغرفة وارتدى المعطف فوق البيجامة.

في المطبخ أمسك ملعقة وأخذ يقلّب اللحم وحبوب البازيلاء.

Twitter: @ketab_n

كانت الرائحة الشهية تزكم أنفه، وفجأة، ارتجفت الأرض تحت قدميه وكادت المقلاة تسقط. وارتجت البوّابة الزجاجية ثم هدأ كلّ شيء.

في السرير التهم مارون الطعام الذي أعدّه، ثم فتح قنينة نبيذ جديدة. وضع في المسجلة كاسيتاً لكريس دي بيرغ وتَرَكَ جسده يتراخى. قرابة الثانية فجراً استسلم للنوم.

صباح اليوم التالي، وكان نهار سبت، فتح الراديو. وبعد أغاني فيروز بثّت الإذاعة الخبر التالي: «ضربت لبنان البارحة هزّة أرضية بقوّة ٤ درجات. الهزّة حصلت بعد العاشرة والنصف ليل أمس، وشعر بها المواطنون في بيروت وكافة المناطق، فاهتزّت الأبواب، وارتجّت النوافذ طوال خمس ثوان. وكانت الهزّة أقوى في المناطق الساحلية لأنّ مركزها كان في البحر، بالقرب من قبرص».

ذكرت الإذاعة أيضاً أنّ النوافذ تحطّمت في بعض مناطق قضاء المتن.

أعدّ مارون إبريقاً من الشاي، وأزاح الستائر قليلاً. كان قد اشتاق إلى ضوء الشمس، وراه يسقط على البلاط ويرسم مستطيلاً طويلاً نصفه يتسلّق المكتبةَ مكسوراً.

أشعل سيجارة وجلس على حافّة السرير. نظر إلى صورة البيت الأبيض الملصقة إلى يساره، وتخيّل هزّة أرضيّة تضرب البلدة المغطّاة بالثلج، ثم رأى «ك» راكضاً بين الجدران والحجارة.

كان الأمر خارقاً. فجأة انبثقت الفكرة داخل رأسه كأنها شمس، وأحسّ الضوء الحارق خارجاً من عينيه: من المؤكّد أنّه يخفي نفسه في ضيعة بعيدة!

مضت الدقائق، انطفأت الفكرة كعود كبريت.

لكن الفكرة عادت بعد أيّام قليلة. حصل ذلك عصر نهار الاثنين ٢٢ تشرين الثاني، أي في اليوم الأوّل من الأسبوع الثالث، وكان مارون قد انتهى للتوّ من قراءة «الظلّ والصدى».

Twitter: @ketab_n

أخذ مارون يتساءل: بلدة كفرملاّت هذه التي يجعلها يوسف حبشي الأشقر بلدة اسكندر وانسي ويوسف وأسمر وأسد، هل هي نسخة خيالية أصلها بيت شباب، بلدة الكاتب، أم هي بلدة أخرى موجودة في لبنان حقّاً؟

تصفّح الدفاتر مسرعاً، عثر على المقطع الذي يفتّش عنه في الدفتر الأخير. كتب «ك» في ٢٠ آذار ١٩٩٢: «اليوم عيد ميلادي الواحد والأربعون، فإذا كان لي أن أتمنّى شيئاً، فإنّي أتمنّى أن أعيش في بلدة كفرملات».

في مكتبة «ك» موسوعة خاصة بالمدن والقرى اللبنانية، أسرع مارون إليها وقلبه يخفق بقوّة. شيءٌ مّا في داخله كان يقول له إنّه قد عثر على الطريق الصحيح أخيراً. شيءٌ ما في داخله كان يقول له إنّه سيعثر على «ك» في نهاية تلك الطريق.

في الجزء الثامن من «موسوعة المدن والقرى اللبنانية» التي ألفّها عفيف بطرس مرهج، والمنشورة في أوائل السبعينات، عثر مارون على عشرات القرى التي تشكّل كلمة «كفر» القسم الأوّل من أسمائها المركبة. وجد أيضاً قرية تدعى الكفر.

فتح المجلّد السميك على الصفحة ٣٥٧، وأمسك قلم رصاص.

«الكفر، من محافظة جبل لبنان، قضاء جبيل، ترتفع عن سطح البحر ٤٥٠م، تبعد عن بيروت ٥٠ كلم، عدد سكانها ٤٠٠، عدد منازلها ٤٥، تصل إليها عن طريق جبيل – إدّه – كفرمسحون – دملص – الكفر.

«أصل اسمها KFAR ومعناها القرية والضيعة والدسكرة. والجذر السامي المشترك «كفر» يفيد أصلاً التغطية والإخفاء، وسميت القرية بـ«كفر» لأنّها حصن وملاذ ومخبأ».

كان مارون يرتجف. أخرج من المكتبة الجزء التاسع. فتحه على الصفحة الأخيرة، على الفهرست. تماماً كما توقّع: هذا الجزء أيضاً يحتوي في بدايته على أسماء بلدات تبدأ بكلمة «كفر». بين هذه الضيع وجد، مثلاً، ضيعة كفرنبرخ حيث ولد «ك».

Twitter: @ketab_n

لكن ذلك كان كلّ شيء. قرابة الثمانين بلدة الجزء الأوّل من اسمها هو كلمة «كفر»، وليس بينها بلدة واحدة تشكّل كلمة «ملات» القسم الثاني من اسمها، أحسّ مارون فجأة بعجز لا حدود له.

شغّل الراديو، وجلس وسْط السرير ملتفاً ببطانية «ك». مدّ ذراعه وتناول رواية «الظل والصدى» عن الطاولة القريبة. كان قلبه ثقيلاً، ومذاق اللعاب كان مرّاً فوق لسانه.

صعد يوسف إلى كفرملات. يوسف في الحبس الذي اختاره طوعاً، يتذكّر ويكتب أنّه صعد إلى كفرملات.

كان ذلك قبل الحرب بقليل، في نهايات عام ١٩٧٣. وفي كفرملات التقى بشربل. وشربل الذي يقوم بتدريب الشباب على حمل السلاح الذي يشتريه أسمر، شربل الذي يدرس الحقوق في الجامعة اللبنانية والذي يحبّ الشعر ويرى في البندقية شاعرية كشاعرية السيف، والذي يكره المدينة ويجد الوطن أيضاً شاعرياً، شربل هذا سيقول ليوسف إنّه يحارب لمكانه، لعائلته، لمنطقته، لطائفته، أي لجذوره، وبعد ذاك للصورة التي في ذهنه لبلاده.

آنذاك كان يوسف يستعد للدخول إلى الجامعة. وفي كفرملات أخذ يتجوّل مع شربل. أخذه شربل إلى بيت أسمر، وهناك اكتشف يوسف سبباً آخر يدفع شربل إلى حمل السلاح، إنها زوجة أسمر.

يوسف يرى في علاقة الحب بين شربل وزوجة أسمر صورة تشبه علاقة يريدها مع مارت. وبعد بيت أسمر سيأخذ شربل يوسف إلى بيت اسكندر.

بعد حرب السنتين، في السجن، كتب يوسف: «بيت اسكندر في كفرملات يشبه من بعيد بيته في بيروت». قلت عندما لمحته: لو أنّي لم أكن أعرف أنّ هذا البيت بيته لعرفت أنّه له.

«التصوينة عالية طويلة، تَصُون مرجاً انبتته الطبيعة. أرضه سهّلت وزرعت عشباً أخضر محلوقاً. داخل التصوينة كلاب غريبة،

Twitter: @ketab_n

مختلفة الأنواع والأحجام، تنبح وتقفز، ترافق مشينا، وتسبقه ثم تعود».

قلت لشربل: هل يسكن أحد البيت؟

قال: الجنيناتي يسكن الطبقة السُفلى.

– والبيت؟

– لا.

– مقفل؟

– مبدئياً.

الرجل الذي كان ينسّق الزهور اسمه نمر. لقد رحّب بهما وهو يصفّر للكلاب كي تبتعد.

يسأل يوسف شربل: هل يأتي اسكندر الحماني كثيراً إلى كفرملات؟ فيجيب شربل: يأتي نادراً وعندما يأتي، يأتي في الليل ويذهب في الصباح».

– مع مارت؟

– لا.

– وقبل ذلك؟

– كان يأتي في الصيف، صيفين أو ثلاثة أتى ثم غاب.

– وأتى مع مارت؟

– مع مارت.

ويسأل يوسف أيضاً: هل كان يختلط بأهل الضيعة؟.

فيجيب شربل: لم يكن يفتّش عنهم، الذي يأتي إليه يستقبله. قد يكون ذلك بسبب مارت، أعتقد أنّه يقول في نفسه: الذي يقبلني يأتي إليّ.

ويسأل يوسف: كان يستقبلك؟

فيجيب شربل: كان يقُبلني وارافقه، لا يتكلّم كثيراً، أحياناً يبتسم لي، من دون ممالأة. ينظر إليّ طويلاً، يدعوني إلى الغداء ببساطة.

Twitter: @ketab_n

– وبعد ذلك؟

– بعد ذلك فقدته، لم أستطع أن أقيم معه حواراً. تحزره فقط. صمته يقتلك.

يوسف وشربل يصعدان، ونمر يمضي لتحضير القهوة.

المدخل كبير، بلاطه أسود، خلفه تماماً صالونات ثلاثة، مفتوحة واحدها على الآخر... الصالونات كبيرة، اثنان منها خاليان. الثالث الذي صوب الشمال فيه مقعدان عربيان قديمان، عليهما فرشتان ومساند من القشّ، يعلوهما شرشفان من الديما، قديمان أيضاً. أمام المقعدين، طاولتا سكاير عاليتان، والبلاط الجميل مفروش عليه بساط عارٍ.

– بيت خال!

– لا! هذا هو فرشه.

– لم أفهم.

– لم يفهم أحد. هذان المقعدان والبساط وطاولتا السكاير كلّها أتى بها من بيت أبيه الذي صار لأخيه. أخوه متزوّج، له أولاد، بيت العيلة يبقى للذريّة. كلّ ما طلبه من أخيه هو هذا الفرش وسريره القديم.

مع القهوة، يحكي نمر: السنة الماضية أتى اسكندر أواخر حزيران نصف الليل، لم يدخل البيت، قعد تحت الصنوبرة. صباحاً أحضرت له القهوة إلى غرفته، فلم أجده. كان نائماً حيث قعد، ظننته سكران أو محشّشاً أو ميتاً. هززته، فتح عينيه، تطلّع بي دون تعبير ثم أغمضهما وقال: ارجع إلى البيت يا نمر، لا تخف عليّ.

بعد أن قاموا ومشوا، قال شربل ليوسف: نمر يشفق على اسكندر. وسمع يوسف كلمات شربل، فيما صورة غرفة اسكندر تتكرّر داخل رأسه: السرير الحديدي عال مدهون أسود، ناموسيّته تتدلّى من عُمُده الأربعة. الكرسي القشّ قرب السرير. المغسلة القريبة يستقرّ فوقها إبريق وطشت. المرآة المغبّشة فوق المغسلة.

Twitter: @ketab_n

والمصباح الواطئ يتدلّى من سقف الغرفة بشراريب من الخرز المتدلّي من تارة نحاسية.

كتب «ك»: «كيف لم يفهم يوسف؟ اسكندر لم يَبْنِ ذلك البيت كي يكون قلعة أو قصراً، بل لم يبنِه كي يكون ملاذاً له. لقد بناه ليكون فقط ملاذ حلمه ببيت آخر. أي بيت؟ بيت الطفولة، البيت المفقود، البيت الأخير».

توقّف مارون عن القراءة. الراديو يبثّ الموسيقى السابقة للنشرة الإخبارية. أغمض مارون عينيه. رأى «ك» جالساً على شرفة بيت بعيد. البلدة هادئة، والسماء دافئة وزرقاء.وحين تتساقط الأمطار ينزل «ك» إلى القبو ويجلب حطباً ويشعل النار. وفي الليالي العاصفة، يقف وراء النافذة ويراقب البرق يرسم رقعاً من الضوء الأزرق فوق الحقول.

أشعل مارون سيجارة. أذاع الراديو خبر وفاة الرسّام بول غيراغوسيان أمام بوّابة بيته الريفي.

Twitter: @ketab_n

٢

ولد يوسف حبشي الأشقر في بلدة بيت شباب، في قضاء المتن، محافظة جبل لبنان، في ٢٥ شباط عام ١٩٢٩. كان إذن من برج الحوت، مثل اسكندر الحماني، ومثل «ك». اسكندر الحماني ولد في ١٩ شباط، وهو اليوم الأوّل من أيّام هذا البرج، و«ك» ولد في ٢٠ آذار، أي اليوم الأخير من أيّام برج الحوت.

عاش يوسف بين أهله في بيت شباب حتى عام ١٩٤٤. ففي تلك السنة، وكان مايزال في السادسة عشرة من عمره، نزل إلى بيروت ليدرس الحقوق في جامعة القدّيس يوسف. واختار أن يقيم في بيت عمّته وزوجها وأولادها.

في مقابلة نشرتها مجلة «الوسط» في شهر نيسان من عام ١٩٩٢، قرأ «ك» أنّ يوسف حبشي الأشقر كره المدينة وكره العيش فيها آنذاك.

مارون وجد المجلّة المذكورة في مكتبة «ك».

«... في أيام الآحاد كنت أذهب إلى السينما وأتسكّعْ في شوارع المدينة مع رفاق الدراسة. وما أتذكّره من بيروت الأربعينات أنّها كانت أحياءً كبيرة شبه مقفلة على ساكنيها الذين كانت طفيفة ومحدودة صلات بعضهم بالبعض الآخر. وهذا ما بدأ يرسخ في وجداني نفوري من حضارة المدينة وعالمها، وشغفي بحضارة الحياة القروية وبساطتها».

عام ١٩٥٠، ترك يوسف بيت عمّته وانتقل إلى غرفة في شارع

Twitter: @ketab_n

مونو. هذه الغرفة كانت أقرب إلى الجامعة، ولقد استأجرها يوسف مع صديق له يدعى جورج سكاف. في هذه الغرفة الصغيرة، التابعة لمنزل امرأة عجوز، عاش يوسف وصديقه حتى عام ١٩٥٣. وصباح كل يوم، كانت المرأة العجوز تطرق عليهما الباب كي يستعدا لطعام الفطور. الوجبة الصباحية كانت لبناً أو جبناً، مع زيتون وشاي. وطعام الغداء كان حساءً ساخناً مع يخنة خضار لا لحم فيها. والعشاء كان رغيفاً بزيت وصعتر أو بمربّى الدرّاق.

ومغسلة الغرفة كانت قديمة ومشقّقة مثل تلك المغسلة التي وصفها أ. كريمسكي في رسائله إلى أخته ماشا.

يترك مارون السرير إلى الحمام: المغسلة التي كانت بيضاء قبل زمن بعيد، لونها الآن مغْبَرّ أسود. حافتها مكسورة، بسبب الباب الذي يطرقها كلّما تحرّك، قعرها ملطّخ بالبقع. مارون يعود إلى السرير.

بعد عام ١٩٥٣، نزل أهل يوسف إلى بيروت، أقاموا في الأشرفية ثم استقرّوا في الجميزة. حمل يوسف أغراضه وترك تلك الغرفة الرطبة والباردة في شارع مونو ومشى حتى بيت أهله. في ذلك النهار، ولحظّه السيّئ، كان الترامواي معطّلاً.

لم يعد عنده مشكلة مع الطعام. عمله كموظّف مياوم في وزارة البرق والبريد والهاتف كان يؤمّن له مصروفه اليومي. في تلك الفترة أدمن التدخين. كان معاشه مائة ليرة لبنانية في الشهر، وكان يشتري علبة اللاكي سترايك بـ١٤٠ قرشاً، فيبقى في حوزته ما يكفي للذهاب إلى السينما أو ارتياد المقاهي.

أما اسكندر، الذي كان طالباً في تلك الفترة ذاتها في بيروت أيضاً، فلم يكن مستعدّاً لصرف ماله على بطاقة سينما. كان يحلم بيوم يصير فيه غنيّاً، وكان يجمع القروش قرشاً فوق قرش. كانت ميرا تشتري له بطاقة السينما.

بعد أن انتهى يوسف من الدراسة الجامعية. انتقل إلى العمل في وزارة العمل والشؤون الاجتماعية، ومن ثمّ إلى الضمان

Twitter: @ketab_n

الاجتماعي حيث بقي موظفاً حتى موته في آب ١٩٩٢. وكان قد قرّر أن لا يغرق في عالم المحاماة خوفاً من أن تصرفه عن الكتابة.

بعد أن طُرد «ك» من جامعة القدّيس يوسف، التحق بالجامعة اللبنانية، فلحق به مارون، واستمرّ ذلك حتى عام ١٩٧١. خلال هذه الفترة تحول مارون إلى دراسة العلوم السياسية، متابعاً في الوقت نفسه صفوفاً في مدرسة الآداب العليا. كما بدأ يعمل في الصحافة، وينشر تحقيقاته في صحيفة «لوريان – لوجور».

في الجامعة اللبنانية، أهمل «ك» الدراسة تماماً. باتت المواد التي يدرسها تسبّب له صداعاً. لم يعد يقرأ كثيراً أيضاً. انصرف إلى المشي نهاراً، وإلى التدخين وشرب النبيذ ومشاهدة الأفلام السينمائية ليلاً.

كان «ك» يعلم أنّ المال ليس مشكلة. فجده حفيد سلالة إقطاعية عرفت كيف تحافظ على أراضيها.

لم يكن أهل اسكندر ولا أجداده أثرياء، لكنه ورث ابن خالته الذي مات في أفريقيا. وبالثروة التي ورثها اشترى عقارات قريبة من خطّ الساحل، وبعد نهضة العمار التي شهدها لبنان خلال الخمسينات والستّينات، تحوّلت أراضي اسكندر إلى منجم من الذهب. وبالثروة التي جاءته صدفة ابتاع اسكندر في شارع بُلِسّ البيت المقابل للبناية التي تقطن فيها ميرا.

ذلك البيت الذي يشبه قصراً مهجوراً، كان حلم اسكندر في أيام الفقر. لقد اشترى اسكندر حلمه بالمال، وأحضر نصّار من كفرملات كي ينظّم له الحديقة. ونصّار أحضر معه كلباً يحرس البوّابة.

في هذا البيت الواقع عند نهاية شارع بُلِسّ عاش اسكندر وحيداً. فيما بعد، سافر إلى فرنسا فالتقى مارت وعادا معاً، وعادا إلى البيت ذاته، بيت شارع بُلِسّ، وفي هذا البيت عاشا أيّام الحبّ والوحدة حتى جاءت الحرب.

Twitter: @ketab_n

حين سافر اسكندر إلى فرنسا آنذاك، كانت مها ماتزال تقيم تحت جلده. تباعد اسكندر ومها لأنّ رجلاً ميتاً كان يقف بينهما. ذلك الرجل، معلم اسكندر وصديقه، مات وهو لا يفهم كيف تستطيع امّه أن تتركه وحيداً، فقط كي يكون لها زوج. مات فداءً، وأخرجوه من البحر منتفخاً بالمياه، وفي موكب جنازته مشى الأصدقاء. كان ذلك عام ١٩٥٧.

بين الأصدقاء كان خليل الذي ستقتله الحرب بعد عشرين سنة. قال خليل: «سأسمّي ابني باسمه... سأغيّر اسمه الليلة، سأوقظه ولو كان لا يعرف اسمه بعد وأهزّه وأناديه: يوسف، يوسف، وأخبره طويلاً عن لا أخلاقية الحياة وحياد الكفارة».

هرب اسكندر من مها ومن وجه الغائب إلى مارت وجسد مارت. مارت جلبت هدوءاً مؤقّتاً إلى اسكندر.

وتذكّر مارون ثريا.

كان والد ثريا صاحب وكالة «كوداك» في لبنان. احترقت مخازنه، فخسر الوكالة. استخدم المبلغ الذي ناله من شركة التأمين وفتح متجراً صغيراً في عين الرمّانة. التقى مارون ثريا خلال سنته الأولى في جامعة القدّيس يوسف. وفي تلك السنة تمكّن والد ثريا من فتح فرع آخر لمتجره في فرن الشبّاك.

كان مارون يرى ثريا كلّ صباح في المقهى القريب من الجامعة. وكان المقهى بمثابة كافيتريا خاصة بالطلاّب. كان مارون يحب هذا المكان: موسيقى الروك الصاخبة، ورائحة البيرة الممتزجة برائحة الدخان، ورائحة المكسرات ورائحة المخلّلات. وفي يومي الأربعاء والخميس كان صاحب المقهى يقدّم البسطرما التي يصنعها بنفسه وفق وصفة أرمنية تتوارثها العائلة منذ أيّام أرمينيا القديمة.

كان «ك» نادراً ما يأتي مع مارون إلى هذا المكان. كان يكره الزحمة. هو قال لمارون إنّه يحسّ كأنّ الذين حوله يسرقون الهواء من أمام أنفه ويفرغون رئتيه من الاوكسيجين.

Twitter: @ketab_n

– يا كاره البشر، قال مارون.

كان مارون يأتي إلى هذا المقهى وحده أو مع بعض الأصدقاء. وكان دائماً يرى ثريا في الزاوية، تدخن السجائر دون توقّف، وتشرب القهوة أو البيرة، وأمامها كتاب مفتوح. مارون آنذاك لم يكن يعرف عنها شيئاً. لا اسمها، ولا اختصاصها، ولا أيّ شيء آخر.

ذات مساء وصفها لـ «ك»، فضحك «ك» وقال إنّ مارون كاذب، وأنّ قصة الكتاب المفتوح قرب المنفضة الطافحة بأعقاب السجائر قد تليق بالمنفلوطي ولكن ليس بشخص يعيش في بيروت، في النصف الثاني من القرن العشرين، فحلف مارون أنّه صادق فسأله «ك»: وماذا تقرأ الفتاة؟

– وكيف لي أن أعلم؟.

صباح اليوم التالي، وكان يوم أربعاء، ورائحة البسطرما تفوح فوق طاولات المقهى المكتظة، اقترب مارون من زاوية ثريا.

سألها ماذا تقرأ.

طلبت منه أن يجلس أوّلاً.

جلس مبتسماً.

قالت له إنّها أمس تحدّثت عنه مع صديقة لها، وأنّها تراقبه منذ أيّام.

دفع الحساب وغادرا معاً. في سيارتها قالت له إنّها لا تقبل أن يدفع عنها، وأخرجت مالاً من حقيبتها وأعطته ورقة من فئة الخمسين ليرة.

– ليس معي صرافة، قال مارون.

– في وقت آخر، في وقت آخر، قالت هي.

– لا، قال مارون.

سألته لماذا هو عنيد هكذا، وقالت إنّه لا يبدو تيساً، بل على العكس فهو يبدو جميلاً ولطيفاً كامرأة.

Twitter: @ketab_n

قالت ذلك بطريقة ساحرة، فابتسم مارون.

التقى اسكندر مارت في ملهى ليلي في باريس. كان متعباً ووحيداً. حاول مع مها لكنّه فشل. لقد كانت حبيبة صديقِهِ يوسف. مات يوسف، فأراد اسكندر أن يكون حبيب مها، وأرادت مها أن تكون حبيبة اسكندر. ففشلا مع مارت استعاد اسكندر نفسه. فمارت الفرنسية التي كانت تعمل في ذلك الملهى، اختارت أن يكون اسكندر بيتها ووطنها وعادت معه إلى بيروت.

ركضت الأيّام. تظاهرات ورصاص، دخلت بيروت السبعينات مترنحةً. قرّر مارون أن يترك دراسة الحقوق والعلوم السياسية. وفهمت ثريا أنّه يريد الذهاب. فقالت: «سأنتظرك».

سأل «ك» مارون كيف يستطيع أن يترك ثريا. قال مارون شيئاً عن الأفق فلم يفهم «ك».

سافر مارون كي يدرس الإخراج السينمائي في فرنسا.

عام ١٩٧٣، التحق «ك» لمدّة أربعة أشهر بفرع التاريخ في الجامعة الأميركية ببيروت. فتاة تكبره بعامين، وتدرس في الفرع نفسه قالت له وهما خارجان من الصفّ إنها لا تنام لحظة إلاّ وتحلم به.

قال لها «ك»: «استشيري طبيباً، أو خذي أسبيرين!».

استأجر غرفة في مبنى «البنروز» داخل حرم الجامعة. صادق مصرياً وأردنياً. صداقة مبنية على الكحول والسجائر الملغومة بالحشيشة. تحوّل إلى مدمن: أفيون وحشيشة وحبوب مورفين. المصري أخبر «ك» عن أستاذ يشتري منه الأفيون. اختار «ك» مادة يُدرّسها الأستاذ المذكور، رشاه بعلبة مورفين من الصنف الأوّل، وتمكّن من الحصول على معدّل النجاح دون أن يشتري كتاباً أو يخوض امتحاناً.

ثم حصلت الفضيحة: العميد جلود، من مكتب مكافحة

Twitter: @ketab_n

المخدرات، تمكن من انتزاع اعتراف صريح من طالب إيراني يدرس في قسم إدارة الأعمال: عصابة طلاّب فيليبنيين وإيرانيين ومصريين ولبنانيين، ثبت أنّها تروّج المخدّرات وتوزّع عملة مزوّرة من فئة الخمسين ليرة. المصري تمّ ترحيله إلى بلاده، «ك» لم يعرف كيف نجا، والأردني رمى نفسه من الطابق الثالث وكسر ساقيه كي لا يدخل السجن. سبعة طلاّب طردوا، واثنان منهم دخلا السجن.

قرّر «ك» أن يترك الجامعة. كان قد بلغ الثانية والعشرين من عمره. استخدم قراءاته القديمة، أدهش مدير مدرسة الاستقلال الكائنة في شارع المكحول، وأصبح أستاذاً لمادّة التاريخ. في تلك الفترة سكن في غرفة صغيرة ضمن بيت مكوّن من ثلاث غرف. ومن نافذة غرفته كان يستطيع في الأماسي الماطرة أن يراقب دخول النّاس إلى سينما الخيام وخروجهم منها.

في أيام الصحو، لا يعود إلى غرفته عندما ينتهي دوام المدرسة. ينزل إلى الكورنيش ويتفرّج على البحر. حين يجوع يتناول سندويشاً من الفلافل، أو يشتري كعكة بسمّاق ويأكلها مع فنجان شاي ساخن. المهمّ أن لا يبقى وحيداً في غرفته، المهم أن لا يعود إلى الحبوب.

مرّة واحدة فكّر بالعودة إلى الجبل، إلى بيت جدّه، ثم ضحك من نفسه. جدّته كانت قد فارقت الحياة بعد مرض طويل. دام عذاب الجدّة أمّ شوقي قرابة السنتين ونصف السنة. في البداية أصابها الشلل النصفي، وفي النهاية أذلّها الخرف وأذلّ الجدّ أبو شوقي معها. «ك» قرأ الخبر في صفحة الوفيّات. أما الجدّ أبو شوقي، فقد شكر اللّه، وهو يبكي، حين شهقت امرأته الشهقة الأخيرة. وقبل ذلك بليلتين كان يشتم اللّه لأنّه تخلّى عنهما.

وأدرك «ك» أنّه سيسقط مرّة أخرى. قرّر الاتّصال بثريا. حين رأته ثريا عانقته وبكت. أرادت أن تعرف أين اختفى هذه المدّة كلّها، سألته ماذا يفعل بأيّامه، قالت إنّ مارون يسأل عنه منذ أشهر، قالت إنها بحثت عنه في كلّ مكان، حتى إلى بيت جدّه صعدت.

Twitter: @ketab_n

قال «ك» إنّه لم يكن يعرف أنّ مارون قد رجع من فرنسا. ضحكت ثريا وقالت إنّه عاد في الصيف. قالت أيضاً إنّه بات مخرجا سينمائياً وأنّه يستعد لإنجاز فيلمه الروائي الأوّل وأنّه يريد من «ك» أن يعمل معه.

– أعمل معه؟

– طبعاً.

لم يعد «ك» قادراً على الكلام. كان قد اتّصل بثريا، وتواعدا على اللقاء في مطعم «الانكل سامز». خطّة «ك» كانت بسيطة، سيطلب من ثريا خدمة واحدة: أن تصعد إلى الجبل وأن تجلب له صناديق كتبه. ذلك أنّ «ك» أعاد كتبه إلى الجبل يوم ترك الشقّة في الصنائع.

قالت ثريا إنّها سعيدة جدّاً برؤيته، وقالت إنّ مارون سوف يطير من الفرح فهي لم تتمكّن بعد من الاتصال به لأنّه في الجنوب.

– في الجنوب؟

– نعم في الجنوب. في فيلمه، هناك شاب جنوبي يلعب دور البطولة.

– هل ستبدأ الحرب؟

لم تفهم ثريا سؤال «ك». و«ك» نفسه لم يفهم معنى لسؤاله. انتزع محرمة من العلبة المعدنية ومسح العرق عن جبهته. المطر يتساقط في الخارج، وهو يعرق هنا. وفكّر «ك» أنّه يقع، وأنّ ثريا ستنتبه.

وحده الحظّ أنقذه. قالت ثريا إنها تحتاج للدخول إلى التواليت لحظة. قامت، نظرت إليه نظرة مليئة بالشوق، ومضت صوب الباب الخشبي. نظر «ك» إلى السيجارة التي تركتها ثريا مستقرّة على حافة المنفضة، أخذها بسرعة، قام واقفاً، أسقط الكوب المليء بالويسكي، اندفع بين الطاولات، تجاوز النادل المذهول، وخرج إلى الشارع.

ركض تحت المطر. تلاشى الضوء. اشتدت الظلمة. كان مايزال

Twitter: @ketab_n

يركض. وجد نفسه في عين المريسة. وقف على الرصيف. سمع جلبة خلفه. كانت هناك شاحنة متوقّفة أمام باب كاراج مفتوح. وكان هناك عمّال ينزلون صناديق منها ويرصفونها في الداخل. وسيجارة ثريا كانت مطفأة ومبلّلة في قبضته.

تقدّم «ك» وأضواء العواميد تنير الأرض حوله. توقّف المطر. عبرت سيّارة خاصّة بقوى الأمن الداخلي. وقف «ك» متأملاً العمّال الذين انهمكوا في توضيب الصناديق داخل الكاراج. كان العرق يلمع على أيديهم وعلى وجوههم. ابتعد «ك» عنهم، كان جسده متصلّباً كلوح جليد، وحين أطلقت سيّارة عابرة بوقها أحسّ أنّ الصوت الحادّ قد صدّعه وأحاله إلى نثار.

كم سنة مرّت؟ عشرون سنة؟

طوال هذه السنوات لم يعرف مارون شيئاً.

مارون يحسّ نفسه صغيراً، يترك الدفتر، يجرع النبيذ من القنينة، وبطانية «ك» تلتفّ حوله كأنّه دودة في شرنقة.

Twitter: @ketab_n

الجزء الرابع

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١

خلال أسبوعه الثالث في غرفة «ك»، أحسّ مارون أنّه قد بدأ يفقد نفسه. كانت الأشياء تهرب منه كأنّ قوى خفية تجذبها بعيداً عنه. وخيّل إليه ان حياته ذاتها تنزلق من يديه الاثنتين كأنّها صابونة.

الجدران المبطّنة بالفلّين، والتي تحيط به، تحوّلت تدريجياً إلى جدران من ثلج كتلك التي يبنيها رجل الاسكيمو من حوله. وفكّر مارون أنّ هذه الجدران قد تنطبق فوق رأس الرجل عند أقلّ ارتجاج يصيب القشرة الباردة تحت قدميه.

مرّة أخرى فكّر مارون أنّ «ك» قد زوّد غرفته بهذه الستائر السميكة فقط كي يصل الليل بالنهار، كما لو أنّه بذلك يقوم بإلغاء الوقت. وتساءل مارون: هل إلغاء الوقت لا يعني الموت أيضاً؟

كانت مؤونته من الكحول توشك على النفاذ. كذلك مؤونته من السجائر ومعلّبات اللحوم. كيس الشاي كان قد فرغ تماماً ولجأ مارون إلى كيس المتّة، فغسل القرعة التي نما العفن فوق فوهتها، واستعاد أيّام شقّة الصنائع. بات طعامه الرئيسي حساءً يعدّه من الخضار المعلّبة. اقتصد في التدخين.

ذات صباح استيقظ بسبب من حكاك فظيع بين فخذيه. لم يغتسل منذ أيّام خوفاً من المياه الباردة. المياه الباردة تسبّب له طفحاً جلدياً. كان بمقدوره أن يسخّن بعض المياه لكنّه خاف أن تفرغ قارورة الغاز قبل انتهاء الأسبوع.

Twitter: @ketab_n

تخلص مارون من البيجامة التي يرتديها وانحنى على نفسه، فأفزعه المنظر. الجلد أحمر كأنّه تعرّض للنّار، والحبوب البنيّة الصغيرة انتشرت فوق خصيتيه. تذكّر مارون أنّه يرتدي بنطلون «ك» وبيجامته، وتذكّر أنّ «ك» كان يعاني دائماً من أمراضٍ جلدية. وتذكّر فيرونيك وخوفها الفظيع من الأمراض المعدية.

فوق رفّ الخزانة، عثر مارون على علبة الأدوية. قلب العلبة فوق السرير فوجد الأنبوب الذي يبحث عنه. طارق أيضاً يعاني من الأمراض الفطرية. حين قال مارون لفيرونيك إنّ «ك» مثله ردّت فيرونيك أنّ طارق ليس مريضاً. وبعد ذلك، حين هدأت، اعتذرت من مارون.

دخل مارون إلى الحمّام. غسل نفسه بيديه. نشّف جيّداً. عاد إلى السرير بعد أن تخلّص من بنطلون «ك». ضغط الأنبوب فخرج منه معجون أبيض. دهّن مارون البقع الحمراء بالمرهم، فاتحاً ساقيه. ثم وضع الأنبوب على الكومودينة قربه. انتظر قليلاً ثم ذهب إلى الحمّام وغسّل يديه. رأى في المرآة شعيرات ذقنه الطويلة. فكّر أنّه أصبح شخصاً آخر.

أخرج بنطلوناً حريرياً من حقيبته، ارتداه بدون سروال داخلي. ذهب إلى البوّابة وأزاح الستائر. السماء الزرقاء بدت له باردة. بحث بعينيه عن سرب الحمام الذي اعتاد رؤيته محوّماً فوق سطح إحدى البنايات المقابلة، فلم يرَ شيئاً. فكّر مارون أنّ الحياة قد توقّفت وراء الزجاج أيضاً.

في تلك الليلة، حين اكتشف مارون أنّ «ك» أدمن المخدّرات خلال إقامته في مبنى البنروز بالجامعة الأميركية، أحسّ أنّه لا يعرف صديقه، ولا يعرف العالم، ولا يعرف نفسه. كأنّ يداً ضخمة قد هوت فجأة على رأسه، وأفرغته من كلّ ما فيه.

أشعل القدّاحة، وضع إصبعه فوق الشعلة، صرخ من الألم. وجعلته الصرخة يبتسم. بلى، هناك أشياء مازال يعرفها، أشياء مازال يتصوّرها، وأشياء مازال يتذكّرها.

Twitter: @ketab_n

لكن الصباحات ظلّت تفزعه. يستيقظ لاهثاً ولا يعرف لماذا. يتذكّر آخر مشهد من الكابوس، ولا يتذكّر الكابوس كلّه. يتذكّر ثعباناً أو كلباً مسعوراً أو وادياً عميقاً، وينسى كلّ شيء رآه قبل أن يصل إلى ذلك المشهد.

قرّر مارون أن يكتب رسائل إلى فيرونيك، ورسائل إلى طارق ورسائل إلى ليلى. المهم أن يكتب. سيكتب لهم أيّ شيء. المهمّ استعادة التوازن. هذا الانقطاع عن العالم الخارجي، وهذه العزلة المُطْبقة سيدمّران حواسه. عليه أن يفعل شيئاً. حسناً، هو لا يملك هاتفاً هنا، لكنّه يستطيع أن يكتب بعض الرسائل، أليس كذلك؟

أمسك مارون قلم «ك»، فكّر أنّه لم يكتب رسالة لفيرونيك قط، ولا كتب لطارق، ولا لليلى. انتبه مارون إلى أنّه لم يكتب في حياته رسائل إلا لاثنين: «ك»، وثريا. أسقط القلم من يده، تخلّى عن حذره، فتح البوّابة الزجاجية، وخرج إلى الشرفة. خرج إلى الأصوات والبرد والرائحة. خرج إلى العالم.

لم يتحمّل ذلك. لم يفهم ما الذي حصل له. قارن فيما بعد بين الصدمة التي أصابته وتجربته الأولى في السباحة. نعم، كان خروجه إلى الشرفة أشبه ما يكون بعملية غوص خارقة السرعة.

كأن تَبَدُّلاً مفاجئاً في الضغط الجوّي قد قام بإفراغ صدره من الهواء، انكبست أضلاع صدره إلى الداخل، وأحسّ أنّها تضغط على قلبه وتسحقه. حاول أن يلتقط نَفَساً فسمع صوت الشهقة التي خرجت منه ورأى الفضاء يظلم أمامه.

كيف تمكّن من العودة إلى الغرفة، هل قفز، هل زحف، هل أرسل القَدَر ريحاً دفعته إلى الوراء؟ إنّه لا يعلم. مارون سيتذكّر فقط التيّار البارد الذي كان يغمر الشرفة كشلاّل، وتلك الرائحة القاسية التي دخلت إلى أنفه كقطنة مغمّسة في مزيج من الكحول والقاذورات السائلة.

Twitter: @ketab_n

حين كان صغيراً، كان يتعرض لنزيف شبه دائم من أنفه. عالجه الطبيب جوزف البستاني بكيّ أنفه. استغرقت العملية قرابة العشرين دقيقة. والد مارون هو الذي ثبّته إلى الكرسي. كانت هناك ممرّضة بدينة تمسك بعدّة الطبيب. التقط الطبيب ذلك العود الطويل المصنوع من الألمنيوم وثبّت قطنة في رأسه. فتحت الممرّضة قمقماً صغيراً وغمس الطبيب رأس العود فيه. رأى مارون القطنة تقترب من أنفه، حاول أن يبتعد برأسه إلى خلف. لكن الوالد كان يمسك به جيّداً.

لم يتمكن من إقفال البوّابة الزجاجية بإحكام، وصل إلى السرير وانطوى فوقه. الهدير الذي كان في رأسه أخذ يتلاشى، وكذلك البرد. والحريق في أنفه أخذ يتضاءل. ذات مرّة حصل لطارق أمر مشابه. كان قد انتهى للتوّ من الاستحمام حين هتفت له ليلى. أسرع طارق وكانت ليلى تقف قرب النافذة المفتوحة وتشير إلى سيّارة مكشوفة تعبر الشارع. كان مارون جالساً على الكرسيّ البعيد. فجأة سمع صرخة. رفع رأسه فرأى طارق راكعاً على الأرض وليلى تحدّق فيه ثم تصرخ.

تناول مارون حبتيّ أسبيرين، وأعدّ لنفسه ركوة من القهوة الثقيلة. جلس قرب آلة التسجيل ووضع فيها كاسيتاً لجون لي هوكر. استمع إلى أغنية «نيوجرسي بلوز».

أخرج ربطة الخبز من البرّاد. كانت متجمّدة، فتحها فوق سطح البرّاد ثم أخرج قطعة الجبنة الأخيرة والتهمها. ارتدى المعطف وجلس فوق السرير، يشرب القهوة ويدخّن.

كان الهواء يدخل عبر الشقّ. ذهب إلى البوّابة الزجاجية وأغلق الستائر جيّداً. ترك البوّابة كما هي كي يستعيد تدريجياً تلك الرائحة والأصوات وذلك البرد. قفز في مكانه، أخذ يرقص. قام ببعض التمارين الرياضية الأخرى ثم حمل الركوة والفنجان إلى الطاولة وجلس على كرسي الحديد.

قرّر مارون أنّه لن يدع كلّ اكتشاف جديد يصدمه. سوف ينحني

Twitter: @ketab_n

ولن يسمح للطمة أن تحطّم أنفه ووجهه. سوف يكون كما كان دائماً: مراوغاً وسريع الحركة.

في نهاية عام ١٩٧٣، حين عاد إلى لبنان، انطلق في كلّ الاتجاهات معاً. استعاد علاقته بثريا، اخترق تلفزيون لبنان بمساعدة من فؤاد نعيم، فحصل على تمويل لبرنامج أطلق عليه اسم «تسعة ونصف»، وأخذ يستعدّ لفيلمه الروائي الأوّل «بيروت يا بيروت». كان يقفز من مكان إلى مكان كالقبّوط، فاتّصل بالممثّل المصري عزّت العلايلي ثم أرسل إليه سيناريو فيلمه عن طريق يوسف شاهين. وافق العلايلي، واستقبله مارون في المطار. قال له العلايلي: «لا أريد منك سوى مكان أقيم فيه طوال مدّة التصوير».

كان ذلك في شتاء عام ١٩٧٥. وكان مارون يعتقد أنّ اسم العلايلي على ملصق الفيلم سيفضي إلى تسويقه. قال مارون لثريا إنّ عليه أن يقوم بكلّ شيء على نحو خاطف. قال لها إنّه يخاف أن تأتي الحرب قبل أن ينتهي من الفيلم فتقع الكارثة فوق رأسه. ابتسمت ثريا وقالت إنّ الحرب تستطيع أن تنتظر. ثم قالت: «إنها تنتظر منذ مئة سنة، فلماذا لا تنتظر سنة أخرى؟».

ولّدت جملة ثريا صمتاً ثقيلاً. فكلامها عن الحرب التي تنتظر منذ مئة سنة لم يكن إلاّ صدى لأحاديث قديمة. وابتسم مارون بحزن: لقد تذكّر تلك الليلة البعيدة حين أخذ «ك» إلى شاطئ الرملة البيضاء، وتذكر الصيد في «دلبون».

«في البداية كانت الحجلة»، هكذا أخبره «ك».

عصر ذلك النهار، حين عادت ثريا من التواليت، ولم تجد «ك» جالساً خلف الطاولة، عرفت أنّ الأشياء تتبدّل، وأنّ حزن الجدّ أبو شوقي كان مبرّراً.

Twitter: @ketab_n

قال لها أبو شوقي إن «ك» قد تحوّل إلى شخص بريئ. ثم قال لها وهي تودّعه انه يحسد أهلها لأنها ابنتهم، فأحسّت بوجع في قلبها. أسرعت مبتعدة لكنّه هتف لها بصوت مبحوح أن تبلغ تحيّاته الصادقة لمارون. وهتاف الجد هذا طعنها أيضاً في قلبها. ففي الصالون، قبل دقائق من الآن، قال لها أبو شوقي: إنّ الإنسان الوفيّ يظهر للعين من النظرة الأولى. أبو شوقي قال ذلك وهو يقصد مارون. أحسّت ثريا انّه يتكلم عن «ك». كانت الطريق تنحدر بها إلى بيروت، وبكت في السيارة وقالت لنفسها إنّها خانت «ك» حين لم تدافع عنه أمام جدّه.

بعد تلك الجلسة في مطعم «الانكل سامز»، اختفى «ك» مرّة أخرى. ولم يعد مارون يعرف عنه شيئاً.

Twitter: @ketab_n

٢

كان مارون يركض، وكانت الحرب تنتظر.

عند الساعة التاسعة مساء الاثنين ٣ آذار ١٩٧٥، جلس مارون مع ثريا في صالة «سينما بيروت» لمشاهدة فيلم جزائري من اخراج بوعماري. اسم الفيلم هو: «الإرث»، وموضوعه قصة رجل عجوز يفقد عقله تدريجياً وهو يشاهد الجيش الفرنسي يطوف قريته مدمراً كلّ شيء. كانت هناك ضجة خافتة تنبعث من مؤخرة الصالة. مال مارون صوب ثريا وهمس في أذنها: «لو اني سمعت هذه الضجة وأنا أشاهد فيلماً لي، ماذا أفعل؟».

أمسكت ثريا يده. النادي السينمائي العربي الذي ينظم، بالتعاون مع المركز الثقافي الجزائري، عرض هذا الفيلم ضمن سلسلة من الأفلام الجزائرية الجديدة، كان هو أيضاً الجهة التي ستنظّم عرض فيلم «بيروت يا بيروت» بعد أيام قليلة. قالت ثريا: «المهم أنك نجحت، لقد صنعت أوّل فيلم لبناني، ماذا ستعني ضجة مجموعة من الأولاد البلهاء؟».

فيلم «الإرث» جعل مارون يتذكر «ك». مارون قال ذلك لثريا. كانا الآن خارج الصالة، وكانت ثريا تشتري قنينة «جلول» باردة. انطلقا في السيارة يقطعان كورنيش المزرعة. تجاوزتهما شاحنة جنود، تأوهت ثريا.

قال مارون: الجيش كلّه سينتقل إلى صيدا.

Twitter: @ketab_n

قالت ثريا: المهم أن لا يموت.

كانت ثريا تتحدث عن النائب السابق معروف سعد. ففي تظاهرة للصيادين جرت قبل أقل من أسبوع في صيدا، أصيب النائب سعد برصاصتين، واحدة في ساقه والأخرى في أعلى فخذه. نُقل النائب إلى المستشفى، انتشر الجيش في الشوارع المبللة بالمطر، وتصاعدت النيران من دواليب الكاوتشوك. كانت تلك البداية فقط.

انعطفت السيارة يميناً، وصعدت باتجاه فردان.

قالت ثريا: «كنت أفكّر بـ«ك». أعتقد أنّ الفيلم ذكرني به.

التفت مارون صوبها، فرأى التماعة عينيها.

تابعت ثريا: وذلك النهار أيضاً تذكرته، كنت في الدكّان، ودخل رجل نحيل جداً وطلب من البائع قرعة متّة.

قال مارون: ربما يكون قد سافر إلى مكانٍ مّا.

قالت ثريا: ليس يملك المال الكافي.

قال مارون: يأخذ مالاً من جدّه!

ضحكت ثريا، وضحك مارون أيضاً.

قالت ثريا: كيف هي أمّه، جاكلين، ألا تحبّه؟

قال مارون: بلى، تحبّه، لكنّها جميلة جداً.

قالت ثريا: تعني أنّها أجمل من أن تكون أمّاً فقط.

قال مارون: لا أعني ذلك، بل أعرفه.

انعطفت السيارة يساراً، ونزلت باتجاه الحمرا.

سألت ثريا مارون: وهل يعرف «ك» ذلك؟

أجابها مارون: «ك» هو الذي يعرف، أليست هذه قصّة حياته. «ك» يا ثريا لا يطلب شيئاً من أحد. إنّه فقط يطلب أن يُترك وشأنه.

ثريا: لكنّه يحب جدّه، أنا متأكدة من ذلك.

مارون: وأنا أيضاً.

Twitter: @ketab_n

ثريا: لماذا إذن يتركه وحده، لماذا لا يزوره، لماذا لا يعيش معه؟

مارون: وكيف أعرف أنا؟

ثريا: أنت صديقه.

مارون: صديقه قبل أربع سنوات. والآن لا أعرف: أحيٌ هو أم ميت!

ثريا: لكن، حتى آنذاك، أيام الصنائع...

مارون: ماذا؟

ثريا: حتى آنذاك لم يكن يزور جدّيه إلاّ نادراً.

ابتسم مارون، وسألها: متى كانت آخر مرّة زرتِ فيها جدّيك؟

ضحكت ثريا وقالت إن الأمر يختلف. ثم عبست وقالت لمارون إنّ عليه أن يكون أكثر لطفاً مع والديه.

كتب «ك» في الدفاتر: «الذين نحبهم لا نستطيع أن نكون قريبهم».

تزوّج يوسف حبشي الأشقر عام ١٩٥٨. سكن مع زوجته في بيت أهله ببيروت. وفي تلك السنة وقعت في لبنان حرب أهلية انتهت بنزول كميل شمعون عن سدّة الرئاسة. قبل زواجه بست سنوات، نشر يوسف مجموعته القصصية الأولى. كان ذلك عام ١٩٥٢، وعنوان المجموعة كان «طعم الرماد».

في تلك السنة أيضاً وقعت في لبنان اضطرابات خطيرة أدّت إلى استقالة الرئيس بشارة الخوري، ووصل كميل شمعون إلى الرئاسة.

ولد «ك» في ٢٠ آذار عام ١٩٥١. وقبل ميلاده بنهار واحد، أقام الحزب التقدّمي الإشتراكي أوّل مؤتمر شعبي له في بلدة الباروك التي تفصلها عن كفرنبرخ بلدة صغيرة اسمها بتلون. والد «ك»، شوقي، كان هناك. كانت النّاس تنتظر وصول كمال جنبلاط حين حصل ذلك. انطلق الرصاص وسمع شوقي صراخاً. سقط قتلى وسقط جرحى، وبعد أشهر كسبت المعارضة المعركة: ذهب الخوري، جاء شمعون.

Twitter: @ketab_n

قال «ك» لمارون إنّ تاريخ لبنان هو تاريخ حروبه الأهلية. الرئيس الأوّل بشارة الخوري لم ينزل عن الكرسي إلاّ بعد أن أنزلوه. والرئيس الثاني شمعون فعل الشيء نفسه. وفي القرن الماضي لم يدخل لبنان في تاريخ العالم إلاّ بحروب مزّقته وأغرقته في الدماء.

قال «ك»: إنّه تاريخ مضحك أيضاً.

في ٢٣ تشرين الثاني عام ١٩٥٢، كتب الأمير عادل أرسلان في مذكراته: «رأت عميدة الطالبات في الجامعة الأميركية في بيروت، مسز كير، أن تكون زيارة الأسطول الأميركي إلى بيروت فرصة ليفهم ضبّاطه وبحارته رأي البلاد وشعور أهلها السياسي، فطلبت من بنات المدرسة، بنشرة وزّعتها عليهن، أن يراقصن بحارة الأسطول ويرافقنهم للترفيه عنهم. ولا شك انها لم تعنِ إلاّ الترفيه الروحي المعنوي، لكن بحارة الأساطيل معروف سلوكهم، فغضبت الطالبات وغضب لهنّ طلاب الجامعة الأميركية، فقامت الاحتجاجات على المديرة. كيف غاب عن هذه الأميركية أنّ لذوي الطالبات حقاً في قبول اقتراحها أو رفضه، وأنّ البحارة لا يكتفون بمصاحبة طالبات مهذّبات. غضبة الطالبات والطلاّب في الجامعة الأميركية دليل خير.»

في اتصال هاتفي جرى خلال عام ١٩٨٧ استعاد «ك» ذلك الحديث القديم عن «التاريخ المضحك». كان ذلك أسلوب «ك» لإبعاد الحوار عن حياته الخاصّة قدر المستطاع: الهرب إلى التاريخ أو الأفلام.

قال «ك» لمارون إنّ هؤلاء البحارة سوف يعودون عام ١٩٥٨، ثم عام ١٩٨٣. وفي الزيارات الثلاث لن يتاح لهم مراقصة طالبات الجامعة الأميركية.

ضحك مارون.

اقترح «ك» على مارون فيلماً يتناول هذه الحكاية.

كيف؟، سأل مارون.

Twitter: @ketab_n

– إسمع، قال «ك»، الفيلم يتحدّث عن شاب أميركي وفتاة لبنانية. الأميركي بحّار، اللبنانية طالبة. مسز كير فشلت في تدبير حفلة راقصة لبحارة المارينز داخل حرم الجامعة، هذا صحيح. لكنها في المقابل أقنعت بعض الفتيات بزيارة سفن الأسطول. بين هذه السفن حاملة طائرات سأسمّيها نيوجرسي. وعلى متن هذه السفينة شاب هو بطل قصّتنا، سأسمّيه جيمي. الطالبة اللبنانية تدعى جمانة، وهي خجولة قليلاً. تتشجّع وتبدأ حديثاً مع جيمي. لا يعجبها ولا تعجبه. الكاميرا تصوّر البحر الأزرق ثم تصوّر جانباً من المدينة والشاطئ. موسيقى قويّة وينتهي الجزء الأوّل.»

مارون: اسمع، ما رأيك أن نجعل الفيلم جزءاً واحداً وننتهي منه؟

«ك»: انتظر حتى تسمع الجزء الثاني. بعد ست سنوات يعود الشاب، ولكن مدجّجاً بالسلاح هذه المرّة، وأيضاً على متن نيوجرسي، لكن ليس في زيارة. هناك حرب، ورئيس لبنان طلب المساعدة ضد كمال جنبلاط وضد الشيوعية الدولية. انظر ماذا يحصل: في أوقات الهدنة يذهب المارينز إلى السوق العمومي للترفيه عن أنفسهم، وذات ليلة كان جيمي يمرّ في ساحة البرج مع أصحابه...

مارون: ...فإذا به يرى جمانة. حسناً، فيلم مهم، والآن ما رأيك لو تخبرني عن أوضاعك؟

«ك»: «انتظر قليلاً. جمانة لن تتذكره. هو يتقدم منها ويحاول تذكيرها بالحديث الذي جرى بينهما قبل ست سنوات. تقول له جمانة: انها بالفعل نزلت إلى نيوجرسي مع صديقات من الجامعة آنذاك، لكنها لا تتذكّره على الإطلاق. يقول لها جيمي إنها، «بالعلامة»، حدّثته عن أبيها الأعمى. وتقول جمانة إنّ والدها قد مات وأنّه بالفعل كان أعمى، لكنها رغم ذلك لا تتذكر جيمي. ويمضي جيمي مع أصحابه. وتدور الكاميرا على البحر والشاطئ والمدينة التي كبرت وازدادت مصابيحها.

Twitter: @ketab_n

مارون: موسيقى قوية وينتهي الجزء الثاني.

«ك»: «كلا. غير صحيح. أين الخيال؟ موسيقى قوية ومشهد كلاب كثيرة تنبح فوق الرمال وتلتهم بقايا الهمبرغر والهوت دوغز التي تركها المارينز خلفهم.

مارون: ولماذا لا نضع كلاباً في الجزء الأوّل أيضاً؟

يضحكان.

«ك»: ١٩٨٣. بعد الاجتياح ومجيء المارينز مع الفرنساويين والطليان. أين مركز المارينز؟ السفارة في عين المريسة طبعاً. ومن هذه السفارة، بحّار عجوز يراقب بالمنظار مبنى البستاني الخاص بطالبات القسم الداخلي في الجامعة الأميركية. كلّ يوم يستيقظ ويقف مع منظاره هناك. يركزه على إحدى غرف الطابق الثالث ويراقب جمانة.

مارون: ماتزال طالبة!؟

«ك»: لا. هي الآن معلمة ومسؤولة عن طالبات المبنى.

مارون: وماذا سيفعل جيمي هذه المرّة؟

«ك»: جيمي؟

مارون: طبعاً، أليس هو البحار العجوز؟

«ك»: لا بالطبع. من أين جلبت هذه الفكرة؟ هل تظنّني سأقترح عليك فيلماً تافهاً إلى هذا الحدّ؟

في أحد مطاعم الحمرا، قرّر مارون وثريا أن يتناولا طعاماً خفيفاً. طلب مارون كوباً من البيرة وروى لثريا ما قاله «ك» قبل زمن بعيد فوق رمال شاطئ الرملة البيضاء.

قال مارون: كان سكران، وأنا مثله. أخبرني أنّه لا يكره شيئاً كما يكره رائحة النّاس، خصوصاً النساء. قال إنّه يحب جدّته لسبب واحد فقط: أنّها ليست لها رائحة، لا رائحة على الإطلاق، كأنّها مصنوعة من ماء فقط».

Twitter: @ketab_n

قالت ثريا: بالتأكيد كان يمزح.

قال مارون: لا اذكر انّه كان جاداً كما كان انذاك. بالطبع كان سكران، لكنّه بالتأكيد لم يكن يمزح.

قالت ثريا: هل تعلم أن منظر العجوز في الفيلم سيسبب لي كابوساً الليلة؟

قال مارون: أي منظر؟

قالت ثريا: كلّها. كلّ المناظر. اعتقد أنّها أعصابي.

خلال تصوير «بيروت يا بيروت» شكت ثريا من آلام حادّة في بطنها وحوضها. الطبيب الذي ذهبت إليه وصف لها مهدّئاً للأعصاب وطلب منها أن تستريح قليلاً.

– هل أنا مريضة؟، سألته.

– هناك شيء يتعبك كثيراً، قال الطبيب، هذا أمر واضح.

كان مارون مشغولاً بالفيلم ليلاً نهاراً. قال لثريا إنّها قد تكون الآلام المعتادة للدورة الشهرية.

– جائز، قالت ثريا.

أحضر النادل صحناً فيه بسطرما.

قالت ثريا: أتذكر؟

قال مارون: أذكر.

أشعلت ثريا سيجارة، وقالت إنّها خائفة:

– من الحرب؟، سألها مارون.

– ومن الحرب أيضاً، قالت ثريا.

لعب مارون لعبة «ك». أخذ يتحدّث بسرعة. تكلّم عن أفلام شاهدها وعن أفلام يريد أن يشاهدها، ثم ذكر اسم صديق مشترك، وقال لثريا إنّه – أي الصديق المذكور – بات غريباً جداً مؤخّراً.

أطفأت ثريا سيجارتها بحركة عصبية، رفعت رأسها، رأت نظرة

Twitter: @ketab_n

حادّة في عيني مارون، قرّرت أنّها غير قادرة على خوض حرب في هذه اللحظة، رسمت ابتسامة على وجهها، قالت إنّها تحتاج للدخول إلى التواليت.

بقي مارون وحده مع كوب البيرة ورائحة السيجارة ورائحة البسطرما. على طاولة قريبة، كان اثنان يتناقشان في السياسة. الأوّل يقول إنّ شركة «بروتيين» ليست ضد الصيّادين، وأنّ كميل شمعون رجل وطني وشريف، والثاني يقول إنّ رجال الأعمال لا علاقة لهم لا بالوطن ولا بالشرف، وهذا أمر مثبت علمياً. ابتسم مارون، ونظر إلى الثاني، فوجد شكله عادياً جدّاً.

دخل رجل وامرأة. كان الرجل يعرج من قدمه اليسرى. تذكر مارون الفيلم الذي شاهده قبل نصف ساعة. شيءٌ مّا في عيني العجوز بعث فيه إحساساً قوياً بالشوق إلى «ك». في تلك اللحظة، تمنّى مارون شيئاً واحداً: أن يعرف أين هو «ك»، وما هي أحواله؟ وقال إنّ سعادته بهذه المعرفة قد تساوي سعادته بنجاحٍ ربما أصابه فيلمه في الأشهر القليلة المقبلة.

عادت ثريا، فرأى مارون الحمرة المحتقنة في بياض عينيها.

قال لها: «أتعلمين يا ثريا، لقد أخبرني «ك» أنّ الجيش الفرنساوي عندما صعد إلى قرى الدروز عام ١٨٦٠، ارتكب جرائم فظيعة. فقلت له إنّه يبالغ. ماذا كان سيقول لي الآن لو كان قد شاهد فيلم بوعماري معنا؟

قالت ثريا: هل تشعر أحياناً أنّك تشبه «ك» كثيراً؟»

قال مارون: «لا. لكن ما الذي جعلك تفكّرين بهذا السؤال؟.

قالت ثريا: لا أعلم. جائز أن يكون السبب ما قاله لك عن رائحة النّاس. قبل قليل مثلاً، كانت تلك المرأة تضع حمرة على شفتيها، في التواليت، وأخذت أتخيّلها تبصر تجاعيدها يوماً بعد يوم. أوّلاً تجعيدة واحدة. بعد ذلك، قبل أن تنام ذات ليلة، تبصر تجعيدة ثانية. ومرّة ثالثة تشرب القهوة مع أخواتها فتلاحظ إحداهنّ تجعيدة أخرى. و...

Twitter: @ketab_n

قاطعها مارون: لكن ما علاقة الرائحة؟

انتبهت ثريا إلى الحدّة في لهجته، فرفعت يدها، فجاء النادل، فطلبت كوباً من البيرة الباردة.

أرادت أن تقول لمارون إنّه لا يشبه «ك»، لأنّ «ك» ليس لئيماً مثله. ظلّت صامتة ولم تقل شيئاً.

قال لها مارون إنّه يعرف أنّها لا تتكلم عن امرأة رأتها في التواليت. وبدأت ثريا في البكاء.

تركت مارت اسكندر حين فكّرت أنّه تحوّل إلى جذع شجرة يابس. كان ذلك بعد أن بدأت حرب السنتين. حرب السنتين بدأت في ١٣ نيسان ١٩٧٥ في عين الرمّانة. مسلّحون مقنّعون أطلقوا النّار على بوسطة مليئة بالفلسطينيين. كانت البوسطة عائدة من احتفال أقيم في منطقة الطريق الجديدة تكريماً لذكرى مرور عام على سقوط شهداء الثورة الفلسطينية في الخالصة (كريات شمونه). نزل المسلّحون إلى الطرقات، أقيمت الحواجز، هبط الليل، تصاعدت أصوات الانفجارات، جرت اشتباكات بالأسلحة الرشاشة، قطعت المعابر. بدأت الحرب، صعد يوسف حبشي الأشقر مع أهله وزوجته وأولاده إلى بيت شباب.

عُرض فيلم «بيروت يا بيروت» مرّة واحدة فقط.

جاءت الحرب، جاءت النار. هرب القادرون من بيروت إلى الجبال.

في «بيروت يا بيروت»، أراد مارون أن يرسم ويستعيد تلك الأيّام التي مضت كحلم خاطف. أيام ١٩٦٩ وأيام ١٩٧٠. محام مسلم ناصري، ومثقّف مسيحي مشبع بالثقافة الغربية، وعامل جنوبي يعمل في مطابخ الرهبان، وطالبة مسيحية قلقة ومتمرّدة. في تلك الأيام كانت بيروت تتظاهر في كل المناسبات، وقنابل الغاز المسيلة للدموع باتت لها رائحة مألوفة لدى الناس. تظاهرات من أجل

Twitter: @ketab_n

فيتنام، تظاهرات من أجل معتقلين سياسيين في إحدى دول العالم الثالث، تظاهرات من أجل كوريا، تظاهرات لرفع الحدّ الأدنى للأجور، تظاهرات للجم تصاعد أقساط الطلاّب، تظاهرات دفاعاً عن حقّ النّاس في التظاهر، تظاهرات تطالب بتنحية الجيش بعيداً عن الصراعات الداخلية، تظاهرات ترفض التدخّل الفلسطيني في المسائل اللبنانية، تظاهرات ضد التظاهرات السابقة، تظاهرات غير مسلّحة وتظاهرات مسلّحة.

كانت الطالبة البرجوازية تقفز بين المحامي الناصري والمثقّف المسيحي. في رواية «لا تنبت جذور في السماء»، تقفز ميرا بين أنسي، المناضل الشيوعي، واسكندر ملتزم الحياد. نهاية «بيروت يا بيروت» موت جمال عبد الناصر. هذا الموت يكسر حلم المحامي. والمثقّف المسيحي أيضاً يتعرّض لصدمة خاصّة به فتهتز قناعاته. والطالبة تضيع، والعامل الجنوبي يعود إلى بلدته لمقاتلة إسرائيل.

في رواية «لا تنبت جذور في السماء» أيضاً، ينكسر حلم أنسي، وتضيع ميرا. وحده اسكندر لا تهتزّ قناعاته. لكنّه، رغم ذلك، أو ربما بسبب ذلك، يصل إلى حافة أخرى. فمارت التي دخلت حاملة له القهوة «رأت في عينيه بريقاً لم تعرفه قبل، بريق السيطرة، بريق القوّة التي لا تقاوم... لم تجرؤ أن تقبله، أو أن تلتصق به. عرفت أنّه لم يكن غائباً عن حياته أكثر ممّا هو غائب تلك اللحظة، لكن عينيها، عينيها العنيدتين، بقيتا تتطلعان إلى عينيه.»

هكذا تنتهي «لا تنبت جذور في السماء» التي نُشرت عام ١٩٧١ وأعيد طبعها عام ١٩٨٣.

في بدايات الرواية، يركب اسكندر الترام من المحطة القريبة من الجامعة الأميركية، وهي المحطة الكائنة على بعد خطوات قليلة من «صالون سفر للحلاقة». في الترام يقول السائق لإسكندر: «هذه السنة سيلغون الترامواي. هذا أبو الشعب. بخمسة قروش من المنارة إلى فرن الشباك لأنّه يناسب الفقير ويخدم الشعب سيلغونه... تطلع اسكندر إليه ثم أدار وجهه: الشعب! عمره كلّه، لم

Twitter: @ketab_n

يسأل عن الشعب، ولم يهتم بهذه الكلمة، ولم يؤمن بها. في أعماقه يكره هذا الشعب، ولا يستطيع أن يخلط بين السياسة والحقيقة. يكرهه الشعب ويقول: إنّه مفترس، خطر، ويقول إنّه لا يفكّر، وإذا فكّر ففي الانتقام فقط. ويقول إنّه لو أُعطي له أن يقتل ما يسمّونه الشعب لما تأخّر عن قتله. الشعب ليس الفقر بالنسبة إليه ولا الحاجة، بل نوع معيّن من التفكير لم يستطع أن يفهمه أو أن يتقبّله أو يتقرّب إليه... منذ سنوات أكل أنسي رصاصة في فخذه من أجل الشعب.»

في الرواية التالية، «الظلّ والصدى»، تحترق بيروت. إسكندر يقرأ الصحيفة صباح الاثنين ١٤ نيسان ١٩٧٥ ويرى قتلى الكنيسة وقتلى البوسطة كأنّهم وقعوا أمامه على الشرفة. هذا المشهد رآه البارحة أيضاً حين كان مع مارت في بعبدات وسمع الخبر. مع الحرب يأتي يوسف ومعه ميشال رفيقه في الجامعة وفي الحزب. يريدان اسكندر أن يترك بيته في الغربية، ويقول له ميشال: من يطلع من ثيابه يبرد.

«قال اسكندر: لن أطلع من ثيابي، لكن ثيابي غير ثيابك. والمؤسف أنّك تريد أن تلبسني إيّاها بالقوّة.

قالت مارت: وإذا حاولوا هنا أن يلبسوك ثيابهم؟

قال اسكندر: ما رأيكِ أنتِ؟

قالت: لن تلبسها.

قال: إذن؟

قالت: إنّها مخاطرة من أجل برهان لن يقنع أحداً، ولن يغيّر أحداً، إنّها ضربة سكّين في الماء، محاربة طواحين هواء، كبرياء ليست في محلّها. تعال نصعد إلى كفرملات.

قال: اصعدي أنتِ إلى كفرملات.

عند المساء، ولأوّل مرّة، منذ أتت إلى لبنان، نامت ولم تحادث اسكندر ولا هو حادثها».

Twitter: @ketab_n

انقطع التواصل بينهما، مات الحوار.

قالت مارت: «لم أعد أؤمن به، صَغُرَ حجمه، إمكانات قلبه غطّيت بقماش أسود سميك. لم يولد ليستعمل إمكاناته. إنّه يحتقرها، يجدها دون الحقيقة المطلقة. شجرة يابسة صار. لا أستطيع أن أعايش شجرة يابسة لا أمل لها بأن تورق. مستحيل أن يتفاعل إنسان إلاّ مع الحياة. اسكندر صار شبحاً، وصرت أخافه.»

تركت مارت اسكندر، وصعدت إلى كفرملات.

جلب اسكندر قماشاً أبيض، غطّى كلّ شيء.

قال لنصّار أن يصعد إلى كفرملات هو أيضاً.

وطلب منه أن يأخذ الكلب.

أراد اسكندر أن يبقى وحده، أن يُترك كأنّه حجر.

تعبت مارت، رحلت لأنّها تعبت، لأنّها لم تعد قادرة على التطلّع في عينيه بذلك العناد الذي كان لها قبل سنوات طويلة. ضاعت مارت، جاء يوسف. في كفرملات عاشت معه في البيت الذي بناه اسكندر. يوسف يحارب، يوسف يضربها ويكسر سرير الحديد الذي جاء به اسكندر من بيت العائلة. مارت تهرب، إلى قبرص، إلى فرنسا، إلى أبعد مكان.

أعطى اسكندر أنسي مالاً كي يسافر، ثم راقبه يرحل. وحيداً بقي اسكندر ببيته في شارع بُلِسّ.

الحرب تركض، موت ورصاص وظلال تغطّي الشوارع.

يوسف حبشي الأشقر في بيت العائلة في بيت شباب، يدخن الغليون ويشرب الويسكي ويكتب «المظلّة والملك وهاجس الموت». أهله وزوجته وأولاده الثلاثة من حوله. أمّه تلعن الحرب، ووالده يتأمّل الأشجار عبر النافذة. الوالد، إميل حبشي الأشقر، كان أديباً أيضاً. بين عام ١٩١٢ وعام ١٩١٥، أصدر من بيت شباب جريدة أسبوعية

Twitter: @ketab_n

باسم «النتيجة». وحين انفجرت الحرب العالمية الأولى كتب عنها كتاباً بعنوان «جهاد لبنان واستشهاده».

الحرب تركض، موت ورصاص وظلال تغطي الشوارع.

عام ١٩٧٦ أنجز مارون ثلاثة أفلام تسجيلية. اثنان من إنتاج تلفزيون لبنان، والثالث من إنتاج «الحركة الوطنية اللبنانية». بعد هذه الأفلام، خلال الفترة الفاصلة بين بداية الحرب وبين عام ١٩٧٩، ينجز مارون أفلاماً أخرى من إنتاج «الحركة الوطنية اللبنانية» و«منظمّة العمل الشيوعي في لبنان».

الحرب تركض، موت ورصاص وظلال تغطّي الشوارع.

ثريا على شفير انهيار عصبي. مدافع الشيّاح تصب قذائفها على عين الرمانة. ثريا تحشو أذنيها قطناً، تحبس نفسها في غرفتها، تصلّي أن يصيبها الطرش. ذات ليلة يسيل الدم من أظافرها، وهي تمزّق أكياس الرمل التي سدّوا بها النافذة. تحسّ أنّ أهلها أعداء لها، وتحلم أنّ مارون يجيء إليها من الجانب الآخر للعاصمة ويأخذها معه بعيداً.

الحرب تنزل من السماء، مطر ونار وصراخ.

العاصمة مقسومة إلى يمين ويسار، إلى شرق وغرب، واقعة بين قصف وقصف. ثريا تتساقط كحفنة تراب. تحتفظ في جارورها بعدد صحيفة النهار الصادر يوم الخميس ٦ آذار ١٩٧٥.

«٣٥ ألف طالب وطالبة في تظاهرة التأييد للجيش». المتظاهرون اجتمعوا أمام بوّابة جامعة القدّيس يوسف. خطاب للكتائب، خطاب للنمور الأحرار... ثريا تذكرت التظاهرات قبل ست سنوات. في الصورة على الصفحة الأولى رأت صديقات بعضهن يمسك بأيدي بعض. هذه كوليت، هذه جوسلين، هذه انطوانيت... كوليت كانت معها في المدرسة، كانت تشتري لها قنينة «جلّول» فتكتب لها فروضها... بكت ثريا.

Twitter: @ketab_n

ظهيرة ذلك الخميس الكئيب، فارق معروف سعد الحياة، بعد احتضار دام ثمانية أيام. كان مصاباً بالسكّري، فعجز الأطبّاء عن إيقاف النزيف، وقتلته الرصاصة التي مزّقت فخذه. وبعد سبعة وثلاثين يوماً فقط حصلت الحادثة في عين الرمّانة وانفجرت الحرب.

الحرب تركض، الحرب ضجرت من الانتظار، الحرب حرب.

تروي كتب التاريخ الفينيقي انّ الإله إليون، احد ملوك جبيل الأوائل، اتّخذ من امرأة تدعى بيروت زوجة له، فبنى فوق جزيرة تقع إلى جنوب جبيل مدينة سمتها زوجته باسمها وأهدتها إلى نبتون إله البحار كي يكون شفيعها.

آنذاك، كانت بيروت تربض وسط المياه. فيما بعد نزلت السيول من الجبال وتراجعت المياه التي تفصل الجزيرة عن الشاطئ، فاتصلت بيروت بهضبات جبل لبنان.

قال «ك» لمارون في شقّة الصنائع: إن بيروت واحدة من أقدم مُدن العالم، ثم فتح كتاباً وقرأ عن الزلازل والحرائق التي أصابتها مراراً وتكراراً قبل ألف وخمسمئة سنة.

الحرب تركض وراء النافذة، وثريا تتكوّم تحت اللحاف.

١٥ نيسان ١٩٧٥: ٣٧ قتيلاً وحرب متفجرات وصواريخ مستعرة في بيروت.

١٦ نيسان ١٩٧٥: معارك عنيفة بالمدفعية والصواريخ بين مخيّم تل الزعتر وبلدة الدكوانة وجوارها.

١٥ أيار ١٩٧٥: الرئيس رشيد الصلح يستقيل في الجلسة النيابية ويدلي ببيان يتّهم فيه الكتائب بافتعال حادث عين الرمانة.

٢٧ أيار ١٩٧٥: سقوط عدد من القتلى والجرحى في بيروت والضواحي، وبقاء الحواجز والمتاريس في النقاط الرئيسية في بيروت.

٣٠ أيار ١٩٧٥: مقتل ٤ وموجة خطف في بيروت تطال ٩٠ شخصاً. وكمال جنبلاط يصرّ على إبعاد الكتائب عن الحكومة

Twitter: @ketab_n

ويتحدّث عن مخطّط أميركي - اسرائيلي لإثارة حرب أهلية في لبنان.

٢ حزيران ١٩٧٥: احتجاجاً على مقتل مرافق الرئيس شمعون، يسد الرصاص مداخل بيروت وبعض ضواحيها، والأسواق التجارية نصفها مغلق.

٢٤ حزيران ١٩٧٥: تراشق بين الشيّاح وعين الرمانة يسفر عن قتيلين و٢١ جريحاً.

٢٦ حزيران ١٩٧٥: تراشق بين الشيّاح وعين الرمانة بمختلف أنواع الأسلحة ووقوع ٩ قتلى نهاراً و٨ ليلاً.

٣٠ حزيران ١٩٧٥: الاشتباكات تتسع وتشتدّ في الشياح وعين الرمانة والأشرفية والكرنتينا.

١ تموز ١٩٧٥: صدور مراسيم تشكيل الحكومة رسمياً والرئيس كرامي يعلن في مؤتمر صحافي بالقصر أنّ الحكومة حكومة إنقاذ.

٢ تموز ١٩٧٥: الرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان يبدي اهتمامه بالوضع في لبنان واستعداده للمساعدة في إعادة الهدوء والأمن والاستقرار.

الحرب تركض، الحرب غول، إميل حبشي الأشقر يتذكّر الجراد. إبنه يوسف يجلس في قبو العقد، يدخن الغليون أو السجائر ويكتب: «دوّى انفجار كأنّه خارج من كومة الورق اليابس. توقّف الأولاد عن الدوارن والغناء. توقّفوا لحظة ثم عادوا. تركتهم.

على حافة البركة بلعت ريقي الكثير الذي تجمّع في فمي. الوحدة قلت. الوحدة حيثما كان الآن. حتى في متاريس المتحاربين، وهل الوحدة سوى رفض الآخر؟ أي رفض لأي آخر بئر الوحدة هو، من يحب لا يرفض أحداً. ومن يحب، وحده لا يعرف الوحدة.»

ثريا تجلس فوق السرير. قربها راديو وصحيفة. كلّ نهار يعلن الراديو وقفاً جديداً لإطلاق النّار. وثريا تفكّر بك» وكلامه عن التاريخ المضحك. تنتزع الصور من الصحف، تخبّئها في الجارور،

Twitter: @ketab_n

تكتب أسماء القتلى في دفتر تحتفظ به تحت المخدّة، تأكل القليل القليل ممّا تجلبه لها أمّها، وتشرب الشاي وتدخن.

مارون يتوقّف عن القراءة، يتذكّر مدريد، هناك أخبر «ك» كلّ شيء.

ثريا فوق السرير، تقرأ الصحف. وقت يمضي وقذائف معلّقة في الفضاء.

٢٨ آب ١٩٧٥: الوضع في زحلة يتدهور، ٣ قتلى و٩ جرحى.

٧ أيلول ١٩٧٥: حاجز من ١٥٠ مسلّحاً على طريق شكّا يخطف عدداً من الطرابلسيين.

١١ أيلول ١٩٧٥: مسلّحون يدخلون بلدة بيت ملات في قضاء عكّار، مقتل ٧ أشخاص، وجرح ٤، وخطف ١٠، واحتراق عدد من المنازل والكنيسة وسرقة ٢٢ سيّارة.

– بيت ملات؟

يقفز مارون عن السرير. يهرع إلى المكتبة. يفتّش بين مجلّدات «موسوعة المدن والقرى اللبنانية». يفتح المجلّد الثالث على الفهرس. يرى دائرتين مرسومتين بالحبر الأحمر حول اسمي بلدتين: بلدة بيت ملات، وبلدة بيت شباب.

أصابعه تلتصق بالصفحات، نبض قلبه يقرع كالأجراس في أذنيه.

«بيت ملات، محافظة الشمال، قضاء عكّار، ترتفع عن البحر ٥٥٠م تبعد عن بيروت ١٢٤ كلم، عدد سكّانها ٥٠٠، بيوتها ٣٠٠.

تصل إليها عن طريق طرابلس – حلبا – بيت ملات.

أصل الاسم يحتمل عدّة أوجه، من أصل سرياني Bet Melita، المكان أو البيت المملوء أو بيت الطين أو بيت مطيّن أو من Milleta: الكلمة والرأي والأمر...».

Twitter: @ketab_n

يتوقف مارون عن القراءة، لا يفهم ما الذي يجري له، لا يعرف لماذا يدور داخل حلقات مفرغة، ولا يدرك تماماً ما الذي يبحث عنه... كأنّه شخص آخر، كأنّ قوّة خفية تدفعه إلى حيث لا يعلم.

«بيت شباب: ترتفع ٦٠٠ متر عن سطح البحر، قضاء المتن، محافظة جبل لبنان، تبعد عن بيروت ٢٤ كلم، عدد سكانها ٩٠٠٠، طريق الساحل – مفرق من انطلياس – بيت شباب. أصل الاسم من السريانية Bet - Shebaba: بيت الجار».

نظرات مارون تنتقل إلى الهامش: «بيت شباب هي كفرملات ذاتها على أغلب الظن. لماذا؟ لأنّها مثل كفرملات، أو بالأحرى: لأن كفرملات مثلها. فبيت شباب أحرقها عسكر ابراهيم باشا خلال حوادث القرن الماضي، والأشقر يقول أمراً مماثلاً بالنسبة إلى كفرملات. كذلك وصف كفرملات في الرواية – الحديث عن صناعة الأجراس مثلاً – يتطابق مع وصف بيت شباب في الواقع والتاريخ. ويمكننا العثور على دلائل أخرى في كتاب «المظلّة والملك وهاجس الموت»، أو في بعض المقابلات الصحفية التي أجريت مع الأشقر نفسه».

مارون يضع المجلّد من يده: كلّ ما يحاول اكتشافه سبَقَه «ك» إليه، بلى هو يعرف هذا على الأقلّ، أو بالأحرى: بات يعرف هذا. لكن «ك» لم يتعرّض للخيبة كما يتعرّض لها هو الآن، لأنّ «ك» لم يكن يبحث عن صديق له، بل عن بلدة فحسب. لكن لماذا؟ فجأة يتذكّر مارون الفيلم، يرى يوسف كما وصفه «ك»، ويرى اسكندر. مارون يشهق، إنّه يفهم، نعم الآن يدرك ذلك. إن «ك» لم يكن يبحث عن بلدة فقط، بل كان يبحث عن شخص أيضاً، شخص يقيم في تلك البلدة، شخص اسمه اسكندر الحمّاني.

مارون يزيح الستائر، العتمة في الخارج كثيفة. مارون ينظر إلى نفسه منعكساً في الزجاج، ويرسم ابتسامة على وجهه. الابتسامة تتضخّم، وتتحوّل إلى تكشيرة. الفندق المشلعة أبوابه ونوافذه تظهر غرفه كالقبور، باردة وسوداء. ملاصِقة للفندق، إلى الشرق، تقف بناية قصيرة الشرفات. مارون يرى ضوءاً في الطابق السادس.

Twitter: @ketab_n

هناك مطبخ مضاء وامرأة تتحرّك خلف الستائر الرقيقة.

منذ أيام لم يرَ رجلاً أو امرأة، ولم يتكلّم مع أحد. يحاول أن يعد الأيّام التي مضت، لا يتابع، يحدّق جيّداً في شبح المرأة المتحرّك خلف الستائر الرقيقة، يدرك أنّها تقف أمام البوتوجاز، يرى حدود الطنجرة والملعقة التي تمسك بها، ويراها هي كظل مرسوم على جدار.

يحاول أن يسترجع تلك الفكرة التي صدمته قبل لحظة، يحسّ فراغاً في صدره، يتساءل: ما معنى أن يبحث «ك» عن شخصية روائية، شخصية صنعها الخيال؟ يتساءل: هل كان «ك» يحسب أنّ اسكندر رجل حقيقي، وكيف توصل إلى استنتاج غريب كهذا؟ ويتساءل: هل وقف «ك» هنا مثله ذات ليلة محدّقاً في شبح المرأة المتحرّك خلف تلك الستائر.

ثم يعود إلى الفكرة الأولى فيصعد الدم إلى رأسه ويخيّل إليه أنّ ساقيه تنزلقان تحته وأنّه يقع ولا يستطيع إيقاف سقوطه.

يفكّر مارون أنّه، هو أيضاً، قبل لحظات فقط، قد حسِب، لهنيهة قصيرة، أنّ اسكندر شخص حقيقي، وأنّه يقيم في بلدةٍ مّا، وأنّ المشكلة تكمن في العثور على موقع تلك البلدة.

يلجأ إلى قنينة النبيذ، يجرع منها، ثم يملأ كوباً ويشعل سيجارة.

يقول بصوت عالٍ: «لن أفهم قبل أن أنتهي من الدفاتر» يفاجئه صوته، كأنّه ليس صوته، كأنّه لم يسمعه من قبل. بعد ذلك يضحك. ترن ضحكته بين الجدران: «ك» أيضاً كان يتحدّث مع نفسه بصوت عالٍ من حينٍ إلى آخر.

١ تشرين الأول ١٩٧٥: خطف ٣٠٧ أشخاص واكتشاف ٢١ جثّة وحواجز رعب في الكحالة وصوفر وجونيه وبيروت والشمال.

٨ تشرين الأوّل ١٩٧٥: الأسواق التجارية تتعرّض لحريق جديد وسقوط ٤٤ قتيلاً... سوق سرسق وسوق النورية يتحوّلان إلى ركام،

Twitter: @ketab_n

والدخان يتصاعد من سوق الصاغة.

قال اميل حبشي الأشقر لابنه يوسف:

– «ما لم يهدمه الوالي التركي عزمي بك قبل أكثر من ستين سنة تتكفّل به النار الآن».

٧ تشرين الأوّل ١٩٧٥: هيستيريا الخطف، ١٠٠ مخطوف في بيروت خلال نهار واحد.

والد ثريا يقول لها: اتركي الجرايد وتعالي اقعدي معنا.

تنظر إليه كأنّها لا تراه، كأنه ليس هناك.

٢١ تشرين الثاني ١٩٧٥: الرعب يسود بيروت ويطوقها، قنابل وصواريخ ورصاص و٨٠ مخطوفاً و١٨ قتيلاً و٣٩ جريحاً.

وتتساءل ثريا: كل هذا القصف، كلّ هذه القذائف لم تقتل سوى ١٨ شخصاً، لماذا؟ أليس أفضل وأكثر فعالية أن يدسّوا السمّ في المياه أو الطحين؟

تقول ذلك لأهلها. اختها الصغيرة تضحك وتخبرها أن الطحين مقطوع عن الأفران.

١١ كانون الأوّل ١٩٧٥: تبادل ١٧٨ قذيفة و١١٢ صاروخاً بين الشياح وعين الرمانة.

تحطّم ثريا الراديو الترانزستور، وتحشو أذنيها بمزيد من القطن، لكنها ترفض توسّلات أهلها وتتشبّث بالصحف التي بين يديها.

١٣ كانون الأوّل ١٩٧٥: سقوط ١٠٩ قتلى والعثور على ٥٠ جثّة.

تقرأ ثريا في الصحيفة اسم جوزف بغدادي. تنادي على اختها الصغيرة وتطلب منها أن تتابع قراءة الأسماء. تقرأ الأخت: سليم يونس، أسعد يونس... فتطلب منها أن تقرأ من البداية.

– «سامي نصّار، كلوديت نصار، الكس ماردروسيان، طوني شربل مشعلاني، جوزف بغدادي، سليم يونس، أسعد يونس، تمام يونس، رولان سعادة، اميل ميخائيل صائغ، توفيق مكي...»

Twitter: @ketab_n

والد ثريا يسأل الجيران. الجيران يسألون أولادهم. أحد أبناء الجيران، وهو مقاتل في الكتائب، يؤكّد الخبر: جوزف بغدادي الذي مات قبل يومين هو والد جورج ومارون وفريدة. لقد أصيب بشظية في عنقه خلال خروجه من «صيدلية صراف».

يقول الأب لثريا: أعطيني هذه الصحف من يدك.

فتعضه ثريا، وتمزق أسنانها لحم ذراعه.

تقول الأم: اتركها، اتركها، اللعنة حلّت علينا.

فيقول الأب: ذات يوم ستقرأ اسمه هو لا اسم والده.

تنظر الأم إليه، إنه ينسحب من الغرفة حاضناً ذراعه.

في الصالون، حيث النوافذ مسدودة بأكياس الرمل، يتكوّم الأب صامتاً.

تقول الأخت الصغيرة لثريا: مارون في الغربية، فلماذا تفتشين بين أسماء القتلى في الشرقية؟

تبقى ثريا صامتة، وعيناها تحدقان في الفراغ.

كلّ ليلة تحلم أنّه يتسلّل في الليل ويأخذها بعيداً.

١٦ كانون الثاني ١٩٧٦: الدامور في وضع خطير والمهاجمون يقتلون ٤٠ شخصاً ويحرقون منازل في الحيّ الجنوبي.

١٩ كانون الثاني ١٩٧٦: حرب الكرنتينا تنتهي بالتهجير ومصدر كتائبي يعلق: ليس لدينا حل آخر.

٢٠ كانون الثاني ١٩٧٦: النار تحرق المنازل في الجية والدامور. وسقوط عدد من القتلى فيها. والأهالي ينزحون بحراً إلى جونيه.

ثريا تنام وترى البحر. من الكرنتينا يهرب الفلسطينيون والأكراد في قوارب خشبية تشبه الألعاب. إنّهم يهربون جنوباً، يركبون الأمواج إلى عين المريسة والأوزاعي. من الدامور، من قصر السعديات، يهرب المسيحيون في البواخر التي جلبها لهم الجيش وكميل شمعون. هل هي البواخر ذاتها التي تمتلكها شركة بروتيين لصيد الأسماك؟ المسيحيون يركبون الأمواج شمالاً إلى جونيه

Twitter: @ketab_n

والكسليك. وثريا تنام وترى البحر. البحر امتلأ بالزوارق والسفن. وليالي كانون الثاني المليئة بالمطر والرياح تدفع الهاربين فوق الأمواج. خط ذهاب وخط ذهاب، لكن في اتجاهين متعاكسين. في نقطةٍ مّا التقت البواخر القوارب، آنذاك ماذا حصل؟

تتذكر ثريا «ك» وتضحك. إنّه التاريخ: في تلك النقطة، حين التقت نظرات الجرحى بالجرحى، هل نطق أحدهم بشيء؟ وهذه النقطة الضائعة وسط البحر الأبيض المتوسط، هل كانت ذات يوم مركز تلك الجزيرة التي شهدت ميلاد المدينة؟

القذائف تتساقط فوق الجبال أيضاً. بيت شباب وبيت مري وبعبدات تتعرّض لقصف عشوائي. يوسف حبشي الأشقر يكتب: «أبي في الجنينة، الرصاص ينزل على الجنينة، لا أعرف خلف ما يختبئ. الأولاد حوالَيّ يرتجفون، زوجتي تصلّي. لا أحد منا يفهم مجانيّة هذا الرصاص».

ذات صباح تُخرج ثريا الصور من الجارور. تتفرّج على الصور واحدة واحدة. تتوقف عند صورة مقاتلين سقطوا في الدامور. ترى وجهاً يخيّل إليها انها تعرفه. شخص ممدّد على حمالة. تضع يدها على جانب الصورة، تخفي بها الضمادة البيضاء التي تغطّي أعلى الجانب الأيمن من الوجه، تشهق، تقع، تصرخ، يموت صوتها.

أهل ثريا يحاولون الاتصال بمارون، لكن دون جدوى.

في بدايات شباط يهدأ الوضع قليلاً. الوساطة السورية تتحرّك. في آذار تنفجر المعارك في كلّ المناطق. انقلاب الاحدب يفشل، وحرب الفنادق تنتهي بسقوط الهيلتون والنورماندي في أيدي القوّات المشتركة، والكتائب والنمور الأحرار ينسحبون باتجاه المرفأ وباب ادريس. القذائف تتساقط فوق بلدات بعيدة عن المحاور. في نيسان، يطالب الشيخ بيار الجميل بقوة ردع لوقف إطلاق النار وينوّه بدور سوريا «الجارة والشقيقة»، ثم يؤيّد ترشيح الياس سركيس لرئاسة الجمهورية. وفي هذا الشهر أيضاً يبدأ الجيش السوري بالتحرّك نحو ظهر البيدر.

Twitter: @ketab_n

في بدايات تموز من ذلك العام، يتصل والد ثريا بمارون عبر صديق يعمل في الصليب الأحمر.

آنذاك كانت المدرّعات السورية تتقدّم على جميع الجبهات، والقوّات المشتركة تحاول مقاومة تقدّمها. ارتدى مارون البذلة الخاصة بعناصر الصليب الأحمر، أخذوه معهم إلى الشرقية. كان نهاراً مشمساً، وكانت الشوارع مهجورة. رأى بنادق تلمع عند زوايا الطرقات، ورأى سيّارات محترقة في المواقف.

في المستشفى أعطته ثريا الصورة. الرائحة الطاغية حوله لم تكن رائحة مطهرات وأدوية بل رائحةَ دم وعرق. نظر مارون إلى الوجه المضمّد جيّداً: نعم، بالتأكيد، هذا «ك».

سألته ثريا: أليس إياه؟

هزّ مارون رأسه، وكذب قائلاً إنّه غير متأكّد.

دخل أحد الذين جاؤوا معه، ناداه: هيا، أسرعْ!

بعد أن يعود إلى الغربية يبدأ مارون اتصالاته فوراً. خلال يومين يكتشف أن «ك» في اسبانيا.

– كيف؟

المسؤول في مركز وطى المصيطبة يخبر مارون أنّ «ك» كان أحد المقاتلين الذين دخلوا إلى بلدة الدامور في ٢٠ كانون الثاني.

– و...؟

– لقد أصيب في عينيه، وأرسل للعلاج.

مارون يهاتف حسن نعماني. حسن نعماني هو مساعد مارون الأوّل والمصوّر الرئيسي لديه.

مارون يقول: سأسافر إلى مدريد غداً، سنؤجّل التصوير حتى أعود.

آنذاك كانا يعملان على فيلم تسجيلي قصير. ترك مارون كلّ شيء، ركب زورقاً عسكرياً إلى قبرص. من هناك سافر جوّاً إلى مدريد.

Twitter: @ketab_n

٣

يستقل مارون سيارة تاكسي من مطار مدريد - باراجاس الدولي إلى المستشفى، حيث يُعالج «ك». الأشجار تحيط بالطريق من الجانبين والسماء زرقاء ودافئة. سأل مارون السائق عن الطقس. كانا يتكلمان بالفرنسية. قال السائق إنّ الشتاء كان بارداً جداً. أمّا الآن، فالحرارة لا تطاق.

- لكن الجوّ ليس حارّاً جداً، قال مارون.

- الآن لا، أجابه السائق، لكن البارحة مدريد كانت جهنم نفسها.

رأى مارون تجمعاً كبيراً فوق أحد الأرصفة.

قال له السائق: هناك احتفالات جارية في جميع أنحاء اسبانيا بعد الانتخابات التي جرت في حزيران الفائت.

- ولماذا الاحتفال؟، سأل مارون.

- أنت لا تعرف بلادنا يا سيد، أنت فرنسي أليس كذلك؟ ربما كانت جبال البيرينيه هي السبب. إسبانيا كانت دائماً خارج أوروبا. حسناً يا سيّد، إنّنا نحتفل لأنّنا لم نحصل على انتخابات حرّة منذ عام ١٩٣٦. في الحقيقة انا بدات اتنفّس الأوكسيجين فعلياً قبل عامين فقط.

ابتسم مارون، فتابع السائق: أنت تعرف ماذا حصل قبل عامين؟

- أعرف، مات فرانكو، أجابه مارون.

Twitter: @ketab_n

– هنا نسميه الجنرال.

– لكنه كان مريضاً وعجوزاً.

– لا يا سيّد، أنت مخطئ، وفي كلّ الأحوال أنا لا أتوقّع أن تفهمني، فأنت فرنسي وأنا إسباني.

قال السائق ذلك ثم ابتسم معتذراً.

بدأ يتكلّم مرّة أخرى: «أنا لا أقصد أن....

قاطعه مارون بإشارة من يده ثم تكلّم: «لا داعي للاعتذار، لا تهتم، أنت محق. فرنسا لم تعرف الحرب مثلكم».

– «أعتذر، أعتذر»، قال الاسباني مسرعاً، «لا أقصد ذلك، إني لا أسخر منكم، هذا ليس قصدي. فقط أردت أن أقول إنّكم لم تخوضوا حرباً أهلية مثلنا. اسمع يا سيّدي: الحرب الأهلية هي غير الحرب. أن تدخل ألمانيا بلادكم وأن يختار البعض الوقوف إلى جانبها والبعض الآخر الوقوف ضدّها، هذا قد يكون معيباً وربما تسبب بحوادث أليمة، نعم أنا أعلم ذلك. لكن الحوادث ليست حرباً أهلية.

هزّ مارون رأسه، احتار السائق، انطلق متابعاً:

– أقصد أنّ الحرب الأهلية هي الجحيم. الجحيم ذاته. حتى على التلفزيون تبدو جحيماً، انظر مثلاً ما يجري في بيروت. لا بدّ أنكم تشاهدون ذلك على التلفزيون، حتى إنّني سمعت أن رئيس حكومتكم اقترح إرسال قوّات إلى هناك...

– هذا صحيح، قال مارون، نحن أصلاً كنا هناك قبل الحرب. ولبنان كان تابعاً لنا حتى قبل الحرب العالمية...

– ولماذا خرجتم منه؟، سأل الاسباني.

– لا أعلم، أجاب مارون، لم أكن قد وُلدت آنذاك.

ضحك السائق وقال إنّ لديه أحفاداً دخلوا إلى المدرسة.

– لا تبدو كبيراً إلى هذا الحد، قال مارون.

Twitter: @ketab_n

– نحن مثل العرب، قال الاسباني، نحب أن نمزج بين الطفولة والزواج.

ضحك مارون. كانت السيّارة تعبر تصالباً شديد الازدحام. نظر مارون عبر النافذة: المباني قديمة وضخمة ومعظمها من ثلاثة طوابق.

قال السائق: هذا الشارع اسمه كال دي الكالا، ذلك الذي تأتي منه تلك الشاحنة اسمه الغران – فيا.

نظر مارون إلى الشاحنة المقتربة، كانت مطلية باللون الأخضر، تذكر بيروت وتذكر تلك الليلة البعيدة من آذار ١٩٧٥، قبل سنتين، قبل الحرب.

كان السائق يسأله: هل أعجبته اسبانيا حتى الآن؟ وسمعه يقول شيئاً عن الأمير عبد الرحمن الثاني وعن نهر مانزانارس، وتابع التحديق في الفراغ، وفكّر أنّه عالم غريب، ثم لم يعد يسمع شيئاً. كانت الشمس تدخل عبر الزجاج الخلفي فتحرق عنقه ورأسه، وبدا له أنّه لن يصل أبداً. حتى انعطفت السيارة فجأة ورأى كاتدرائية تعبر بين شجرتين، ثم اختفت المباني جميعها، فكأنّه قد غادر المدينة. وحين نظر مرّة أخرى رأى الجبال الخضراء.

توقفت السيارة، وأشار السائق بإصبعه إلى المبنى الأبيض الكبير. دفع مارون للسائق أجرته ثم ترجل. كان هناك نسيم خفيف يأتي من جهة الشرق. بدأ مارون يتجه إلى مدخل المستشفى. وسمع السائق يهتف: تلك الجبال تدعى غواداراما، جدّي وأبي عاشا وماتا هناك.

الموظفة في مكتب الاستعلامات صعدت مع مارون إلى الطابق الثالث. كان الممرّ طويلاً، وكانت أرضه تلمع وسقفه أيضاً. وفي الجدارين المتقابلين، كان بمقدور مارون، إذا تلفّت يميناً أو يساراً، أن يرى ظلّه وظلّ الموظّفة التي تواكبه.

لم يلتفت مارون، كان يتصور وجود تلك الظلال التي ترافقه، وكان يعلم أنّها ستتوقف عند باب الغرفة رقم ٣٢٦، وأنّ الممرضة

Twitter: @ketab_n

أيضاً سوف تتوقف هناك، وأنّه، هو أيضاً، سيتوقف لهنيهة قصيرة. بعد ذلك يدخل وحده ويبقى الجميع في الخارج.

المسافة من باب المصعد، الذي لا يُصدر أدنى صوت، إلى باب الغرفة الواقعة في آخر الممرّ، بدت لمارون أطول من المسافة بين مطار لارنكا ومدريد، وأطول من المسافة بين مطار مدريد وهذا المستشفى الساكن كأنّه قبر. وفكّر مارون أنّ الممر يمتد إلى آخر العالم، وتذكّر تلك المفارقة المنطقية التي أخبره إيّاها «ك» فيما مضى: «كي تقطع المسافة من النقطة «أ» إلى النقطة «ب»، عليك أوّلاً أن تقطع المسافة بين النقطة «أ» والنقطة «ج»، هذا مع افتراض أنّ النقطة «ج» تقع في منتصف المسافة بين «أ» و«ب». لكن كي تقطع المسافة من «أ» إلى «ج» عليك أوّلاً أن تقطع المسافة من «أ» إلى «س»، مع افتراض أن «س» تقع في منتصف المسافة بين «أ» و«ج»... وهكذا إلى ما لا نهاية. وهذا يعني أنّك لن تقدر أبداً على الوصول إلى النقطة «ب» حتى لو كانت تبعد متراً واحداً فقط عن النقطة «أ» التي انطلقت منها».

تلك المفارقة التي خرجت من رأس فيلسوف يوناني قبل مئات السنين كانت الآن تدور في رأس مارون وهو يعبر ممرّ المستشفى إلى غرفة «ك». وقبل أن يصل إلى الغرفة تذكر مارون أيضاً الممر الذي قطعه قبل أيام قليلة كي يصل إلى غرفة أخرى فيها سرير تتمدّد عليه المرأة التي كان يحبّها.

نعم، في تلك اللحظة فقط، بينما كان يعبر ذلك الممرّ الطويل إلى غرفة «ك»، وبينما كان يتذكّر يد ثريا تمتدّ صوبه بصورة مقصوصة من صحيفة، أدرك مارون على نحو قاطع، أنّ حبّه لثريا قد مات.

وفي تلك اللحظة ذاتها، لحظة خاطفة كأنها سهم اخترق الهواء واختفى، وجد مارون نفسه عند الباب ينظر إلى «ك» واقفاً قبالته تماماً وهو يبتسم. وكانت ابتسامته ساحرة إلى حدّ لم ينتبه معه مارون إلى الماء الذي كان يلمع في عينيه.

Twitter: @ketab_n

٤

في تلك الليلة، وبإذن خاص من الدكتور موريللي، سُمح لمارون بالبقاء في غرفة «ك» بعد موعد إقفال الأبواب.

لم تكن الغرفة ضيّقة، ولم تكن واسعة. كانت مزوّدة بسريرين وبكرسي واحد. وكانت هناك نافذة جميلة تطلّ على الجبال. وكان بمقدور المرء، إذا فتح هذه النافذة وأخرج رأسه منها، وحدّق جيّداً إلى جهة الغرب، أن يرى ثلاث طواحين هوائية. وخلف هذه الطواحين كانت السهول الخضراء تمتدّ حتى الأفق.

تحدّثا طوال الليل. عند الفجر، أطفأ «ك» جهاز التكييف، وفتح النافذة. الضوء الأزرق - الرمادي المخيّم فوق الأشجار الموزّعة بالقرب من المستشفى، كان يتبدّل إلى لون أزرق كالح، ثم إلى لون أسود كلّما ابتعد «ك» بنظره صوب الجبال المقابلة. وحدها قمم الجبال كانت تبدو بيضاء، لكن بياضها كان داكناً كثلوج مغطاة بالغبار.

اقترب مارون، فوقف قرب «ك»، ووضع يده على كتفه.

- هل تريد أن تنام قليلاً قبل أن نذهب؟

التفت «ك» صوب مارون، بقي صامتاً، كان يبتسم، وفهم مارون أنّه لا يريد أن ينام وأنّه يريد أن يودّع هذه الغرفة بكامل يقظته.

تلك الليلة، بعد أن أخبره مارون عن ثريا، وعن مقتل أبيه مذبوحاً

Twitter: @ketab_n

بشظية أمام «صيدلية صرّاف»، حكى «ك» لمارون ما جرى له منذ أن ترك ثريا في ذلك العصر البعيد واختفى عن الأنظار.

قال «ك»: لا تسألني لماذا تركتها في التواليت وهربت من المطعم، أنا لا أعلم. فقط فعلت ذلك.

كانا يجلسان على السرير. وقربهما، فوق السرير الآخر، صندوق كرتوني كبير مملوء بالروايات. أخبر الدكتور موريللي «ك» حين جاء إلى هنا أنّ هذا الصندوق يخصّ رجلاً يدعى جوليو دينيسيس، وأنّ الرجل المذكور كان نزيل المستشفى طوال أسبوعين، وأنّه حين غادر المستشفى نسي كتبه.

بقي «ك» صامتاً فتابع الدكتور: ستسألني لماذا لم نتخلّص من هذه الروايات أو نضعها في المخزن؟ حسناً سأقول لك: جوليو ليس إسبانياً بل أرجنتيني. وهو ليس شخصاً ثرياً فحسب بدليل أنّه يقضي أيّامه متجوّلاً بين قارات العالم، بل هو ايضاً أحد أهم شعراء بلاده، أو على الأقلّ هذا موجز ما قاله لي.

ابتسم «ك»، فأكمل الدكتور كلامه: قال لي هذا الشاعر: أنا أشهر شاعر مغمور في بيونس ايرس كلّها.

ضحك «ك»، فقال الدكتور: إنّه يأتي إلينا بين فترة وأخرى كي يجري عملية المياه الزرقاء. وكما ترى فإنّنا هنا نملك الكثير من الغرف والأسرّة الخالية. بحيث أنّ هذه الغرفة تحوّلت إلى ما يشبه غرفة خاصة به، يأتي إليها مرّة كلّ سنة أو سنتين، يقضي فيها قرابة العشرين يوماً ثم يمضي.

قال «ك»: وفي كلّ مرّة ينسى كتبه هنا؟.

– لا، قال الدكتور ضاحكاً، هذه هي المرّة الأولى. لكنّه شخص لذيذ جداً، فما إن تعرفه جيّداً حتى تحبّه، رغم غرابة أطواره أحياناً. المهم أنّني فكرت بالأمر فقلت لنفسي: يا موريللي إن وضعت هذه الكتب في المخزن، فربما ضاعت أو أكلتها الفئران، وجوليو، على ما يبدو، متعلّق بكتبه، وسوف يكتئب إذا فقدها، وهو بالتأكيد سيعود

Twitter: @ketab_n

يوماً مًا، ثم إنّ هذه الغرفة تظلّ خالية. حتى لو جاء أحد، فهو لن ينام على سريرين في وقت واحد، لأنّ هذا مستحيل علمياً، حسناً يا موريللي لماذا إذن لا تترك الصندوق فوق سرير من السريرين وتنتهي المشكلة، ولا يغضب أحد. هكذا قلت لنفسي، صدقني، فكرت بكلّ شيء، حتى بالعاملة التي تكنس الأرض وتمسحها، فأنا كما ترى لم أضع الصندوق في الزاوية أو تحت السرير ولكن فوقه.

كان ذلك قبل واحد وثلاثين يوماً. ومنذ ذلك اليوم، يوم انتقاله من المستشفى الآخر إلى هذا المستشفى، بدأ «ك» بقراءة الروايات.

حكى «ك» لمارون عن المستشفى الآخر: هناك أجروا عملية لعينه المصابة وكانت العملية طويلة. وبعد أن أزالوا الضمادة اكتشف أنّه يرى الأشياء لكنّه لا يميّز أبعادها جيّداً. ثم فجأة بدأ جفنه يؤلمه.

قال «ك»:

– كان ذلك كأنّ أحدهم يحرقني بالقدّاحة تحت جفني.

فقاطعه مارون:

– هذا مستحيل، لا أحد صغير إلى هذا الحد. البرغشة نفسها لا تقدر أن تنزل تحت الجفن.

ضحك «ك» ثم تابع: المهم أنّ الذين معي نجحت عملياتهم نسبياً. هناك واحد اسمه فهد أصيب في عين واحدة وقلعوها له ووضعوا مكانها عيناً زجاجية. وهناك آخر أصيب في العينين و...

ضحك مارون، فقال «ك»: لا، لم يقلعوا الاثنتين، بالعكس نجحت عمليته وقال الطبيب إنّ الحريق سيذهب مع الوقت. ثم هناك واحد أصيب في القنطاري واستخرجوا له شظية والآن هو يبصر، لكنّه بات أحول؛ وفهد؟ ماذا قلت لك عنه؟ هل أخبرتك أين أصيب؟ فهد أصيب في صنين، كان مع رفيق له ومع آخر يدعى طلال، طلال أيضاً رفيقه. سقطت قذيفة بينهم. هو يقول إنها لامست أنف طلال وهي تسقط، أنا لا أعرف. لكن طلال مات، وفهد كما أخبرتك.

– والثالث؟ سأل مارون.

Twitter: @ketab_n

– الثالث يدعى الياس، هو أيضاً أصيب لكن إصابته لم تكن مباشرة، فقط حروق في شبكية العين. أجروا له عملية في بيروت ولم تنجح فأرسلوه إلى إسبانيا. في إسبانيا عملوا له اللازم لكنه مثلي ظلّ يشكو من النار تحت جفنه. الجهات المسؤولة أخرجتنا من المستشفى إلى فندق يدعى «لابالاس» للحدّ من نفقات الطبابة. كنا نمضي صباح كلّ نهار إلى المستشفى ثم نعود ظهراً، وبعد ذلك شفي فهد وعاد إلى بيروت، وقرّر الياس ونبيل وسميح الذهاب إلى برشلونة لأنّ الأطباء هناك أمهر. من هما نبيل وسميح؟ أيضاً جاءا على الطائرة نفسها معي. نبيل أصيب في الشياح، كان يركّب مدفع دوشكا على سطح البناية. وسميح أصيب في تل الزعتر، كيف أصيب؟ لا أعلم. لماذا؟ لأنّه هو أيضاً لا يعلم. المهم: محسوبك تذكر فجأة أنّه يملك الكثير من الأراضي في بلاد الشوف فقرّر أن يرهنها لدى أيّ مصرف في بيروت ويستخدم المال كي يتلقّى علاجاً أفضل. والجهات المسؤولة لم تعترض، على العكس هي ساعدتني. وهكذا ذهبنا معاً إلى السفارة حيث يعمل شاب شيوعي من آل صليبا. والشاب المذكور اتّصل بلبنان. وفي لبنان كان هناك شاب لطيف آخر صعد بدوره إلى كفرنبرخ وطلب من المختار ومن رئيس البلدية مساعدته فساعداه وحصلوا على الأوراق اللازمة، والشاب نزل مرّة أخرى إلى بيروت بصحبة الأوراق و....

دفع مارون «ك» من صدره. كان يضحك. وقال له إنه تبدل كثيراً، مايزال كما كان تماماً، لكنّه تبدّل كثيراً.

ضحك «ك» وسأل مارون ما معنى كلامه المتناقض هذا.

– لا أعلم، قال مارون، ثم ضحك وقال: المهم أنّك بخير.

ابتسم «ك» ونظر إلى أصابعه، قال مارون: لكن الحكاية التي أخبرك ايّاها الدكتور موريللي عن الشاعر والكتب، كلّها كذب بكذب، أليس كذلك؟.

رفع «ك» رأسه: أتقصد أنّ الدكتور كذب علي؟

ضحك مارون: لا، حقاً، ألم تؤلّفها من رأسك؟.

Twitter: @ketab_n

ابتسم «ك» وقال انه لم يفعل وان الدكتور أخبره ذلك فعلاً.

قال مارون: حسناً، هذا ممكن. إنه يبدو شاعراً هو أيضاً هذا الدكتور. ألا يكفي أنّه كسر قوانين المستشفى وسمح لي بالنوم هنا؟.

قال «ك»: «أتعلم يا مارون؟ إن ما تقوله قريب من المنطق! إن علاجي هنا يتكوّن من الدواء الذي يقطرونه في عيني، ومن التمارين على القراءة والتحديق في الأشياء القريبة والبعيدة. والدكتور موريللي قال لي إنّ بمقدوري أن أقرأ قَدْرَ ما أريد لأنّ هذا يساهم في تمرين العضلات حول الشبكية، شرط أن لا أتعب عيني كثيراً، فالعضلات هي أيضاً أحرقها الوهج وتحتاج إلى علاج بدورها... لم أفكّر في هذا من قبل، لكنّه ممكن جداً. إذن هذه الكتب تخصّ الدكتور نفسه... أنا أصلاً انتابتني الشكوك في البداية لكني نسيت. الروايات أنستني كلّ شيء...

قال مارون: الآن فقط تأكدت أنّك تكذب منذ البداية. يا لك من محتال وكاذب!

قال «ك»: لست كاذباً. أنا فقط أحلم كثيراً.

قال مارون: لكنّك قضيت كلّ هذه الليالي تقرأ هذه الروايات أليس كذلك؟ أم أنّ هذا أيضاً كذب؟

قال «ك»: لا، هذا صحيح.

قال مارون: وموت جدك؟

صمت «ك».

قال مارون: آسف. لكني أصبحت أشك في وجودي أنا هنا.

بقي «ك» صامتاً، كان يتذكر ذلك النهار حين علم بالأمر. هل كان نهار اثنين أم نهار ثلثاء؟ التقى رجلاً من بلدته أمام مكتبة انطوان، فنظر إلى الأرض وتابع سيره. ناداه الرجل وأخبره أنّ جدّه قد مات وأنّ المختار يبحث عنه.

سأل مارون «ك»: والآن، كيف عينك؟.

قال «ك» إن العلاج انتهى وإن بمقدوره الخروج حين يريد.

Twitter: @ketab_n

– ولماذا لم تخرج بعد؟

– إلى أين أخرج؟ هنا المكان هادئ، وأقرأ ما أريد.

– وحين تقرأ كلّ ما في الصندوق؟

– آتي بروايات أخرى.

– تريد أن تبقى هنا؟ في اسبانيا؟

– لو كنت قادراً على ذلك، لفعلت.

– وما الذي يمنعك؟ المال؟

– لا، ليس المال. أنا لم أرهن سوى البيت. ومازالت هناك مساحات واسعة من الأراضي، المال ليس مشكلة، منذ البداية لم يكن المال مشكلة. ربما في فترات قصيرة، حين لم يكن بمقدوري أن أطلب شيئاً من جدّي لأنّي أحسّ أنّ ذلك ليس من حقّي...

– لأنّك لم تكن تسمح له بأن يحبّك...

– جائز، لا أعلم، الآن تبدّل كلّ شيء، لا أعلم.

– إذن، هل ستعود معي أم ستبقى هنا؟

قال «ك» لمارون إنّه لا يعرف، ثم أضاف:

– اسمع هذا، حين أتعب من القراءة أنام. أتعلم ماذا أرى في المنام. أرى مشاهد من الرواية التي أقرأها، أو من تلك التي قرأتها قبل هذه الرواية... لكن أتعلم ماذا يحصل؟ أتخيّل أنّ الرواية تجري أحداثها في بيروت، وأنني البطل الأساسي، أو على الأقلّ أحد الأبطال الأساسيين...».

يضحك مارون. فيتابع «ك»:

– ثم هناك هذه الرواية. حسناً. سأخبرك الحقيقة. هذا المستشفى فيه قسم كبير هو عبارة عن مكتبة. كتب بالاسبانية والكاتالانية والفرنسية والانكليزية و... المهم كلّما قرأت الروايات التي أجلبها، ذهبت إلى المكتبة وملأت الصندوق مرّة أخرى. اسألني عن أوّل رواية قرأتها؛ حسناً، أوّل رواية كانت فعلاً موضوعة على

Twitter: @ketab_n

هذا السرير. إنها أميركية، لكاتب يدعى مارك توين، عنوانها: توم سوير».

مارون: «أعرفها، توم سوير وصديقه هاكلبيري فين.

«ك»: قرأتها؟.

مارون: لا، شاهدتها فيلماً.

ضحك «ك»، وتابع الكلام: «إنّها نسخة مبسّطة ومختصرة، أقصد النسخة التي قرأتها. وهي ليست لشاعر كان هنا، ولكن لمرضة تختار هذه الغرفة لأنّها هادئة وهنا تتمدّد وتقرأ...

مارون: عدنا إلى الكذب!

«ك»: حسناً، المهم أني ذات يوم، كنت أنظر في رفوف المكتبة فرأيت تلك الرواية؛ لن تصدّق ما اسمها!.

مارون: ماذا؟.

«ك»: هل تذكر تلك الحكاية عن الحجلة والديري والبعقليني؟.

مارون: وهل يمكن أن أنسى! حكاياتك العظيمة!.

ضحك «ك»، وقال: «اسمعْ إذن هذه الحكاية. كنت أتفرّج على الكتب، فرأيت فجأة ذلك الرسم على غلاف احدى الروايات. أتساءل ما هذا الرسم؟ وأنتبه بسرعة: إنه رسم تلك اللعبة التي كنّا نلعبها حين كنا أطفالاً، لعبة «الإكس».

مارون: لعبة «الإكس»، ما هذه؟».

«ك»: ألا تعرفها؟ كلّ الأولاد يلعبونها.

مارون: حسناً، يبدو أنني وُلدت شاباً.

ضحك «ك»، وقال: سأشرحها لك أيّها الشاب. نرسم على الأرض مربعات بالطبشور ونضع عليها أرقاماً. أربعة مربعات متتالية عمودياً ثم ثلاثة أخرى أفقياً، أي نرسم صليباً من المربعات، أي «إكس».

مارون: لماذا؟ هل أنت أحول؟ «الإكس» ليس صليباً!.

قال «ك»: المهم، كيف نلعب؟ يقذف اللاعب حجراً فوق المربعات

Twitter: @ketab_n

المرسومة على الأرض، ثم يقفز على قدم واحدة كي يلحق بالحجر. وبعد أن يلحق به، عليه أن يقذفه بقدمه إلى مربع آخر وأن يتابع القفز حتى المربع الأخير حيث البيت الأخير أو السماء. فإذا استطاع اللاعب أن يفعل ذلك، دون أن تطأ قدمه أحد الخطوط الفاصلة، أو تنزل قدمه الثانية في أحد المربعات أو البيوت، ودون أن يستقرّ الحجر على أحد الخطوط، فإنّه يكون قد فاز، وإلاّ كان نصيبه الفشل وأتى دور اللاعب الثاني كي يحلّ محلّه في اللعب. وإذا استطاع اللاعب أن يصبر على الحجل دورات معينة كان له أن يستريح على قدميه معاً في أحد المربعات أو البيوت...

مارون: إذن؟.

«ك»: ألم تنتبه؟ القفز على قدم واحدة؟ الحجل؟ أن تحجل أي أن تقفز على قدم واحدة، مثل الحجلة. هذه اللعبة التي نسمّيها نحن «الإكس» اسمها في اللغة الاسبانية RAYUELA أي «لعبة الحجلة» وهذا هو عنوان الرواية التي أحدّثك عنها.

مارون: حسناً، هناك شخص آخر غيرك في هذا العالم يملك رغبات شاذة تجاه طائر الحجل، ماذا يعني هذا؟.

«ك»: اصبر قليلاً! طلبت من الموظفة أن تترجم لي ما كتب على الغلاف الأخير من الكتاب لأني لا أعرف الاسبانية، ففعلت الموظفة ذلك. وعندئذ أدركت أنّ عليّ أن أحصل على هذه الرواية بلغة أفهمها. الموظفة قالت إنها لا تستطيع أن تساعدني لأنّ دوام عملها يبدأ صباحاً وينتهي ليلاً وبالتالي فهي لا تستطيع أن تنزل إلى السوق لتفتش لي عن الرواية. عندئذ استعنت بالدكتور غونزاليس. نعم، اسم الدكتور ليس موريللي، هذه كذبة أخرى اكشفها لك. المهم أنّ الدكتور غونزاليس حصل لي على الترجمة الانكليزية للرواية: Hopscotch، أيضاً معناها «لعبة الحجلة».

مدّ مارون يده، أمسك الكتاب السميك، قلّبه بين يديه. قرأ على الغلاف: Hopscotch. وتحتها: Cortazar.

Twitter: @ketab_n

قال «ك»: دخلنا الدامور من جهة عرمون. انفجرت قذيفة إينيرجا أمامي.

وقال أيضاً: البطل في هذه الرواية يدعى أوليفييرا ويظل يشرب المتّة لأنّه أرجنتيني.

توقفا عن الكلام قبيل الفجر. قال «ك» انه بعد أن قرأ تلك الرواية أدرك ما الذي سيفعله في حياته.

مارون: تكتب؟.

«ك»: لا. أفتش عن روايات جميلة كي أقرأها.

اتفقا: يغادران المستشفى في الصباح التالي، يستأجران غرفة في فندق، يتجوّلان في مدريد يومين أو ثلاثة، ثم يعودان إلى بيروت معاً.

نفذا نصف الاتفاق، حصلا على غرفة جميلة وتفرّجا على الحدائق والشوارع. لكن مارون عاد إلى بيروت قبل «ك». «ك» قال إنه سينتظر حتى يهدأ القصف قليلاً.

قال «ك»: لم أعد أتحمّل الضجة. إنها تمنعني من القراءة.

Twitter: @ketab_n

٥

ركب مارون الطائرة متوجّهاً إلى قبرص. كانت مدريد تبتعد من تحته، ثم تحوّلت الأرض إلى سهل أخضر فسيح كالسماء.

قال مارون لنفسه: سيتبعني «ك» بالتأكيد.

طلب عصيراً مثلّجاً، وقال في نفسه: لن يتبعني، سيختفي مرّة أخرى.

أخرج من حقيبته إحدى الروايات التي أعاره إياها «ك». أخذ يتصفّحها.

قال له «ك»: ستعيدها إليّ في بيروت. أريد أن أكوّن مكتبة ضخمة، كالمكتبة التي رأيتها في هذا المستشفى. أتدري ماذا سأفعل أيضاً؟ سأشتري رسماً كبيراً فيه ثلاث طواحين.

مارون: لكن ما المميز في هذه الرواية إلى هذا الحدّ؟

«ك»: لا شيء. اسمها فقط. أنت تعرف أنّ تلك القصّة سكنتني دائماً. ثم هناك هذه اللعبة التي اكتشف فجأة أنها تحمل الاسم ذاته: الحجلة. وحين تقرأ لي الموظفة، ذات الوجه المغطّى بالحبوب، ما كتب على الغلاف الأخير بالاسبانية ثم تترجمه لي، أحسّ كأنّني أجلس في بيت جدّي، وكأنّني ما أزال في الثامنة أو السابعة أو العاشرة من العمر. أقصد أنّهم يشربون المتّة مثلنا، وهناك تلك الحرارة الفظيعة المعلّقة في الفضاء، ويخرجون رؤوسهم من النوافذ

Twitter: @ketab_n

كي يستعيروا بعض الجيربا لإعداد المتّة. ثم هناك ترافيلر وزوجته تاليتا. حسناً، سألخّص لك الرواية: الأرجنتين أوضاعها سيّئة، اضطرابات سياسية وفقر إلخ... المهم أنّ الرواية تبدأ في باريس. هناك يتجوّل أوليفييرا مع امرأة تدعى لاماغا. يشرب الكحول ويدخّن ويسمع الجاز ويقرأ الروايات، الروايات ذاتها التي قراتها خلال هذا الشهر تقريباً... المهم أنّه يشرب مع أصحابه في غرفة صغيرة ثم يذهب مع لاماغا، ينام معها وتنام معه ويقول أوليفييرا إنّه لا يحبّها. دائماً هكذا. أوليفييرا يقول لنفسه إنّه فقط يبحث عن مركز الأشياء. لكن ما هو هذا المركز؟ حسناً، هو أيضاً لا يعلم. ولاماغا لها ابن اسمه روكامادور، تختفي حين يموت. هل أغرقت نفسها في السين، هل عادت إلى الأرجنتين؟ لا أحد يعلم. لكن قبل أن تموت ذات ليلة، وسط الدخان وموسيقى الجاز ورائحة الفودكا، تقول لأوليفييرا شيئاً سيتذكره دائماً. آه، لم أخبرك أن أوليفييرا يتجوّل في شوارع باريس وهو يفكّر في شوارع في مونتيفيديو أو بيونس آيرس. وبماذا يفكّر أيضاً؟ بصديقه، ترافيلر. ترافيلر تعني «المسافر» كما تعلم. لكن ترافيلر لم يسافر خارج بلاده قط، وإن كانت تاليتا تقرأ له من الانسيكلوبيديا دائماً عن جغرافيا بلدان تقع في أقصى الشرق.

سأخبرك ماذا قالت لاماغا لأوليفييرا. أوليفييرا كان يشرب المتّة، لا، الكلمة الصحيحة ليست «يشرب»، بل «يرشف»، بل «يمص». لأنّهم في الأرجنتين مثلنا ينقعون الجيربا أو المتّة في القرعة، ويسكبون فوقها الماء الساخن ثم يستخدمون البومبيجة. أنا فتّشت عن الكلمة في القاموس الاسباني، أو بالأحرى حلمت أنّي أفتّش عن الكلمة. قلت لنفسي، أو رأيت في المنام، إن البومبيجة تعني «الأنبوب الماصّ المزوّد، في أسفله، بمصفاة تمنع صعود قش الجيربا إلى رأس الأنبوب، فتمنع دخول هذا القش إلى حلق الشارب. والذي حصل أني لم أجدها. ربما كانت الكلمة تركية الأصل، لا أعلم، هم لا يشربون المتّة هناك. نحن أخذنا المتّة من الأرجنتين. المهاجرون الموارنة جلبوا ذهباً من أميركا الجنوبية، والمسلمون كذلك. أما نحن،

Twitter: @ketab_n

فلا. نحن رجعنا بأكياس جيربا ماركة «كروز دى مالطا». جدّي أخبرني عن امرأة عجوز كانت تزرع الجيربا، والجيربا، كما تعلم، نبات يابس. كانت تزرعها في الجنينة خلف البيت وتنتظرها كي تنمو لأنّها كانت تحسبها بذوراً. بعد ذلك، حين رجع ابنها من الأرجنتين واكتشف أنّها رمت كل تلك الأكياس في أرض الجنينة وأفسدتها بمياه الريّ، طار عقله. جدّي أخبرني أن ذلك الابن كان يخطّط للمتاجرة بأكياس المتّة في الجبل. وأنّه كان يبيع الأساور والمناديل في الأرجنتين ويشتري بثمنها أكياس «كروز دى مالطا» ويرسلها إلى أمّه في كفرنبرخ مع المهاجرين العائدين في البوابير. والنتيجة: ضاعت تحويشة العمر في الجنينة خلف البيت القديم، وطار عقله. لكن ماذا كنت أخبرك؟ كنت أخبرك عن المتّة، حسناً، في الباراغواي أيضاً يشربونها، لكن في قرعة. هل أخبرتك كيف نصنع قرعة المتّة؟.

مارون: أخبرتني من زمان. تقطفونها خضراء مثل الكوسا ثم تنقرونها وتجففونها في الشمس، وبعد ذلك تشوونها في الفرن حتى تصير قاسية كالخشب. صحيح؟.

«ك»: صحيح. وفي الأرجنتين يفعلون مثلنا، لكن في الباراغواي لا. هناك يشربونها كالشاي. يغلونها مع الماء ثم يسكبونها في أكواب ويضيفون السكر حسب المزاج.

مارون: وطعمها كالشاي؟.

«ك»: كما وصفتها لك، طعمها خراء. وعلى ما يبدو فإنّ أهل الباراغواي لا يملكون حاسّة الذوق.

مارون: لكن ماذا قالت لاماغا لأوليفييرا؟.

«ك»: قالت له إنّه مثل الشاهد. وهذه كلماتها: «أنت مثل الشاهد. أنت الواحد الذي يذهب إلى المتحف ويتفرّج على الرسومات. أقصد أنّ الرسومات هناك، وأنت هناك أيضاً، قريب وبعيد جداً في آن معاً. أنا رسم. روكامادور رسم. إتيان رسم، هذه الغرفة رسم. أنت تظن أنّك في هذه الغرفة، لكنّك لست فيها. أنت تتفرّج على الغرفة، أنت لست في الغرفة.

Twitter: @ketab_n

الطائرة فوق البحر الأبيض المتوسط. مارون يتذكر كلمات «ك».

قال «ك». انه منذ زمن بعيد وهو يحسّ الشيء نفسه. ماذا تحسّ؟، سأله مارون.

قال «ك»: أحسّ أنّني هنا، لكنني لست هنا.

مارون: «تقصد في إسبانيا؟ منذ أن جئت إلى هنا؟».

«ك»: لا، منذ البداية، منذ أبعد وقت أستطيع أن أتذكره. حين حصل ذلك مثلاً، اقصد يوم أخبرتني جاكلين عن سفرها وكان ميشال وكانت جدّتي. أو: وأنا أدخل ذلك البيت قبل أن تنفجر القذيفة أمامي على الحائط.

عبرت الطائرة مطبّاً جوّياً، قال مارون: لن يرجع.

بعد ذلك تذكر ما حكاه «ك». عن المنامات التي تأتيه بعد أن يفرغ من القراءة في إحدى الروايات، وتذكر كلامه عن شوارع بيروت، وعن نزهاته الطويلة على كورنيش المنارة.

عبرت الطائرة مطبّاً ثانياً، قال مارون: سوف يرجع.

في الزورق الذي ركبه من قبرص إلى بيروت استعاد مارون مرّة أخرى تفاصيل أحاديثه مع «ك». خلال الأيام الماضية. كان هواء البحر المالح يغمره، وجلبوا له مظلّة كي يستظلّ بها من شعاع الشمس الحاد، وكان يتخيّل نفسه جالساً في حديقة «ريتيرو» في مدريد، يشرب المتّة مع «ك» كما كانا يفعلان أيام شقّة الصنائع، ومعاً يتفرّجان على نافورة المياه المزيّنة بالتماثيل الحجرية.

عثر «ك» على جيربا ماركة «كروز دي مالطا»، وعلى بومبيجة وقرعة مصنوعة من الخزف في متجر كبير يقع آخر «الغران – فيا»، بالقرب من صالة سينما مقفلة بسبب التصليحات. واشترى مارون من متجر قريب «بابوراً» صغيراً يعمل على السبيرتو. ملأ له البائع خزان «البابور» مجاناً.

جرى ذلك خلال النهار الأوّل من تَجْوالهما في مدريد. وسأل مارون «ك» مرّة أخرى عن إصابته في الدامور. فسكب «ك» ماء

Twitter: @ketab_n

ساخناً في القرعة ثم أعاد تثبيت الإبريق النحاسي فوق البابور المشتعل وقال إنه لم يكن هناك.

قال «ك»: أنا لم أكن هناك. بلى، كنت، ولكن لم أكن أنا. لا أعرف كيف أشرح لك ذلك. قلت لك إن هذا يشبه أن تعيش حياة ليست حياتك. لكن في الوقت نفسه فأنت تعلم أنّ حياتك غير موجودة، أو ربما لا تعلم ذلك بالتأكيد، لكنّك على كل حال تتصرّف على هذا النحو. فأنت لا تترك ما تعيشه وتذهب للبحث عن الحياة التي تحسب أنها حياتك.

مارون: لم أفهم شيئاً. أهو رأسك؟ هل تضايقك الشمس؟.

ضحك «ك».

فقال مارون:

– تعال، اقترب من هذه الجهة. هنا مزيد من الظلّ.

كان ظلّ الشجرة خلفهما يغطّي نصف المقعد فقط، وتحرّك «ك». صوب مارون.

«ك»: أنا أيضاً لم أكن أفهم. عليك أن تقرأ روايات كي تفهم. في البداية كنت أحسبني مجنوناً أو مريضاً. الآن، لا. بل أنا الآن سعيد. إن ذلك يشبه ما قالته لاماغا لأوليفييرا. كيف أشرح ذلك؟ انه يشبه ذلك الاحساس لحظة خروجك من صالة السينما، أنت تعلم!.

مارون: تحسّ أنّك تعيش كأنّك تمثّل في فيلم!.

«ك»: هذا هو. ولكنّ هناك شيئاً آخر أيضاً.شيء أُحسّه، لكنني، على ما يبدو غير قادر على أن أصفه لك. أو غير قادر حتّى على وصفه لنفسي.

مارون: «وذلك الشيء بدأت تحسّه هنا، بعد إصابتك، وبعد أن بدأت تقرأ روايات؟.

«ك»: لا تهزأ. إني أقول لك ما أشعر به. لا، لم تأتِ هذه الأحاسيس الآن، إنها في داخلي منذ البداية. هل تريد أن تعرف ما

Twitter: @ketab_n

الذي تبدّل؟ الآن أصبحت قادراً على الشعور بتلك الأحاسيس بهدوء، ودون ألم، ودون شعور بالذنب.

مارون: «شعور بالذنب!.

«ك»: نعم، بأن تسمح لنفسك أن تكون شاذّاً ومختلفاً.

مارون: لكنّي أنا أيضاً أحسّ أحياناً أنّني في فيلم، في هذه اللحظة بالذات مثلاً، وأنا أمسك بهذه القرعة الغريبة مثل درزي أو أرجنتيني أو لا أعرف مثل من. لكن هذا بالتأكيد لا يجعلني أفكّر أنّني شاذ وأنّني مختلف وأنّني لا أعرف ماذا.

«ك»: أعرف. أتظن أنني لا أعرف؟.

مارون: إذن؟.

«ك»: إذن ماذا؟.

مارون: تباً. أريد أن أفهم لماذا لا يشعر أحدنا كما يشعر الآخر؟.

«ك»: لا أعرف. حسب رأي الناس: لأنّك أقوى منّي. أنت تتغلّب على ذلك الإحساس بأنّ العالم مزيّف، وبأنّك أنت أيضاً مزيّف، وتخرج من تلك الحفرة وتمشي وتذهب وتصنع فيلماً أو تشتري سيارة أو تصادق أحدهم أو لا أعلم ماذا. إنّك كائن عملي وقادر على السيطرة على نفسك وعلى هذه الأشياء.

مارون: وأنت؟.

«ك»: أنا لا. أنا لا أريد أن أصعد من الحفرة. الحفرة تعجبني. الحفرة جيّدة. الحفرة هادئة.

مارون: وماذا ستفعل فيها؟.

ضحك «ك»، فضحك مارون وقال: بالطبع! ستقرأ روايات!.

Twitter: @ketab_n

٦

رجع «ك» إلى لبنان. الحرب تستريح. القصف متوقف. ركب سيّارة تاكسي، وذهب إلى بيت مارون الجديد. مارون استأجر بيتاً قريباً من الشقّة القديمة في الصنائع.

قال سائق السيّارة: إنّ المطار قد يغلق مرّة أخرى بسبب الطائرات التي احترقت. ابتسم «ك»، فتابع السائق قائلاً إنّها بلاد مضحكة: «لماذا يفتحونه إن لم يكونوا قد نظّفوه جيّداً بعد؟».

فكر «ك»: خدمة خاصّة من أجلي، فتحوه لأنّي اشتقت إلى هذه الشوارع. وهذا كل ما في الأمر.

اتصل مارون بقريب له يعمل سمساراً.

جاء السمسار فقال لـ«ك»: لديّ شقّة فخمة جداً، ٣ نوم، صالونان، سفرة. من أحسن ما يكون. في أحسن موقع. يمكننا أن نذهب إليها الآن إذا أردت.

– أين؟

– شارع بدارو، حرج الكفوري. سأتصل بهم الآن ثم نمشي.

قال مارون: والسعر.

قال السمسار: ١٦٠ الف ليرة. سأحاول جهدي. قد نصل إلى ١٥٠ الفاً. سعر ممتاز. إنّهم يريدون السفر. يريدون أن يهاجروا ويحتاجون مالاً بسرعة.

Twitter: @ketab_n

قال مارون: هذا ليس مبلغاً صغيراً.

ضحك السمسار: إنّنا نشتري بيتاً، وليس كيلو بندورة».

ضحك «ك»: أريد شقّة أصغر.

قال مارون: أنا أقول أن لا تشتري شقّة الآن. لماذا لا تستأجر واحدة يا أخي؟ وحين تهدأ الأوضاع تماماً نشتري.

قال السمسار: حين تهدأ الأوضاع تماماً لن تجد هذه الأسعار.

قال «ك»: كلام صحيح. إذاً، هل لديك شقّة أصغر؟.

قال السمسار: لديّ واحدة من ثلاث غرف، لكن مساحتها ١٠٠ متر مربع فقط. وسعرها ممتاز.

مارون: كم؟.

السمسار: ٤٠ ألف ليرة.

«ك»: أين؟

السمسار: أنطلياس.

انفجر «ك» ضاحكاً، وقهقه مارون.

ذهب السمسار، قال إنه سيرجع في الغد.

صعد «ك» مع مارون إلى الجبل.

كان «ك» قد رسم لنفسه خطّة واضحة: سيبيع عقاراً كبيراً، فيشتري شقّة صغيرة، ويستثمر المال الباقي، وتبقى العقارات الأخرى جامدة.

قال مارون: ضع قسماً من المال في المصرف، وسنبحث عن طريقة نستخدم بها ما يبقى.

اشترى «ك» أسهماً في شركة سبلين للترابة.

دبّر له مارون أمر شراء بعض الأسهم في شركة إعلانات يملكها والد أحد أصدقائه.

لم يجد السمسار شقّة كالتي طلبها «ك».

Twitter: @ketab_n

وفي عصر أحد الأيام، كان «ك» يتجوّل في شوارع الحمراء، متذكّراً السنوات التي سبقت الحرب، كأيام مدرسة الاستقلال، وأيام الجامعة الأميركية، فوجد نفسه فجأة أمام فندق الكومودور.

وكانت هناك شجرة صغيرة تقف عند الزاوية وأمامها علقت اللافتة التالية: «شقق مفروشة، الكومو - غاردن». وتحت هذه اللافتة سهم من الخشب.

قطع «ك» الأمتار القليلة التي تفصله عن البناية المذكورة. الشارع ضيّق، مغطّى بالكلس. وفوق الرصيف القريب رأى «ك» كومة رمل وعربة حديدية مقلوبة على جنبها.

فجأة تذكر غرفة المستشفى في مدريد. وتذكّر وقع تلك الخطوات تتقدّم في الممرّ. كان ممدّداً في السرير يقرأ رواية لكاتب ياباني حين سمع تلك الخطوات الموقعة. تلك الخطوات يعرفها، من أين، من أين؟ وكان هناك حفيف يرافق طرقات الحذاء على بلاط الممر المطلي بالشمع. ذلك الحفيف عرفه «ك». فوراً، إنّه الحذاء القماشي الخاص بالممرّضات، وبجميع موظفي المستشفى. لكن تلك الخطوات؟ وتذكر شقّة الصنائع، وهو جالس في سرير مارون يشرب المتّة ويقرأ يوميات أحد كبار الجنرالات النازيين، وكان باب الشقّة يفتح ثم يغلق، وكان يسمع صوت الخطوات المقتربة، نعم الخطوات نفسها. قفز قلبه، ترك السرير، صعدت المياه إلى عينيه، أسرع نحو الباب، رأى مارون والموظفة قربه.

والآن، فيما يقطع الأمتار القليلة التي تفصله عن مدخل ا لكومو - غاردن، كان «ك» يتساءل: هل سيجد شقّة مناسبة، وأحسّ «ك» أنّه سيجدها: فقط غرفة واحدة مع حمّام ومطبخ، ونافذة كبيرة، بما يكفي ليلصق فوق زاويتها صورة سهل أخضر تتوسّطه ثلاث طواحين هوائية عملاقة.

ولطّخ الكلس حذاء «ك» الأسود وقال لنفسه إنّ عليه أن يشتري حذاءً أخف وزناً، وفكّر، للحظة، بما أخبره إيّاه مارون في تلك الليلة، وكيف أنّه، بينما كان يعبر الممرّ بصحبة موظفّة الاستعلامات، تذكر

Twitter: @ketab_n

مفارقة زينو الرهيبة وأحسّ أنّه لن يصل إلى مبتغاه أبداً، وكانت الشمس تغيب وراء الفندق الضخم، وخطا «ك» خطوة إلى اليسار، وانحنى قليلاً كي لا يخبطه الغصن المتدلّي من الشجرة، ثم رفع رأسه فوجد نفسه أمام بوّابة البناية.

نظر إلى الواجهة الزجاجية للمتجر القريب فرأى أطيافاً تعبره. التفت بسرعة فرأى سرباً من الحمام كان يبتعد شرقاً. وعندئذ فقط انتابه ذلك الإحساس. إنّه يعيش مرّة أخرى حياة لا تشبه إلاّ المنام. وفي هذه المرّة كان يبتسم، وكان الأمان يملأ قلبه. وعرف أنّ هناك غرفة تنتظره في الداخل كي تكون غرفته وبيته الأخير.

وهكذا دخل «ك» إلى بناية الكومو - غاردن للمرّة الأولى في حياته وهو يحجل على قدم واحدة. وكان يقفز بحذر شديد ووصل إلى المكتب الزجاجي دون أن تطأ قدمه خطاً واحداً، وكان ذلك سهلاً جداً، واستدار «ك». إلى الخلف كأنّه يلعب مع شخص آخر، وقال: الآن، دورك!.

كانت الشجرة تتمايل وحيدة أمام المدخل، فابتسم لها.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الجزء الخامس

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١

ليس هناك شيء أسوأ من الاستيقاظ في ظلمة مطبقة، ظلمة قد تكون حقيقية: لأنّ الليل قد بدأ في الخارج، أو ظلمة قد تكون مخادعة: لأنّ النهار مازال في منتصفه، ولكنها تلك الستائر اللعينة التي لا تسمح، لذرة واحدة من الضوء، بالدخول إلى هذه الغرفة الموصدة. إنّك تستيقظ، إنّك تفتح عينيك، لكنها الظلمة اللعينة. متى انطفأ المصباح؟ هل أطفأته قبل أن تنام، أم هي الكهرباء انقطعت عن المدينة؟ وإذا كانت الكهرباء مقطوعة، فلماذا لم يُشَغِّل محمد أو عبدو مولّد الكهرباء، كما يفعلان عادة؟

لا، ليس من شيء أسوأ من الاستيقاظ في ظلمة مطبقة. هذه ظلمة لا تستطيع عيناك أن تعتداها. فقط ترى خيط ضوء في الزاوية، خيطاً يبدو كحبل آخر من حبال الستائر، لكنّه أرفع منها. وتقول لنفسك إنّك بخير.

لكنك خائف. رائحة الدخان في أصابعك وثيابك، ورائحة الكحول تفوح من فمك وبطنك. وتقول لنفسك إن ثيابك ليست ثيابك، وتدخل يدك تحت بنطلون البيجامة وتتلمّس نفسك، وتقول إنّ المرهم قد نفعك.

عيناك تتعلقان بخيط الضوء كأنّه قصبة، وكأنّ العتمة حولك مياه بركة آسنة تجذبك إلى أسفل. وتقول: هذه القصبة ستنقذني، فلأتمسّك بها!

Twitter: @ketab_n

لكن، ليس هناك أسوأ من الاستيقاظ في ظلمة مطبقة. أنت الآن تدرك هذا جيّداً، و«ك» أيضاً كان عليه أن يدرك هذا قبلك: «ليس هناك شيء أسوأ من الاستيقاظ في عتمة دامسة.

كأنّ عليك أن تعود إلى مباشرة العيش مرّة أخرى، ومن البداية. حين فتحت عينيّ كان ذلك كأنني أعيش حياة شخص آخر. وبعد وقت طويل جداً، بدأت هذه الحياة الأخرى بالتطابق مع حياتي. مثير للفضول هذا التطابق: حياتي أنا كحياة آخر. وبدا لي أنّه من غير المحتمل أنّ شخصاً مثلي يمكن حتّى أن يكون حيّاً».

ليست الظلمة فقط هي ما يثبتك إلى السرير على هذا النحو. كأنّ أقزاماً غير مرئيين قد حَشَوك بالرصاص خلال نومك، ثم ثبتوك بخيوطهم إلى الأرض كأنّك العملاق جلفر. لا، ليست الظلمة فقط. لكنّه أيضاً هذا الصمت المطبق كضباب كثيف، صمت لم تكن تعلم، فيما مضى، أنّه موجود حقاً، وكنت تحسَب أنّه لا يكون إلاّ بعد إنزال الجسد في تلك الحفرة التي يعلوها صليب وبلاطة رخام.

ثم تتذكر تلك الكلمات: «الحفرة تعجبني. الحفرة جيّدة. الحفرة هادئة».

تقفز عن السرير كأنّ ثعباناً لسعك بنابه المسموم. وفي اللحظة ذاتها تتذكر تفاصيل الكابوس. منذ أيام وأنت تشاهده، فكنت، كلّما فتحت عينيك، وجدت مشاهده تتلاشى. لماذا تتذكره الآن؟ المطاردة حتى الوادي، الركض بين الأشجار، الضوء الذي يغيب، تسلق شجرة الزيتون، رؤية ذلك الكوخ، الذهاب إليه، وصحن الحساء الذي ينتظرك مع رغيف الخبز، ثم دخول «ك».

وتقول لا. كان هناك عقرب أيضاً، وبعد ذلك يأتي «ك». لأني أنتظره. نعم، «ك» مثل الكوخ. أرى الكوخ لأني أريد أن أراه، ويأتي «ك» لأني أريده أن يأتي. ويقول لي إنه لا يريدني أن أبحث عنه كي أفهم أنّه يعني عكس ما يقول. ثم نرى الثعبان. الثعبان يقفز، يقص الهواء صافراً كأنّه شريط نحاس، و«ك» يخبرني أنّ هذا الثعبان هو أيمن شامل.

Twitter: @ketab_n

صوته يرتجف. أفهم أخيراً ما أرى: الثعبان هو العالم أيضاً.

ذات مرّة حكى لي «ك» أنّ هناك، تحت الأشرفية، مغارة عميقة تمتد حتى ساحة البرج. في بيروت القديمة كان هناك جامع اسمه جامع الخُضر. والمغارة التي تبدأ قرب هذا الجامع، وتمتد حتى الأشرفية، اسمها مغارة مار جرجس.. وقال «ك» إنّ هناك كنيسة تحمل هذا الاسم أيضاً، وأنّ المؤرّخ ادريكويوس ذكر في أحد كتبه أنّ المغارة المذكورة كانت مأوى للتنّين الذي قتله مارجرجس كي ينقذ ابنة الملك.

يدل «ك» باصبعه إلى الثعبان. العالم تبدّل منذ تلك الأيام. القارّات تقاربت، كل شيء بات أصغر حجماً، والتنّين أيضاً.

عام ١٩٨٢ كانت الطائرات الاسرائيلية تقصف بيروت ليلاً نهاراً. القوّات المشتركة كانت تقاوم في الناعمة وفي مثلث خلدة، حيث المدخل الجنوبي للعاصمة. سقطت قذيفة فوق فندق الكومودور، تحطّم الزجاج في بناية الكومو – غاردن. وحده زجاج البوّابة في غرفة «ك» لم يتحطم. نزل محمد مع عبدو إلى قبو البناية. سننظف المكان ونحوّله إلى ملجأ، قال محمد. معظم سكان البناية هربوا. والعجوزان اللذان يسكنان في الطابق السادس، قرب شقة «ك»، غادرا إلى بيت ابنتهما الأكثر أمْناً.

وجد عبدو ثعباناً في القبو، لحق به وقتله بعصا المكنسة. طول الثعبان يجاوز المتر، ضحك عبدو وقال إنه في بنغلادش كان يموت خوفاً من الثعابين.

الأيام تتبدّل، فكّر «ك»: التنّين يتحوّل ثعباناً ومارجرجس يتحوّل إلى عبدو.

في الكوخ، رأى مارون ناب الثعبان، رآه يلمع كمرآة.

قال مارون لـ «ك» إن الواحد لا يستطيع أن يهرب من العالم.

قال «ك»: بلى، في حفرتي لا أحسّ بالعالم.

أجابه مارون: في حفرتك راديو. هذا الراديو هو العالم أيضاً. إنّه يأتيك بكلّ الأخبار، أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

قال «ك»: سأكسره.

تابع مارون: وهناك رأسك أيضاً.

نظر «ك» إلى أصابعه.

وضع مارون يده على رأسه: «الثعبان هنا»، قال.

وقف «ك»، فتح باب الكوخ ومضى. كان الثلج يتساقط في الخارج ورأى مارون رقعاً بيضاء تشبه الطلاء، وكانت الرقع تلطّخ حذاء «ك». حدّق مارون جيّداً. كان «ك» يبتعد قافزاً على قدم واحدة.

وسمع مارون تلك الكلمات: «سأبحث عن حفرة أخرى. حفرة لا راديو فيها، ولا رأس».

يقفز مارون من السرير كأنّ ثعباناً لَسَعَه.

يفتح مارون الستائر فيرى المطر ينهمر كالحبال. يفكّر أنّه في حياته كلّها لم يرَ مطراً ينهمر بهذه الغزارة. ينظر إلى السماء معلّقة فوق سطح الفندق المهجور، سماء ثقيلة وسوداء كأنها تربض فوق وجهه. يغمض عينيه. قبل زمن بعيد، عند المساء، كان «ك» يقف هنا في العتمة وينظر إلى أضواء الفندق المواجه. كان يراقب النزلاء ويخترع لهم سِيَراً وحيوات، وحين ينتابه الضجر يغلق الستائر ويعود إلى الرواية التي يقرأها. بعد ذلك يقفل الفندق أبوابه. متى كان ذلك؟ في شباط أم في آذار ١٩٨٧؟.

تحوّل الفندق إلى مركز للجنود، إلى شبح عملاق من الباطون، إلى غولٍ رابض خلف الجدار – النافذة لغرفة «ك». وقال «ك» لمارون إنّ هذا الغول بات صديقه، مَثَلُه كَمَثَلِ البرّاد الذي يشبه هرّة خائفة، أو المكتبة التي تشبه عجوزاً عمياء.

– عجوز عمياء؟

– نعم، لقد أتلفت القراءة عينيها.

قرأ مارون في مجلة أنّ الكتّاب يَشْكون في أيامهم الأخيرة من التكلّس في معاصمهم وأصابعهم. نعم، الكتابة تتلف عظامهم.

Twitter: @ketab_n

يذهب مارون إلى المطبخ، فيعثر، في علبة تنك، على بعض البنّ. مقدار ملعقة طعام واحدة. يشعل الغاز ويملأ الركوة بالماء حتى منتصفها.

يشرب القهوة ويدخن سيجارتين. بين الكاسيتات يجد كاسيت Electric Ladyland لجيمي هندريكس. يضع الكاسيت في آلة التسجيل، يستمع إلى الصراخ المجنون للغيتار الكهربائي، ويتذكر ذلك اليوم من عام ١٩٧٠. كان «ك» جالساً على الشرفة، يقرأ ويشرب المتّة، وكان مارون مع ثريا في غرفة النوم، وكانا يشاهدان التلفزيون. فجأة صرخت ثريا. كان التلفزيون يبثّ خبر موت جيمي هندريكس بسبب جرعة زائدة من المخدرات.

وقال مارون إنّ الأيّام تبدّلت. والبيتلز زالوا. لكن الرولينغ ستونز مازالوا هنا، بوجوههم المتجهّمة وصراخهم الفظيع. وتذكّر يوم منع كمال جنبلاط دخول جوني هوليداي إلى بيروت، وضحك.

وجد كاسيتاً لفيل كولينز، وضعها في آلة التسجيل. ترك كاسيت جيمي هندريكس قرب آلة التسجيل.

في الخارج كان الرعد يقصف، فيصل الصوت إلى مارون مكتوماً، والبناية ترتجف. مرّة أخرى تذكّر مارون بيوت الاسكيمو. ابتسم وقام واقفاً. ذهب إلى زرّ الكهرباء ورفعه إلى أعلى، شعّ ضوء اللمبة. حاول أن يتذكّر متى أطفأها، فلم يتذكّر.

بعد أن اغتالوا كمال جنبلاط، وحصلت تلك الحوادث في الجبل، قرّر «ك» أنّه لن يستمع إلى الراديو أبداً. وفكّر، للحظة، أن يحطّمه ويرمي به عن الشرفة. لكنّه، في اللحظة التالية، تذكّر أنّه لا يستطيع التخلّي عن آلة التسجيل. كانت آلة التسجيل صديقته الوحيدة، وبواسطتها لم يكن يستمع إلى الموسيقى أو الأغاني فقط، ولكن إلى صوته هو أيضاً. ففي بعض الليالي كان يحلو له أن يسجّل صوته على كاسيت كي يعيد الاستماع إليه وهو يشرب النبيذ أو البيرة أو المتّه. وذات مرّة، سجّل على كاسيت لعبد الحليم حافظ عبارة «صباح الخير يا حلو» مكرّرةً أكثر من ثلاثين مرّة. وفي صباح اليوم

Twitter: @ketab_n

التالي، فور استيقاظه، قام بتشغيل الآلة مسروراً، وردّ على التحيّات الصباحية بعد كل «صباح الخير يا حلو» بعبارة «أسعد الله صباحك».

خلال عام ١٩٧٨، تزايدت عنده فترات الصداع، ولم يعد قادراً على تحمّل الأصوات: الأصوات القادمة من الشقق المجاورة، الأصوات القادمة من الشارع، الأصوات القادمة من الفندق القريب، والأصوات القادمة من السماء. ومع كل انفجار من انفجارات الرعد، كان يحسّ أنّه يتساقط كشظايا من الزجاج.

اتصل «ك» بمارون وطلب منه المساعدة.

- أين أجد ألواح فلّين مضغوط؟

كان «ك» قد قرأ في موسوعة أدبية عثر عليها في مكتبة «يافث» التابعة للجامعة الأميركية، ان مارسيل بروست كان له في بيته غرفة خاصة للكتابة، وان جدران هذه الغرفة مبطّنة بالفلّين. فالفلّين يتصدّى للموجات الصوتية، وبروست كان يشكو من أعصاب حسّاسة لا تحتمل أقلّ صوت أو ضجّة.

مارون: وماذا تفعل بالبوّابة الزجاجية؟ هل ستبطّنها بالفلّين أيضاً؟ أم انك نسيت أن في غرفتك جداراً من زجاج!.

«ك»: هناك نوع من الزجاج المصفّح ضد الأصوات. أنت تعرف ذلك. انه يستخدم في الاستديوهات، خلال تسجيل الأغاني.

مارون: لكنّي أعرف أيضاً أنّه يكلّف ثروة.

«ك»: نبيع قطعة أرض أخرى.

مارون: بعت بيت جدّك، بعت نصف الأراضي، وغداً سوف تضجر من غرفتك. هل تريد نصيحتي؟ افعل مثل سوبرمان واصعدْ إلى القمر! ليس في القمر هواء ينقل الموجات الصوتية، هناك لا تجد إلاّ الصمت.

«ك»: الاوكسجين أيضاً غير موجود هناك.

Twitter: @ketab_n

مارون: وهل يزعجك ذلك؟.

«ك»: طبعاً. مايزال هناك روايات كثيرة تنتظرني كي أقرأها.

ساعد مارون «ك»، واحتفظ «ك» لنفسه بسرّ بيت أبو شوقي. حتى في اليوميات لن يكتب «ك» سرّه هذا: سرّ البيت الذي يحسب مارون أن «ك» قد تخلّى عنه للمصرف.

يضع مارون الماء على النّار. لم تُفلح القهوة في القضاء على صداع رأسه. غسل القرعة وملأها بالمتّة حتى منتصفها. علّمه «ك» أنّ عليه ترك مقدار ربع القرعة فارغاً. لكن مارون يقتصد في استخدام المتّة عمداً لأنّ الكيس الورقي يكاد يفرغ منها.

قرأ مارون على الكيس الورقي:

CRUZ De MALTA
SAN MARTIN 483 - BUENOS AIRES
TEL - FAX: 541 - 325 - 0904

ملأ القرعة من مياه الإبريق. طافت المتّة على وجه المياه ثم ركدت. علّمه «ك» أنّ عليه نقع المتّة في مياه فاترة، وأنّ المياه المغلية تفسد طعمها. أبعد مارون غطاء الإبريق، انتظر حتى بدأت الفقاقيع الدقيقة بالتشكّل في قعر الابريق، أطفأ الغاز بسرعة. غسل رأس البومبيجة بالمياه الساخنة، غرز ذيلها العريض في القرعة، حمل الابريق باليد الأخرى، ترك المطبخ وعاد إلى الغرفة.

أخبره «ك» أنّهم في الجبل يشربون المتّة من قرعة واحدة. تجلس العائلة وزوّارها في غرفة الجلوس أو على المصطبة، ويبدأ الدور عن يسار الشخص الذي يقوم بسكب المتّة.

ثريا: كلّكم تشربون من القرعة نفسها؟

«ك»: نعم صحيح. لكننا نمسح رأس البومبيجة بقشرة حامض أوّلاً.

ثريا: والأمراض المعدية؟

Twitter: @ketab_n

«ك»: إذا كان هناك مريض بين الشاربين، فإنّه لا يشرب، أو يعمد ساكب المتّة إلى تطهير رأس البومبيجة بالمياه الساخنة كلّما مرّ الدور على المريض.

ثريا: لكن هناك فيروسات لا تقتلها المياه الساخنة.

«ك»: تلك الفيروسات لم تصل إلى الجبل بعد.

مارون يضع في آلة التسجيل كاسيتاً للبيتلز فيها أغنية Yes-terday، يملأ القرعة، يراقب البخار المتصاعد من فم الإبريق، يغمض عينيه. علّمه «ك» أنّ المتّة تصبح أطيب حين يغمض الشارب عينيه.

ثريا: لكنها مرّة. وحين تغمض عينيك تصبح أكثر مرارة. أنا أحبّها مع السكر. طعمها المرّ يقتلني.

«ك»: المتّة الحلوة ليست متّة. أفضل لك أن تشربي عصير الليمون!.

مارون: المتّة تشبه الحب.

«ك»: المتّة لا تشبه إلاّ المتّة.

ثريا: الحب يشبه عصير الليمون.

يتذكر مارون المرّة الأولى التي شرب فيها المتّة مع «ك».

يومذاك قال له «ك»: ستعتادها.

ضحك مارون، وقال: تقصد سأعتادها كما اعتدت الشاي.

«ك»: تماماً ستعتادها غصباً عنك. وفيما بعد ستحبها.

مارون: ولماذا يجب أن اعتادها؟.

يضع مارون البومبيجة بين شفتيه ويغمض عينيه. تصعد المتّة إلى فمه. إنها مرّة وساخنة. في حياته كلّها لم يحس أنّه وحيد كما يحس الآن. بلى، فجأة تذكّر مارون ذلك العصر حين أرسله أبوه ليبحث عن أخيه جورج. كان المطر يهطل غزيراً، وكانت الرياح تصفر. وقف مارون في صحن الدرج، نظر إلى الجدار الأسود، وأحسّ حجراً يسدّ حنجرته ويخنقه.

Twitter: @ketab_n

نهض مارون، ذهب إلى البوّابة الزجاجية، فتح الستائر حتى الحائط البعيد. دخل الضوء كموجة، غمره وغمر الأرض حوله. تراجع مارون إلى الوراء، رأى الصورة الكبيرة الملصقة في الزاوية البعيدة من البوّابة. كانت صورة سهل أخضر وثلاث طواحين هوائية، ومنزلٍ أبيض صغير.

كان المطر مايزال ينهمر غزيراً. الصوت المخنوق لأبواق آلاف السيّارات كان يصله عبر الزجاج. تساءل متى أعاد إقفال البوّابة بإحكام، فتذكّر ما حصل له قبل يومين، وفكّر أنّ الوقت غريب هنا، وأنّ جسده أيضاً بات غريباً عنه.

أسدل الستائر وعاد إلى قرب الكومودينة. سكب لنفسه قرعة أخرى وذهب إلى الحمام. أضاء المصباح ووقف أمام المرآة. حدّق في شعره وفي لحيته وفكّر أنّه يشبه يسوع المسيح، ورأى نفسه واقفاً قرب مارتن سكورسيزي يراقب العمّال وهم يرفعون الصليب ويثبتونه. تساءل متى كان ذلك، وفكّر في طارق، وتساءل ماذا تفعل ليلى الآن، وتخيّل فيرونيك مع صديق لها، وكان بمقدوره أن يرى نفسه ممدّداً في ذلك المستشفى في مدريد يقرأ الروايات وينتظر وصول «ك».

قال مارون للمرآة: بلى، سيأتي، وسيجلب معه المتّة وابريقاً وبابور كاز، وسأسأله كيف وجدني، وسوف يخرج من جيبه صورة انتزعتها ثريا من صحيفة «السفير» أو «النهار».

أغمض مارون عينيه. نسي القرعة الموجودة في يده. رأى وجهه. كان حليق الذقن، وكان شعره مرتباً وكان يرتدي بذلة سوداء.

قال مارون: الذي في المرآة هو «ك». اللحية لحيته والبيجامة بيجامته، والقرعة التي يمسك بها قرعته. الواقف هنا هو أنا. أنا أدعى مارون بغدادي، وكلّ صباح أغتسل وأحلق ذقني وأمشّط شعري. فرشاة الأسنان صديقتي الوفيّة، وابتسامتي يمكن العثور عليها في مجلاّت كثيرة. أنا مخرج معروف، عملت مع كوبولا ومع سكورسيزي، وأخرجت أفلاماً جيّدة. آخر الأفلام التي أخرجتها

Twitter: @ketab_n

كان فرنسياً، «فتاة الهواء». بطلته بياتريس دال. طلب مني «ك» أن آتيه بملصق الفيلم. فيلمي عُرض في فرنسا خلال العام الماضي. وفي الشهر المقبل، في ٢٤ كانون الأوّل تحديداً، سيبدأ عرضه في بيروت، في صالتي اللاساجيس واللاسيتيه. شركة كولومبوس طلبت منّي أن أشارك في الافتتاح وأنا اقترحت عليها دعوة هيبوليت جيراردو وبياتريس دال أيضاً، فوافقت الشركة.

الجميع يعتقدون أنني الآن في هنغاريا. ولا بدّ أنّ هناك من يحسب أنني في فرنسا أو أميركا. لكن ماذا يبدّل ذلك فعلاً؟ إني هنا، أينما كنت. أما «ك» فهو هناك. هذه هي المسألة.

كيف أقطع المسافة من النقطة «أ» إلى النقطة «ب»؟ «ك» يقف فوق المربع «ب»، وفي يده قرعة المتّة، إنه يبتسم ولا يقول شيئاً، لكني أفهم.

ينظر مارون إلى ساعته. إنّها العاشرة والربع صباحاً. يوم الخميس ٢٥ تشرين الثاني ١٩٩٣. «٢٥ – ٣ =... لا، لم أصل إلا في ... حسناً، ٢٥ – ٦ = ١٩. إني هنا منذ عشرين يوماً».

في ٦ آب ١٩٩٢، كتب «ك» في دفتر يومياته الأخير: «مات يوسف حبشي الأشقر. حتى الآن لم أفهم لماذا لا أحطّم هذا الراديو اللعين، هذا الرأس المصنوع من أنابيب زجاجية وأسلاك كهربائية. مات يوسف حبشي الأشقر مساء البارحة. كان عائداً من بيروت إلى بيته في بيت شباب عقب انتهاء دوام عمله في صندوق الضمان الاجتماعي، فباغتته السكتة القلبية على الطريق».

كيف نقطع الطريق من «أ» إلى «ب»؟

في ٦ آب ١٩٩٢، فتح «ك» المجلّد الثالث من «موسوعة المدن والقرى اللبنانية»، وكتب تحت اسم يوسف حبشي الأشقر المدرج ضمن مشاهير بلدة بيت شباب كلمة: «الراحل». فوق اسم يوسف حبشي الأشقر كان هناك اسم والده اميل، وتذكر «ك» كتاب «المظلّة والملك وهاجس الموت»، وتساءل لماذا سمّى يوسف ابنه على اسم جده إميل.

Twitter: @ketab_n

يوسف حبشي الأشقر كان أيضاً اسم رجل عاش في بيت شباب خلال القرن التاسع عشر. هذا الرجل كتب شعراً وألف كتاباً في علم الحساب. هذا الرجل هو أيضاً والد أميل حبشي الأشقر.

يوسف اميل يوسف اميل يوسف اميل إلخ... «بلى، الابن عزاء أيضاً».

أخرج «ك» كتاب «الظلّ والصدى» من المكتبة. أمسك قلماً.

يخرج مارون من الحمام. يجلس على حافة السرير، يقرأ الصفحات الأخيرة من الدفتر الأخير للمرّة التي لا يعرف رقمها.

في ٨ آب ١٩٩٢، كتب «ك»: «في دكّان بشارع جاندارك، قال لي البائع إنني أشبه شخصاً كان يأتي إلى دكّانه قبل عشر سنوات أو أكثر. لم أبتسم، بقيت صامتاً. قال البائع إنّ ذلك الشاب كان يعمل أستاذاً في مدرسة الاستقلال، وأنّه كان لطيفاً جدّاً، وأنّه كان يسكن مقابل سينما «الخيام». بقيت صامتاً فيما أدفع ثمن قناني البيرة، فتابع قائلاً: ويخلق من الشبه أربعين.

أخذت كيس القناني وخرجت، لكنّه ناداني. التفتّ فسألني عن اسمي. فكّرت أنّه سكران. اعتذر وقال إنه متأسّف لكنّه يودّ فقط أن أخبره باسمي. عندئذ قلت له: اسمي أنسي اسكندر الحماني، وهذا أوّل أسبوع لي في بيروت وقبل ذلك لم أنزل إليها قط، واسم بلدتي «كفرملات».

يسكب مارون لنفسه قرعة أخرى، لم تعد المياه ساخنة، لكنه لا ينتبه ويتابع القراءة.

٩ آب ١٩٩٢: «حلمت أنني في هنغاريا. بالطبع سبب هذا رواية أغوتا كريستوف. وحلمت أنني أصطاد السمك مع جدّتي، وأنها كانت تسألني عن مارون».

١٠ آب ١٩٩٢: «*أيضاً حلمت أنّني ألعب «الإكس». كان دور

Twitter: @ketab_n

مارون وكانت ثريا تتفرّج علينا.

* ظهرا طبخت معكرونة مع بندورة وزعتر وفلفل حار.

* قبل قليل أعدت قراءة الفصل الأخير من «الظل والصدى» وضحكت من أفكاري. أصلاً ما الفائدة في أن أصبح كاتباً؟ لا فائدة أبداً. بالعكس، أمر كهذا سيجعلني أقرأ عدداً أقل من الروايات!».

مارون يترك السرير. يأتي من المكتبة، بالنسخة الأخرى من رواية «الظلّ والصدى»، النسخة القديمة الصفراء التي لم يفتحها قط. يتصفحها مسرعاً فيفهم لماذا أهمل «ك» كتابة كل ما يتعلق بمشروع الفيلم على صفحات دفاتره. الفيلم كلّه مكتوب هنا، على الهوامش، بين السطور وفوقها. وأسرع مارون إلى الصفحات الأخيرة وقرأ في الهامش أنّ يوسف سيخرج من السجن ويمضي للبحث عن اسكندر. وقفز مارون إلى الصفحة الأخيرة وقرأ أن اسكندر لم يمت، وأنّ حارس المقبرة أخذه وخبّأه في كوخه. وفي الكوخ أحبّ اسكندر ابنة الحارس العجوز، وأحبته البنت ونامت معه، وأنجبت منه طفلاً سمّته أنسي.

ومارون يطلق ضحكة لا حياة فيها. يضع القرعة على الكومودينة، يفتح الرواية على الفصول السابقة للفصل الأخير.

يقول لنفسه: ليس هذا صحيحاً، لا.

«ك» كتب في الهامش ان يوسف هو مارون، وأنّه حين يخرج من السجن كي يفتّش عن اسكندر، فإنّه يخرج أيضاً من مربعه الصغير كي يبحث عن نفسه، وعن الوجه الذي أضاعه.

تساءل مارون:

– «مربعه الصغير؟ هل كان يفكّر بلعبة «الإكس» حين كتب هذه العبارة؟».

يرفع مارون رأسه وينظر صوب الخزانة. خلف الخزانة حائط، خلف الحائط حمام. في الحمام مرآة، وفي المرآة يبتسم وجه «ك». رأى مارون «ك» يبتسم ممسكاً بقرعة المتّة.

Twitter: @ketab_n

– لكني أنا من نقعها في الماء الفاتر!، قال مارون.

وكان «ك» مايزال يبتسم.

قال مارون: انت اسكندر، أليس كذلك؟ والفيلم الذي اقترحته عليّ آنذاك كان فيلماً عنك.

صمت مارون؛ كان يفكّر.

فيما بعد، تابع الكلام: بلى، كان فيلماً عنك وعنّي. كان فيلماً عن «أ» الذي يبحث عن «ب» ولم يكن متاهة بل لعبة صداقة. أليس كذلك؟ كلعبة «الإكس» تماماً. وأنا ماذا فعلت؟.

آلة التسجيل تصدر تكّة. مياه المتّة باتت باردة. لمس مارون ما بين فخذيه. المرهم قضى على الفطر. وقال مارون لـ«ك» إنه فهم كلّ شيء.

قال مارون: «أعرف ما فعلت: لقد أفسدت عليك حلمك. كنت تريد فيلماً عن حياتنا، فلم أقبل إلاّ بفيلم مزيّف عن حياةٍ لم أعشها إلاّ كذباً. الآن، أعرف. نعم الآن أعرف».

Twitter: @ketab_n

٢

عثرت على علبتين من سمك التونة الأبيض. قرأت مدّة الصلاحية. تاريخ الإنتاج: ١٩٩٢/٣/٣. تاريخ الانتهاء: ١٩٩٥/٣/٣.

- حسناً، قلت.

في البرّاد قنينة حامض صغيرة ماركة جونال، وقارورة مايونيز ماركة كروغر. أيضاً تأكدت من مدّة الصلاحية. بعد ذلك أفرغت التونة في صحن كبير، ووضعت فوقها ملعقتين كبيرتين من المايونيز، وأضفت من الحامض مقدار فنجان قهوة صغير. وكان الخبز متجمّداً، فسخنته على النار. سخنت أيضاً بقايا حساء البارحة. وأخرجت تنكة البيرة الأخيرة من الثلاجة.

وضعت كلّ شيء على الطاولة الخشبية، بعد أن أزحت الكتب والدفاتر جانباً. التهمت نصف الصحن، وكان طعم التونة شهياً. وحين تذكرت علبة اللوبياء الخضراء قمت فجلبتها. فتحتها وغسلتها جيّداً، ثم أضفت إليها حامضا وملحا وشيئاً من زيت الزيتون.

شربت الحساء كلّه. وضعت إبريق المتّة على النار، وعدت إلى الغرفة. فتحت «أطلس العالم» على الطاولة وتابعت التهام اللوبياء الخضراء. كانت طرية جداً، ومذاقها الحلو جعلني أضيف المزيد من الملح. أحسست أنني لم آكل طعاماً شهياً كهذا منذ ألف عام.

Twitter: @ketab_n

تفرّجت أولاً على خريطة العالم. قست، بنظري، المسافة بين بيروت ومدريد؛ ثم قست المسافة بين كلٍّ من هاتين المدينتين وباريس. نعم، تذكرت أوهايو أيضاً وفكّرت في ثريا.

قلت لنفسي: الذي يمضي يمضي لأنّه يجب أن يمضي.

جرعت آخر ما في تنكة البيرة فأحسست أن «ك» قبالتي، يتفرّج عليّ من نافذة البيت الأبيض، النافذة المغلقة الأباجور.

قلت له: افتح الأباجور ودعني أراك!.

لم يتحرك الأباجور طبعاً. ولونه الأخضر بدا كالحاً.

قرّرت أن أشرح له: ذلك يا «ك» يشبه المتّة. القرعة مليئة بالمياه الساخنة، حسناً، وأنت تشرب وتشرب وتشرب. ثم ما الذي يحصل؟ تفرغ القرعة من الماء. ماذا تفعل الآن؟ تابع الرشف ولن تسمع إلاّ صوت الهواء: ووف... أو: فوووت. وغير هذا لا شيء. لذلك فأنت تتوقف وتضع القرعة جانباً. هل تذكر أوّل مرّة أجبرتني فيها على شرب المتّة معك؟ هل تذكر كيف بقيت أرشف الهواء، وكيف ضحكت عليّ وأخبرتني أن هذا الصوت الذي تصدره البومبيجة يعني أنّ دوري قد انتهى؟ حسناً، يا «ك» هكذا يكون الحب أيضاً. أنا مع ثريا كنت أرشف الهواء فقط، وقبل أن أسافر إلى فرنسا. نعم قبل الرحلة الأولى. لكني لم أكن متأكّداً. فالحب ليس مثل المتّة تماماً. لماذا ليس مثلها تماماً؟ لأنّه لا يصدر ذلك الصوت حين ينتهي: ووف... ووف. الحب صعب ومعقّد: ووف... أو: فوووث. هو لا يصدر صوتاً ونحن نتابع رشفَ الهواء، فننتفخ بالهواء مثل بالون وفي النهاية ننفجر!».

الابريق يصفر، قمت إلى المطبخ واطفأت النّار.

– لن أشرب المتّة الآن.

عدت إلى الطاولة. قال لي «ك» إنّ المتّة تساعد عملية الهضم. لكني الآن أحسّني منتفخاً مثل البالون. وبطني لا يتّسع لبلعة ماء واحدة.

Twitter: @ketab_n

فتحت الأطلس على خريطة بيروت.

أمسكت قلم حبر أزرق ورسمت على ورقة بيضاء الخريطة التالية:

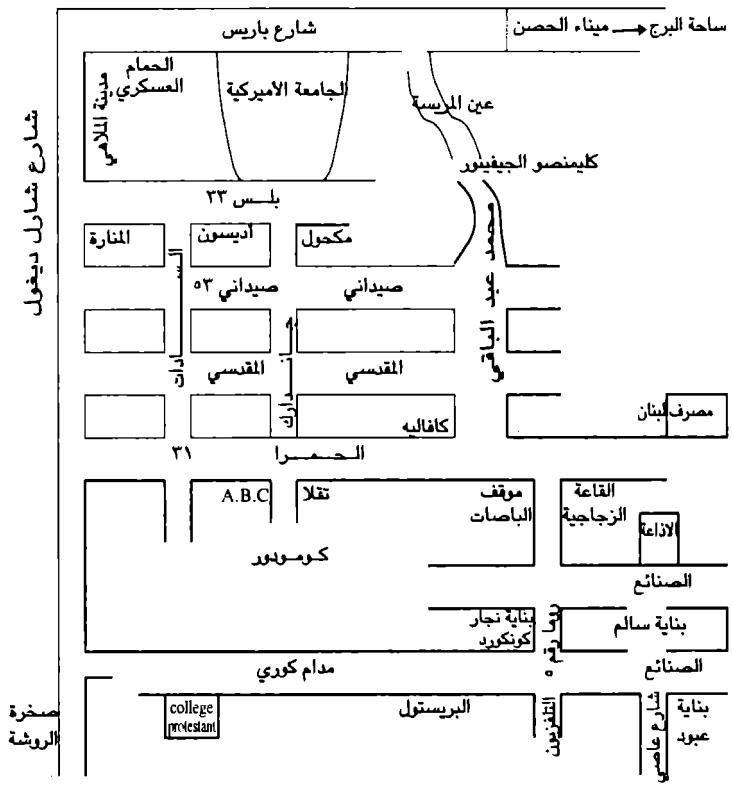

Twitter: @ketab_n

نعم، بلى، ما كتبه «ك» كان صحيحاً: إنه مستطيل.

أتأكد من أرقام الشوارع. لم أكن أعلم أن شوارع بيروت مرقّمة. إذن، شارع الحمرا رقمه ٣١. وشارع بلس رقمه ٣٣. لكن، أين شارع الرقم ٣٢؟ آه، إنه شارع كليمنصو.

والشارع الذي يصعد من الجيفينور حتى الحمرا حيث زاوية فندق كافاليبه ما اسمه؟ انه شارع محمد عبد الباقي. أعرفه جيّداً. هناك موقف سيّارات كبير، وهناك بيت قديم من طابقين وقربه نخلة. «كلّما مررتُ بذلك البيت أحسستُ أنّ شخصاً عجوزاً يموت داخله».

كان «ك» يحب ذلك الشارع. قال إنّه في نهار الأحد يبدو كشارع فوق سطح القمر: «تقف فتجد نفسك محاطاً بالفراغ. من يمينك موقف سيارات وعن يسارك موقف سيارات. والموقفان خاليان ومهجوران يشبهان ذلك الملعب في بعقلين خلال أيام الشتاء».

شارع باريس، شارع شارل ديغول، شارع مدام كوري. باريس تقع وسط بيروت، نعم. الشارع الأوّل يفصل الجامعة الأميركية عن البحر، ويمتد من ميناء الحصن حتى الحمّام العسكري. إنّه كورنيش المنارة. هذه أوّل مرّة أعرف أنّه شارع باريس. الشارع الثاني، أو الضلع الجنوبي للمستطيل، هو شارع الجنرال ديغول. إنّه الطلعة التي تصل كورنيش المنارة بمنطقة الروشة حيث المطاعم المشهورة. «... وأنت تتعب في هذه الطلعة. تنظر يميناً، ترى البحر والصخرة التي انتحر عندها كثيرون. وفي الليل حين تلتفت وتنظر إلى اليسار لاهثاً، ترى ضوء المنارة يشق الفضاء».

الشارع الثالث شارع مدام كوري. يبدأ بعد البريستول، ويصل حتى المدرسة الإنجيلية الفرنسية. انظر إلى الخريطة جيّدا، نعم إنها شوارع شبه متوازية: باريس، بلس، صيداني، المقدسي، الحمرا، الكومودور، ومدام كوري.

انظر مرّة أخرى. ليس هناك على الخارطة شارع اسمه الكومودور. أفكر أنّ اسم الشارع كما أعرفه هو الاسم الشعبي له، وأنّ ذلك قد كان بعد أن جرى بناء الفندق المشهور في حين أن هذه

Twitter: @ketab_n

الشوارع قد حصلت على أسمائها الرسمية - أي أسماء الخريطة - قبل زمن بعيد.

ابتسم متذكّراً ذلك الدكان الذي ابتعت منه الأغراض قبل عشرين يوماً. إنّه يقع في شارع الصيداني، وأنا كنت أحسب أنّه يقع في شارع جاندارك. أصلاً أنا لم أكن أعلم أنّ شارع جاندارك هو طلعة، بل كنت أحسب أنّه الشارع الموازي لبْلِسّ.

«أدور في هذا المستطيل ثم أعود إلى حيث أنا».

الضلع الأشدّ تعرّجاً هو الضلع الشمالي للمستطيل: لماذا تعمّد «ك» أن يضع منطقة الصنائع خارج مستطيله؟

انظر إلى الأرقام الموضوعة في زاوية الخريطة مرّة أخرى. المناطق أيضاً تحمل أرقاماً. منطقة الحمرا مثلاً، وهي المنطقة التي تحتلّ مركز المستطيل، تحمل الرقم ٣٤.

- «٣٤»، أين رأيت هذا الرقم.

أتذكّر رقم المقعد في الطائرة: ٤٣.

«ك» قال لي إننا من برج واحد حسب الفلك الصيني. إننا من مواليد برج الأرنب. قال «ك» إنّ الأرقام والصدف تلعب دوراً أساسياً في حياة مواليد هذا البرج.

في المكتبة وجدت كتاباً اسمه «كشف الحجاب عن علم الغياب». استعنت بالفهرست، فتحت الكتاب على الصفحة ١٢٥.

سنة ١٩٥١ هي سنة الأرنب المعدني... يعتبر مولود هذا البرج محظوظاً... ويقال في الفلسفة الصينية إن الأرنب يستمد جوهره وإكسيره من القمر... يعيش المولود تحت هذا البرج حياة هادئة... يكون حنوناً وعاطفياً... لا يحب الصداقات أو الاحتكاكات الحميمة... يدعوك إلى أرقى المطاعم... يملك قوّة الإقناع... أصدقاؤه كثيرون... من فلسفات مواليد برج الأرنب أن يتوقّفوا عند اللزوم، حتى لا يرهقوا قواهم...».

نظرت إلى رقم الصفحة التي وصلت إليها: ١٣٢. حسناً، كنت أبحث عن الشارع رقم ٣٢، هل تعتبر هذه صدفة مهمّة؟

Twitter: @ketab_n

ضحكت. ها أنا أهلوس مثل «ك». أقرأ ما كتب على كيس المتّة وأتأكّد من تواريخ المعلّبات وأقارن بين الأرقام، مستنتجاً أغرب الأشياء، الممكنة وغير الممكنة. ما بك يا مارون؟ إلى هذه الدرجة لا تستطيع أن تتحمّل الوحدة؟ إنك هنا منذ ثلاثة أسابيع فقط و«ك» صمد خمس عشرة سنة!

لكن أين «ك» الآن؟

برج الأرنب يستمدّ جوهره من القمر، هل صعد «ك» إلى فوق؟

«ولا يحب الصداقات، وأصدقاؤه كثيرون». ما هذه الهلوسة؟

كلا، ليست هلوسة أبداً.

لكن أين «ك» الآن؟

نظرت إلى البيت في الصورة، كان بمقدوري أن أرى «ك» في الداخل محاطاً بالروايات. وكان يمسك قرعة متّة، وكان يبتسم.

– هل تهزأ منّي؟

بقي «ك» صامتاً.

– أين أنت؟

سمعت صدى صوتي: «أين أنت؟» كأنّ أحدهم يقلّدني ساخراً.

وقلت: فقط أعرف أنّك لست هنا.

ووف... فورت... ووف.. فووت...

وقلت: هذه الليلة سأغادر.

ووف... فووت...

Twitter: @ketab_n

٣

وقفت أمام المرآة وحلقت ذقني.

كنت أمرّر الشفرة على وجهي، وأتفرّج على وجه «ك» وهو يتلاشى. لم يكن يتلاشى. كان يتحول. ثم ظهر وجهي. كان بمقدوري أن أسمع صوته. كان «ك» جالساً داخل جمجمتي، وكنت أسمع صوته، وصوت البومبيجة: ووف... فووت...

قلت: لن يتركني.

قال: داخل الشرنقة تتحوّل الدودة إلى فراشة.

ضحك، ورأيت وجهي يبتسم في المرآة.

قلت: من الدودة ومن الفراشة؟

غسلت ذقني الحليقة بالمياه والصابون ثم مشطت شعري. خرجت من الحمّام وخلعت بيجامة «ك». وضعت يدي على عنقي، على صدري، على بطني. تحسست ساقي الطويلتين، حسناً، هذا أنا. بلى، بالتأكيد.

تمدّدت على سريره. سوف أنتظر الليل. لا أريد أن يراني أحد خارجاً من هنا. خلسةً جئت، خلسةً أمضي.

وضعت في آلة التسجيل كاسيتاً لباغانيني. قال لي «ك» إنّ الكمان يتأوّه ولا يصدر موسيقى. يتأوّه مثل ذئب وسط العاصفة. أنت رومنطيقي، قلت له. وفيرونيك تخاف الأمراض المعدية.

Twitter: @ketab_n

نظرت إلى السقف، وتساءلت: كيف ثبّت الواح الفلّين. هل استخدم المسامير أم البراغي أم الصمغ؟

نظرت إلى المصباح فتساءلت كم يعيش المصباح؟ سنة، نصف سنة، شهراً؟

حبل المصباح متّسخ. تذكرت «لا تنبت جذور في السماء»، وصعود اسكندر إلى الدير في كفرملات بحثاً عن أنسي.

هل ذهب «ك» إلى دير أيضاً؟ لكن الدروز لا يبنون الأديرة! إذن، هو يذهب إلى الخلوة.

أخبرني «ك» أنّ أحد أجداده كان مجنوناً. ذلك الجدّ عاش في القرن الثامن عشر. وفي نهاية حياته عاد الجدّ إلى رشده وبنى خلوة اسمها «خلوة الكروم».

قال «ك»: إن جدّه ذاك كان يدعى يوسف.

أيكون «ك» قد عاد إلى تلك الخلوة الواقعة فوق التلال التي تفصل كفرنبرخ عن عين وزين؟ لكن الخلوة تهدّمت خلال الهزّة الكبيرة. متى كانت الهزّة؟ ١٩٥٠ أم ١٩٥١ أم ١٩٥٢ أم...؟ أخبرني «ك» أنّ الدولة أضافت إلى كفرنبرخ بعد الهزّة حيّاً كاملاً للمتضررين واسمته «حيّ التعمير».

– هذا حسن جداً. قلت له.

– نعم، أجابني، لكن المضحك أن أي بيت في بلدتنا لم يتضرّر.

قلت له: بلى، الخلوة تضررت. أنت قلت.

قال: صحيح، الخلوة تضررت، وحدها. لكنها كانت مهجورة.

هل باع «ك» أرضاً أخرى وأعاد بناء الخلوة؟

صعدت الضحكة من بطني وصدري كموجة، كنت أتمدّد على ظهري، كدت أختنق بها.

حسناً، لنفكّر بجدية الآن!

ربّما حقّقَ حلم اسكندر، ربما أعاد شراء البيت الذي فقده، بيت الطفولة، البيت في الضيعة.

Twitter: @ketab_n

آنذاك قلت له: «بعْ أرضاً أخرى، وفكَّ الرهن عن بيت جدك! لا تدعِ المصرف يبيعه لغيرك. غداً تندم!».

كان يبتسم ويقول: إنّ البيت لا يهمّه في شيء، وأنّه كان سيبيعه عاجلاً أم آجلاً، وأنّ المصرف فقط يساعده في تسريع الأمور والانتهاء منها.

قال «ك»: إنّ تلك البلدة لم تعد بلدته، وأنّها لم تكن بلدته أصلاً.

– هل تعرف أين هي بلدتي؟

– لا تقل لي إنها في الروايات، أرجوك!

ضحك، وقال إنّه لن يخبرني لأنّني لا أستحق.

– لا أستحق ماذا؟

– لا تستحق أن تعرف مكان بيتي الأوّل والأخير.

أُغمض عيني، موسيقى باغانيني تصعد بي إلى فوق الغيوم. افتح عيني ضاحكاً، ماذا لو اصطدمت بطائرة «بوينغ ٧٠٠؟».

– بيته الأوّل والأخير؟

بيته الأوّل كان بيت جدّه أبو شوقي. لكنه ترك المصرف يأخذ البيت منه، فكيف يكون بيته الأوّل بيته الأخير أيضاً؟ لكن «ك» هو على هذه الصورة: حياته كلّها كلمات، كلمات يقرأها، كلمات يكتبها، كلمات يسمعها، كلمات يلفظها...

إذن، كان فقط يلعب معي، يمازحني، لأنني هزئت من كلامه الدائم عن الروايات!!

– بلدتك؟ لا تقل لي إنّها في الروايات! أرجوك!

لكنها ليست. لكنها قد تكون. لكن أين هي؟ «ك» أين أنت؟

حسناً، لنفكّر جيّداً الآن.

قد تكون بلدته فوق سطح القمر. بلدة للأرانب. قد تكون بلدتي أيضاً. أو قد تكون بلدته في حفرة تحت الأرض.

Twitter: @ketab_n

– الحفرة هادئة. الحفرة حسنة. الحفرة تعجبني.

الحفرة أيضاً للأرانب. وتحت، في بلاد العجائب، يستطيع «ك» أن يقضي وقتاً مسلياً بالتأكيد.

بعض الجدية يا مارون، بعض الجدية.

لقد اخترع جول فيرن صاروخاً كي يصعد إلى القمر. وكتب أيضاً أنّ الكابتن ستراغوف أصيب في عينه ثم شفي من الإصابة. وقال «ك» إنّ الدكتور موريللي أخبره أنّنا لا نفعل شيئاً في هذه الحياة بقرارٍ منّا، وأنّ كلّ ما نفعله يكون مكتوباً ومقضياً من قبل.

– مكتوب؟، سألته، يعني كما عند الدروز؟

– لا، أجابني، مكتوب أي مكتوب في الروايات.

قال «ك» أن الواحد لا يفعل في حياته شيئاً من رأسه، لأنّ كلّ الأشياء التي نفعلها قد فعلها أبطال الروايات قبلنا، وهكذا فإنّ حياتنا كلّها محاولة لتقليد الروايات.

قلت له: تقصد أنّنا دائماً نكرّر ما فعله الذين كانوا هنا قبلنا. الحروب مثلاً، أو الغرام؟

قال: ليس هنا فقط، هناك أيضاً.

قلت: في الروايات.

قال: أنت قلت.

الحياة فقط تحاكي الروايات. أصيب «ك» في عينه لأنّ جول فيرن كتب قبل عشرات السنين أنّ الكابتن ميشال ستراغوف أصيب في عينه. حسناً، ولسبب مشابه صعد ارمسترونغ إلى القمر.

إنني أضحك. طارق يعتقد أن ارمسترونغ الذي صعد إلى القمر هو نفسه ارمسترونغ الذي تعتبر فيرونيك أنّه أهمّ عازف ساكسوفون في العالم.

أضحك مرّة أخرى:

ذات ليلة أحسست أنّ رأسي سينفجر. طلبت من فيرونيك أن

Twitter: @ketab_n

تخفض الصوت قليلاً، فتظاهرت أنّها لم تسمعني. أغمضت عينيّ، وكان صوت طارق داخل رأسي، ووجدتني أتساءل: ترى، لماذا لم يبقَ فوق، ارمسترونغ العظيم هذا؟

قالت فيرونيك لطارق إنّ ارمسترونغ ذلك هو شخص آخر.

– من هو الآخر بينهما؟، سألها طارق.

هل سألها ذلك حقّاً يا مارون؟ نعم، بالتأكيد.

وليلى أرادت أن تعرف ماذا يرى سكان القمر حين تكون السماء صافية ليلاً.

أجابها طارق أنّهم ينظرون إلى الأرض طبعاً.

– هل ذلك صحيح يا بابا، هل يرون الأرض في الليالي الصافية؟

كان وجه ليلى الصغير يشبه وجه اللعبة. كانت ترتدي قبّعة حمراء. قلت لها: ليس في كل الليالي، فقط في الليالي المقمرة.

هيا يا مارون، تعال، بعض الجدية.

الحياة فقط تقلّد الروايات. إنها لا تفعل شيئاً آخر: لأنّها لا تستطيع.

صحن حساء في كوخ، وفتاة شقراء في سرير الدب الصغير.

ذلك الكوخ، كوخ الدببة الثلاثة، هل هو الكوخ الذي أراه في كوابيسي؟

صحن حساء في مطبخ، صحن فاصوليا في برّاد، هل الكوخ هذه الغرفة؟ لكني لست فتاة شقراء، وليلى لن يأكل الذئب جدّتها.

جدّة ليلى، أمي؟ الحق كلّه على أمّك يا مارون، لماذا القصص أصلاً؟ وأبوك أيضاً. هل نسيت يوم اشترى لك «الهرّ أبو الجزمة»، فأجبرته أن ينزل إلى السوق في صباح اليوم التالي كي يشتري لك جزمة مطابقة للجزمة التي في الصورة؟

لكن يا مارون ما قصّتك، أنت تبحث عن «ك» الآن، لا عن ذكريات الهرّ أبو الجزمة؟

Twitter: @ketab_n

حسناً، لنفكّر إذن!

الحياة تحاكي الروايات. والأحلام تحاكي قصص الأطفال. ما رأيك يا «ك»؟

أترك السرير، أزيح الستارة، تَبّاً لي، كيف مضى الوقت بهذه السرعة؟ أفتح البوّابة بضعة سنتمترات، يدخل الهواء ويدخل الصوت. أشم الهواء، رائحة ملح وناس ودخان وسمك. كأنني أشم رائحة العالم للمرّة الأولى، كأنّني أخرج من بطن أمّي.

غابت الشمس، الشمس غابت.

حياة «ك» جملة اسمية، حياتي جملة فعلية. هذا هو الفرق.

لماذا أتكلّم مثله؟

الساعة الثامنة تماماً. المرأة تظهر. تقف خلف الستائر. نور المطبخ مضاء. هناك طنجرة على النّار. المرأة تمسك ملعقة. أزيح الستائر وأتراجع إلى الخلف. الشرفة تختفي ويختفي الدرابزين. المرأة في البناية المقابلة لا تختفي، ضوء المطبخ ينقذها من التلاشي.

أتوقف عن التحديق إليها. انظر إلى نفسي في الزجاج. إني أقف دون ثيابي، ودون بيجامة «ك». هل أُحسّ البرد؟ كلا. هل أنا ميت؟ كلا. ماذا أُحس؟ أُحس أنني سوف أجد «ك».

الرجل الذي ينظر إليّ من داخل البوّابة الزجاجية ليس «ك». لا، هذا أنا. و«ك» هو في مكانٍ مّا في الخارج، وسوف أجده.

كيف أعرف أنّه ليس ميتاً؟ فقط أعرف. كما حين افترقنا في المرّة الأولى. كانت ثريا تخاف وكنت أخبرها أنّه ليس ميتاً. حين يموت «ك» سأحسّ ذلك، قلت لها.

«ك» ليس ميتاً. فقط للتأكد سأبحث غداً في صحف الأشهر الماضية. طبعاً لن أبحث في صفحة الوفيات لأنّ أحداً لا يعرف «ك»، وبالتالي فإن اسمه لا يمكن أن يصل إلى تلك الصفحة. سأبحث عنه في صفحة الحوادث، ولن أجد شيئاً.

Twitter: @ketab_n

كيف أعرف؟ فقط أعرف. تماماً كما أعرف أنّني أدعى مارون وأنّ والدي يدعى جوزف وأنّ أمّي تسكن وحدها في بناية سماحة في الأشرفية.

اترُك الستائر، أسمع صوتها، تضرب الزجاج، تتموّج، تتحوّل إلى جدار من مخمل. فيما بعد يأتي نسيم البحر ويحرّك طرفها. أغلق الباب كي لا ابْرُد.

تُرى هل تختفي تلك المرأة حين أغلق الستائر؟ امُدُّ يدي، أزيح الستائر مرّة أخرى، المرأة هناك، ظلّ أسود مرسوم على الستارة البيضاء. أغلق الستائر. كيف أعرف هل اختفت أم لا؟

أُشعل سيجارة، أُحْدِث ثقباً في الستارة. فقط بينما أُحْدِث الثقب اكتشف السماكة الحقيقية لقماش هذه الستائر. ثلاث مرّات انطفأت السيجارة، ثلاث مرّات أَعدت إشعالها. أخيراً انجح. ارمي السيجارة أرضاً، انظر عبر الثقب.

المرأة ماتزال هناك. ترفع الملعقة قليلاً وتتراجع إلى الخلف، لكنها هناك، لم تتلاشَ.

اعود إلى السرير. افكّر انّ الضوء سيدخل عبر الثقب في الصباح، وسيصنع انبوباً من الضوء الصباحي المليء بالغبار في فضاء الغرفة المعتم. بلى، ستكون هناك عتمة لأنّي سأطفئ الأضواء قبل أن اغادر.

وانبوب الضوء لن يراه أحد.

Twitter: @ketab_n

٤

يغادر مارون بناية الكومو - غاردن قافزاً على رجلٍ واحدة. يكاد يقع لأنّه يحمل حقيبتين. تضيءُ الشارع مصابيحَ شرفات الطابق الثاني من البناية. يذهب مارون إلى اليمين. يتوقّف قرب الشجرة المستوحدة عند الزاوية. قرب الشجرة كومة رمل وصندوق نفايات معدني اللون. يرفع مارون الحقيبة ذات الحزام عالياً ويقذف بها داخل الصندوق. قرقعة تنك، وزجاج يتكسّر.

– حتى الأرانب تُنظف بعد الأكل!

يمشي مارون حاملاً حقيبة السامسونيت. الحقيبة ثقيلة جداً، إنها تؤلم كتفه.

– «ك» على حق: الروايات لا يسهل حملها!

هناك برك أمطار موزّعة وسْط الشارع، مارون يقفز فوقها.

في السماء غيوم متباعدة. على جدران البيوت ظلال داكنة.

ينحدر صوب شارع الحمرا. الرصيف الذي يمشي عليه يتبدّل لونه مع كل خطوة. قرب «أوتيل بيركلي» يكون لونه أزرق مضيئاً. حين يصل قبالة «أوتيل المايس» يتحوّل إلى لون أصفر معتم. يصل قرب محلاّت الـA.B.C ويلتفت إلى اليمين: «تقلا والواجهة المضاءة والملابس المعروضة للنظر». ينزل في جاندارك متوجّهاً إلى شارع بْلِسّ. في الهواء رائحة قرنفل ونفايات. الإسفلت مبلّل.

ينعطف يساراً، يمضي صوب آخر شارع بْلِسّ. تأتي رياح باردة

Twitter: @ketab_n

من خلفه، يرفع ياقة المعطف النبيذي اللون. المحلاّت عن يساره مغلقة. فقط الدكان الأوّل مضاء. إنّه «بابلز» محل العصير الكائن عند الزاوية، في مواجهة «الانكل سامز». هنا كانت محطّة الترام القديمة. ومحلّ العصير يليه «صالون سَفَر للحلاقة». والصالون يليه محل «بارون» الأرمني للسندويشات.

يجاوز سينما أديسون. يقف على الرصيف أمام باتيسري سقراط. ينظر إلى مبنى البنروز، هناك كان يعيش «ك». تُرى هل كان يقف على الشرفة وينظر في هذا الاتجاه من حين إلى آخر؟

يشعل مارون سيجارة. ليس الهواء قوياً: رغم ذلك تبدو عملية إشعال السيجارة كأنها معجزة.

يجاوز مخفر حبيش، ويجاوز المبنى القديم للسفارة السعودية. يقف قبالة حرج من الأشجار. يرى البيت. الدرج والدرابزين والأباجور الخشبي.

– والآن، ماذا أفعل؟

المكان مهجور، الأعشاب اليابسة تغطّي المدخل. يمشي مارون قليلاً. يقف قبالة مدخل بيت الداعوق. فجأة يسمع صوتاً خلفه. يلتفت فيرى جندياً سورياً.

يسأله الجندي لماذا يقف هنا.

يكذب مارون قائلاً إنّه جاء ليزور صديقه، وانه لم يجده في البيت.

ينظر الجندي إليه كأنّه لا يصدّقه.

يقول مارون إنه ينتظر التاكسي كي يعود إلى بيته.

– أين بيتك؟

– في الأشرفية.

– أين؟

– التباريس.

Twitter: @ketab_n

– أين؟

– بناية أدوار سماحة، الطابق الخامس.

– تعال معي!

يتبع مارون الجندي حتى الحاجز. يتساءل مارون كيف لم ينتبه للبراميل الحديدية ولأكياس الرمل المصفوفة فوق الرصيف.

يقول الجندي لمارون مشيراً إلى الرصيف المقابل: قف هناك.

تمر سيارة أو سيارتان ثم تعبر سيارة مرسيدس بيضاء. يصفّر لها الجندي ملوّحاً، تتوقف السيارة وتعود القهقرى.

– خذه إلى الأشرفية.

السائق لا يتكلّم. الراديو يبث نشرة الأخبار. السيارة تخترق شارع بُلِسّ كالسهم. تتابع عبر شارع كليمنصو. تنعطف قرب الجيفينور. تسلك شارع محمّد عبد الباقي، ثم شارع الحمرا. تصعد قرب القاعة الزجاجية. تنعطف عند التصالب الذي يسبق بناية نجّار. تذهب يساراً باتجاه الصنائع. ينظر مارون إلى اليمين. عبر بناية سالم، عبر مدخلها المفتوح من الجهتين، يمكن رؤية الشارع الآخر. في الجهة الأخرى بناية عبّود حيث كان يعيش مع «ك» قبل عشرين سنة.

– أغناطيوس الرابع يدخل المستشفى لإجراء جراحة في...

يضع السائق كاسيتاً، فينطلق صوت جورج وسّوف، ويصمت صوت المذيع الخشن.

السيارة تهتزّ فوق جسر فؤاد شهاب ومارون ينظر إلى اليسار. تحت، كانت بيروت القديمة. أين هي الآن؟ في دفاتر «ك»! يرى برج الساعة، ويرى البنايات المهدّمة، ويرى الأضواء وسط البحر.

– يصطادون السمك. وربما اصطادوا كلاباً ميتة أيضاً!

ومارون يتذكر كريمسكي.

الساعة التاسعة والنصف. يفتح مارون البوّابة الحديدية بمفتاحه

Twitter: @ketab_n

الخاص. الدرج معتّم وطويل. يتسلّقه ويده على الجدار البارد. يصعد الدرج ملتصقاً بالجدار لأنّ الدرج غير مزوّد بدرابزين من جهته اليسرى.

قبل زمن بعيد وقع أحد سكان البناية، وكان قد وصل إلى الطابق الرابع. وجدوه في منور الدرج على أرض الطابق السفلي، وكانت جمجمته مهشّمة وأضلاع صدره محطّمة ومبعوجة إلى الداخل، كلعبة سحقها دولاب شاحنة.

الساعة التاسعة والنصف وثلاث دقائق. مارون أمام البوّابة ذات الزجاج المحجّر. هناك صوت تلفزيون، وهناك ضوء. هل يقرع الجرس أم يستخدم المفتاح؟

يخرج علاّقة المفاتيح من جيبه، يفتّش عن المفتاح المناسب، وقبل أن يعثر عليه تفتح أمّه البوّابة.

– إني أحلم بك منذ أسبوعين. كنت أعلم أنّك ستأتي.

الساعة العاشرة والنصف. يخرج مارون من الحمّام ملتفّاً بروب قطني أبيض. تجلس أمّه في غرفة الجلوس بانتظاره، الطعام جاهز. يأكل سلطة خضار وبطاطا مقليّة وبيضاً مسلوقاً.

تبتسم أمّه.

يقول لها إنّه في زيارة عمل سريّة، وأنّه سيعود إلى فرنسا في الصباح الباكر. تحزن أمّه فيخبرها أنّه سيعود في ٧ كانون الأوّل أي بعد أقلّ من أسبوع ونصف.

– بالتأكيد؟، تسأله بلهفة.

– طبعاً، يجيبها.

يلتهم المزيد من السلَطة ثم يمسك بالهاتف ويتّصل بصحيفة «النهار» وبصحيفة «السفير»، ويثبت في كلٍّ منهما الإعلان التالي:

«خرج من البيت ولم يعد،

السيد أنسي اسكندر الحماني،

Twitter: @ketab_n

يُرجى ممّن يعرف عنه شيئاً،

الاتصال بأمّه على الرقم التالي: -٣٢٦٦٣»

يضع السمّاعة من يده، ينظر إلى امّه.

- أحتاج منك إلى هذه الخدمة.

- لكنّك لم تطلب!

- إني أطلب الآن.

- لكنّك أعطيتهم الرقم وانتهيت!

يبتسم لها، فتبتسم ثم تضحك: «حسناً، اطلبْ، ماذا تريد؟».

يقول لأمّه: «إني أبحث عن صديق، وهذه هي الوسيلة الوحيدة كي أعرف أين هو. إنّه مفقود منذ شهر أو شهرين ولا أحد يعرف أين هو. ما أطلبه منك هو التالي: لا تتركي البيت إلاّ للضرورة الفائقة. وعند أي اتصال بهذا الخصوص تتصلين بي إلى فرنسا فوراً بعد أن تسجّلي كلّ شيء على ورقة. هل تستطيعين أن تفعلي هذا لي؟».

الساعة الحادية عشرة.. امّه تغفو وهي جالسة تنظر إليه. يحملها إلى سريرها ويغطيها، ثم يعود إلى الغرفة.

- هل اتّصل بحسن داوود أم لا، وماذا أفعل بالفيلم؟

ويفكر مارون أنّ الفيلم قد بدأ، وأنّه بات يتحرّك بمعزل عنه، فالعقد مع شركة الانتاج قد.....

يتصل بحسن داوود.

- ألو، يقول حسن.

- إني أكلمّك من هنغاريا. سأنزل إلى بيروت في السابع من كانون الأوّل. كيف أحوال السيناريو؟

- جيّدة جداً. لماذا لم تتّصل قبل الآن؟

- لن تصدّق. ذهبنا في رحلة لصيد السمك وكدنا نغرق.

Twitter: @ketab_n

منتصف الليل. مارون يعثر على صندق الصحف تحت طاولة المطبخ. منذ كان طفلاً كانت أمّه تحتفظ بالصحف هنا. فتّش مارون عن اسم «ك» في صفحة الحوادث وفي صفحة الوفيات. فتّش أيضاً عن اسم أنسي وعن اسم اسكندر. أخذ الوقت يقارب الثالثة فجراً، ووجد نفسه يفتّش عن اسم مارون بغدادي.

ترك الكرسي، أحسّ ناراً تحترق في عينيه، فتح النافذة، تنشّق هواء الليل البارد، وفكّر أنّ في صدره ثقباً يزداد اتساعاً يوماً بعد يوم.

في الجهة الأخرى من الشارع كان ضوء العمود الكهربائي يرسم ظلاً رفيعاً لا نهاية له. بدت المدينة مهجورة وساكنة كأنّها تستقرّ في قعر البحر.

Twitter: @ketab_n

الجزء الأخير

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١

– ووف.. ووف... فووووت...

تضع القرعة قرب المنفضة فوق الطاولة العالية. تتمدّد على السرير الحديدي الذي دهنته باللون الأسود قبل أربعة أشهر. تنظر إلى كُرسيّ القشّ، إلى السجّادة القصيرة، إلى المغسلة والابريق والطشت، إلى المرآة المغبّشة، إلى المصباح المتدلّي من سقف الغرفة.

– ووف... ووف... فووت...

الصوت يتكرّر في خيالك. تطفئ المصباح. تلتحف بالبطانية. الشتاء يتراجع. الثلج الذي كان يغطّي البستان انسحب حتى الزوايا البعيدة حيث لا تصل أشعة الشمس. أشجار اللوز بدأت تزهر. والبارحة رأيت البراعم الخضراء تظهر في شجرة التين.

كان شباط رهيباً. فكرت أن السقف سيسقط فوق رأسك. كان الرعد كراجمة صواريخ، والبرق لهب قنابل تنفجر في العتمة. أحياناً كانت الأرض تهتزّ، وتتخيّل البيت يميل متدحرجاً صوب الوادي. تطمرك الثلوج وتغرق في حفرة لا قرار لها ثم تسمع صوتاً وتعرف أنّه جاء كي ينقذك، لكنك تدرك أيضاً أنّ هذا ليس سوى منام. إنه لم يعد هنا.

تغمض عينيك. في أنفك رائحة طلاء نفّاذة. تقول إنها لا تأتي من أعمدة السرير الأربعة وتقول إنها تأتي من أباجور النوافذ. تؤخّر موعد نومك عمداً لأنّك تعبت من الكوابيس. وتقول سأقوم لأمشي

Twitter: @ketab_n

في الغرف الفارغة، أو سأقوم لأفتح الصناديق وأخرج الكتب منها، أو سأقوم لأحاول تركيب ألواح المكتبة المفككة، أو سأقوم لأصنع بعض الشاي. ولا تفعل شيئاً من هذا.

فقط تمدّ يدك وتتناول القنينة عن الأرض.

Twitter: @ketab_n

٢

تقف في شارع بْلِسّ. خلفك بناية عالية. تنظر إليها وتعدّ الطوابق وتقول: «فوق كانت تسكن ميرا. على تلك الشرفة كان يجلس اسكندر. كان ينظر إلى البيت المهجور ويفكّر أنّه سيجني ثروة ثم يبتاعه ويحوّله إلى قصر. كان يرى الأعشاب النابتة في باحته ويقول إنّه سيجلب نصّار من كفرملات كي يزرع وروداً وعشباً أخضر».

تقطع الشارع إلى الجانب الآخر. تضع يدك على الدرابزين. ملمس الدرابزين خشن وبارد. تقول إنّه الصدأ. أنت أمام البوّابة لكنّها مقفلة بالسلاسل. ماذا ستفعل الآن؟

تقول إنّك تحلم. فلأحلمْ إذن أنني طيف، وأنّني قادر على اختراق الجدران. وتفكّر أنّك لم تذق طعم النوم منذ ليالٍ طويلة. ذلك أنّك ما إن تغمض عينيك حتى تسمع ذلك الأنين. هناك من يبكي، من يئن، من يناديك باسمك. تسمع الصوت كأنّه معلّق فوق رأسك، في الغرفة الكبيرة. فتحلم أنّك طيف وتدخل إلى البيت الموصد.

يخيّل إليك انك تسمع موسيقى لأغنية قديمة. أغنية عن الأشباح والموت. تتقدّم في العتمة. لكنّك كلّما تقدّمت خطوة، اكتشفت أنّ الصوت يبتعد عنك أكثر فأكثر.

ثم تنتبه: هذا ليس صوت اسكندر.

تغادر المكان راكضاً. في الجوّ رائحة مطر ورائحة زهر الليمون... تركض باتجاه سينما أورلي فتتذكّر البيت الذي تسلّلت

Twitter: @ketab_n

إليه قبل لحظات. كان خالياً تماماً. كنت تتحرّك في العتمة ولا تصطدم بقطعة أثاث واحدة. وكنت تحسّ أنّك تمشي كأنّك لا تمشي. كأنّ البيت هو الذي يتحرّك. ولم يكن فيه شيء. التماثيل، اللوحات، الكنبات، لا شيء. حتى البلاط سرقوه. ومن حركة الهواء حولك، كنت تعرف أنّهم سرقوا الزجاج أيضاً، وتساءلت لماذا سرقوا زجاج النوافذ وتركوا أباجور الخشب؟

تصعد في طلعة عبد العزيز. رائحة العفن التي خرجت من سينما أورلي جعلتك تدوخ. تركض حتى القاعة الزجاجية. لا تلهث. كأنك لست أنت من يركض. تصعد في الشارع رقم ٥. تنعطف يساراً وتقطع شارع إميل إدّه، وتدخل في النفق القصير تحت بناية سالم. مصابيح الشارع الآخر هي أيضاً مضاءة. تنظر إلى الأرض، ترى ظلّك القصير، وكلّما تقدّمت خطوة، فقدت شيئاً منك. أوّلاً رأسك، بعد ذلك جذعك، وبعد الخطوة الثالثة تبتلع عتمة النفق ظلّك، وتدرك أنّها قد ابتلعتك أنت أيضاً.

تخرج من الجهة الأخرى. قبل أن تخرج تتعثّر مرّتين. ذلك أنّك قد نسيت الدرجات القديمة. تتعلّق عيناك بالبناية التي تواجهك. تراها عبر أغصان الشجرة الضخمة. البناية تغرق في الضوء البرتقالي لمصابيح الشارع. وترى الطابق الثالث كأنّه رأس صخرة يغمر البحر ثلثيها فقط.

وتسمع الصوت. ثم يعود السكون. فقط سيّارات تعبر الشارع العريض إلى يسارك. وحتى صوت هذه السيارات يبدو مخنوقاً، كأنّ الجوّ قد خلا من الهواء.

تقطع هذا الشارع أيضاً. تنظر إلى بناية عبود، إلى الطوابق الأربعة شبه المهدّمة، إلى المياه النازلة عن الشرفات كشلالات صغيرة. تضع يدك على رأسك، لا تجد شعرك مبلّلاً. تنظر إلى الطابق الثاني، إلى حجارة الباطون التي تسدّ النوافذ المشلّعة. تدرك أنّ هناك عمّالاً سوريين يسكنون في الداخل. فذات مرّة جئت إلى هنا في النهار، وكان بمقدورك أن ترى الهوائيّ المنصوب فوق زاوية السطح.

Twitter: @ketab_n

تقرأ ما كتب على اللوحة المعدنية الزرقاء. اللوحة مثبتة إلى جدار البناية قرب مدخل الدرج حيث الباب المقفل بالسلاسل.

«شارع جورج عاصي. رقم ٥٢.

منطقة الصنائع. رقم ٤١.»

تذهب إلى البوّابة الأخرى، بوّابة الطابق السفلي المواجهة لمبنى الإذاعة، فتجدها مقفلة أيضاً. وعلى الباب الحديدي الأسود المليء بالتخاريم، ترى لوحة زرقاء أخرى. هذه أصغر من الأولى ولا تحمل كتابة. فقط الرقم «٢٠».

عن جانبي البوّابة مصباحان عاليان. الكلوبان تحطّم زجاجهما. أنظرُ عبر القضبان الحديد وعبر الأغصان اليابسة. الباحة أمام مدخل الطابق السفلي تغطّيها النفايات. كيف دخلت النفايات والبوّابة مقفلة؟ أنظرُ إلى البناية القريبة. شرفات محطّمة الدرابزين، وحبال غسيل طويلة، وستائر مصنوعة من بطانيات الصوف العسكرية. أتخيّل الكيس يسقط عن الشرفة، أراه يقع وسط الباحة المغطّاة بالأوراق اليابسة. أغمض عيني، أعد الدرجات، إنها أربع، بعدها يأتي البلاط الموشّح ثم البوّابة الخشبية المطلية بالأبيض. في الداخل تجلس سامية عبود، الجدائل البيضاء تتساقط على كتفيها مثل رقع الثلج، تنتظر نهاية الشهر كي ندفع لها الإيجار لتشتري المزيد من كرات الصوف.

الصنارة الرفيعة التي تمسك بها اليد ذات التجاعيد تجعلني أتذكّر الهوائيّ المنصوب فوق زاوية السطح. في اللحظة ذاتها أسمع الصراخ. ليس صراخاً، لكنّه صوتٌ بكاء، وأنينٌ يشبه نداءً أخيراً. أخلع بوّابة الدرج، لا أعرف كيف، لكني أخلعها. أتسلّق الدرج، هناك أشخاص يعترضون دربي. أقول لهم إنّ هذا البيت كان بيتي فيبتعدون عن طريقي. أصل إلى الطابق الثالث وأقرع الجرس الكهربائي. طبعاً لا يصدر الجرس صوتاً، فأطرق الباب بقبضتي.

– اسكندر، هل أنت في الداخل؟

Twitter: @ketab_n

لا صوت يجيبني. حتى الأنين يختنق ويموت.

– مارون، هل أنت في الداخل؟

أخرج المفتاح القديم من جيبي، كنت أحسب أني أضعت هذا المفتاح، لكنه هنا. أغرزه في القفل وأديره ثم أدفع الباب. عتمة دامسة وأنين يأتي من نقطة بعيدة. أتقدّم فأكتشف أنّني أدوس الفراغ فقط. يسيل العرق على سلسلتي الفقرية، إني أهوي، وأدرك أنني سأموت، وفي تلك اللحظة أستيقظ. دائماً أستيقظ قبل أن أرتطم بالأرض.

تذهب إلى المطبخ وتشرب مياهاً باردة من حنفية المجلى.

Twitter: @ketab_n

٣

مات مارون بغدادي في ١٠ كانون الأوّل ١٩٩٣. كان قد وصل إلى لبنان قادماً من فرنسا قبل ثلاثة أيام فقط. استقلّ التاكسي من مطار بيروت إلى بيت أمّه في التباريس. كانت تتناول عشاءها. جلس معها وأكل لبنة وبصلاً. سألته عن أحواله وعن طارق وعن فيرونيك وليلى. فيما بعد طلب منها أن تعدّ له بعض الشاي.

– شاي؟ سألته مذهولة.

وفيما كانت تحضّر الشاي دخل هو إلى غرفته. فتح الخزانة وأخرج بذلة سوداء. خلع بنطلونه ثم جلس على حافة السرير. أمسك سمّاعة الهاتف واتّصل بجريدة «السفير» ثم بجريدة «النهار» كي يطلب تجديد الإعلان أسبوعاً إضافياً.

وفي الاتصالين توجّب عليه أن يعيد تلقين الطرف الآخر الخبر نفسه:

«خرج ولم يعد

السيد أنسي اسكندر الحماني،

يُرجى ممّن يعرف عنه شيئاً

الاتصال بأمّه على الرقم التالي: – ٣٢٦٦٣».

وبعد ذلك رقّم البطاقة المصرفية، و: «شكراً».

ونادت أمّه من الداخل: هل أضع سكّراً في الابريق؟

وابتسم وهو ينهض ليرتدي ثيابه، وقال «لا».

Twitter: @ketab_n

قرابة العاشرة ليلاً غادر المنزل.

وعيناه كانتا شاردتين.

***

في الأيام الثلاثة التي قضاها في بيروت كان مارون يركض من مكان إلى آخر. قال إنه ينوي البدء بتصوير فيلمه في السابع من شهر كانون الثاني. كان يجتمع مع حسن داوود يومياً، وكان سيناريو الفيلم يوشك على الانتهاء. اسم الفيلم: زوايا.

تفرّج على مواقع التصوير في شوارع التباريس. ذهب إلى ساحة ساسين ووقف حيث كان يبيع الشوكولاتة والعلك والمفرقعات قبل أكثر من ثلاثين سنة. كلّ شيء تبدّل، قال لنفسه.

نزل في شارع السيوفي، تجاوز محلاّت «كلّ شيء للنظر»، ودخل في زقاق إلى اليمين. محل البيت القديم الذي كان يسكنه جوزف الحايك بيت آخر. والقبو طمروه. مشى مارون حتى آخر شارع السيوفي. كان ضوء النهار يتلاشى، وتفرّج على الأضواء في القاطع المقابل. وجاءت ريح من الوادي تحته وسمع أغصان شجرة الكينا تضرب جدار البناء القريب. استدار وعاد إلى ساسين.

كانت الساعات تركض، طلب من مساعديه الذهاب في جولات استطلاعيّة في أنحاء بيروت بحثاً عن مواقع يكثر فيها تحليق الحمام. قال إنه يريد تصوير مشهد سرب من الحمام يحلّق فوق سطح مبنى مهجور.

كانت الساعات تركض. بحث بين أوراقه القديمة عن رسائل ثريا، فلم يجدها. كلّ شيء يتلاشى، قال لنفسه.

كانت الساعات تركض. في مساء الجمعة ١٠ كانون الأوّل ١٩٩٣ تناول طعام العشاء في مطعم برج الحمام، برفقة صديقة له تدعى ريما طربيه. وكانت معهما صحافية أميركية اسمها لوريس ميلر. سألته الصحافية عن الفيلم. أخبرها أنّه مضطر للسفر إلى باريس غداً وأنّه سيعود إلى بيروت في بداية الشهر المقبل، وأنّ الفيلم سينتهي قبل فصل الربيع.

Twitter: @ketab_n

– هذا رائع! قالت الصحافية باللّغة الانكليزية.

ومارون تساءل في سرّه كم مرّة سمع هذه العبارة مكرّرة بهذا الأسلوب ذاته، مع الالتفاتة غير الضرورية للعنق، ومسحة التعجّب المرسومة بإتقان فوق الجبين، وحركة الأصابع فوق المائدة، والشفاه التي تبقى مفتوحة بعض الشيء، والرائحة التي تفوح فجأة ربما لأنّ حركة العنق السريعة تبثّ ما يكفي من الحرارة كي ينتشر العطر أو مرهم البشرة، أو ما لا يعرف اسمه.

وتذكّر مارون ثريا، وفكّر في الرائحة وفي أحاديث «ك». وتمنّى لو أن السنوات لم تعبر. وتمنّى لو تخرج ثريا عائدة من التواليت فيعتذر منها ويخبرها أنّه لايزال يحبّها ويسألها أين تشعر بالألم بالضبط، ويقول لها: «غداً آخذك بنفسي إلى الطبيب النسائي، أرجوك لا تغضبي لأنّ الأفلام تأخذ الكثير من وقتي».

والآن كانت الصحافية تسأله عن كاتب السيناريو. وأخذ يشرح لها أنّه قام بكتابة السيناريو باللّغة الفرنسية أصلاً، وأنّ السيناريو كانت تنقصه الحوارات وأنّه الآن كلّف روائياً لبنانياً بمتابعة العمل، وأنّ السيناريو قد أُنجز تقريباً.

سألته الصحافية عن اسم الروائي.

قال: حسن زبيب.

ضحكت ريما طربيه فانتبه فقال: حسن داوود. اسمه الحقيقي حسن زبيب. اسمه الأدبي حسن داوود.

قالت الصحافية: لا أعرفه.

قال مارون: لأنّه غير مترجم. لديه رواية جميلة اسمها بناية ماتيلد.

ضحكت ريما. كانت تعرف أنّ مارون لا يحب القراءة.

سألته الصحافية هل هي أجمل رواية لبنانية قرأها، وماذا يحب من الروايات الأميركية.

Twitter: @ketab_n

نظرت ريما إلى مارون، سمعته يقول: أجمل وأهمّ رواية مكتوبة في لبنان هي رواية «الظل والصدى» ليوسف حبشي الأشقر. وأجمل رواية اميركية قرأتها، وأرجو منك أن لا تضحكي، هي توم سوير لمارك توين.

لم تضحك الصحافية، وابتسمت ريما.

وسألته الصحافية ماذا قرأ أيضاً من الأدب الأميركي وكيف يجد الأفلام الأميركية المقتبسة عن الروايات أو المسرحيات. مثل فيلم «القيامة، الآن» لكوبولا.

قال مارون إن كوبولا أستاذه، وإنه يحبّه ويحب أفلامه. ظلّت الصحافية تنظر إليه. كان عليه أن يواصل الكلام. تذكر فيلم «عن الرجال والفئران». لم يكن قد شاهده بعد، لكنه قرأ عنه خبراً صغيراً في صحيفة البارحة. والخبر كان قد لفت انتباهه لأنّه تذكّر فجأة أحد أحاديثه مع «ك».

قال: هناك فيلم يعرض في اللاسيته هذه الأيام عن رواية الأميركي شتاينبك. هذا فيلم جميل مثلاً لكنّه لا ينجح في نقل الرواية كفاية. أقصد: في عمقها النفسي.

– صحيح، قالت الصحافية بلغتها الانكليزية.

– وهناك رواية لبنانية مهمّة أيضاً اسمها «الوجوه البيضاء». تابع مارون، وتصلح لصناعة فيلم جميل.

لم تعد أعصابه مشدودة، انطلق يتحدّث، قرّر أن لا يشمّ رائحة بخار العطر القادم من جميع الجهات، وأخذ يعدّد أسماء أجمل الأفلام التي شاهدها خلال حياته.

فيما بعد دخلت الصحافية في نقاش مع ريما حول أحد الأفلام. بدا صوتهما كأنّه يخرج من راديو قديم. شيء يشبه الطنين. وأحسّ مارون نفسه يُقذف بعيداً. كأنّه يسبح في الفضاء. كأنّه يقفز فوق سطح القمر. كأنّه في مكان آخر. ثم عادت الرائحة.

كانت الساعات تركض. تركوا المطعم قرابة الساعة الحادية

Twitter: @ketab_n

عشرة والنصف. أضواء المصابيح تلتمع فوق الطريق. بدا الشارع نهراً من الأضواء. أغمض مارون عينيه: هو و«ك» وثريا، ساحة البرج عام ١٩٦٩.

كانت الساعات تركض. توقّفت السيارة أمام فندق البريستول. نزلت الصحافية. ابتسم مارون لها. قال في نفسه إنّ الرائحة لم تعد قوية كثيراً. انطلقت السيارة مرّة أخرى.

قال لريما: تقودين ببراعة!

سلكت السيارة جسر فؤاد شهاب، نظر مارون صوب البحر. مرّة أخرى: أضواء المراكب، برج الساعة، المباني المهدّمة. هنا كانت الأسواق، هنا كانت ساحة البرج. لا شيء.

تحدّثت ريما عن فيلم «فتاة الهواء»، قالت إنّها قرأت عنه. سألته هل لديه نسخة منه في البيت.

– نسخة؟ سألها وقد انتبه من شروده.

– أعني هل لديك كاسيت، كاسيت فيديو.

أوقفت ريما السيارة أمام بناية سماحة.

قال مارون: اللعنة، الكهرباء مقطوعة.

ضحكت ريما: صحيح. كأنكم تملكون مصعداً في بنايتكم!

قال مارون إنّ الدرج لا يتعبه لكنها العتمة.

قالت ريما: هل ستجلب لي الكاسيت أم لا؟

ترجّل مارون من السيارة، دخل إلى البناية. هبّ هواء بارد، أغلقت ريما زجاج النوافذ، رفعت صوت الراديو. سنفونية من بتهوفن. انتظرت نصف ساعة، لم يرجع، انطلقت بالسيّارة.

كانت الساعة تقارب الواحدة ليلاً.

Twitter: @ketab_n

٤

المديرية العامة لقوى الأمن العام

قيادة شرطة بيروت

سرية بيروت الإقليمية الثالثة

فصيلة الجميزة.

رقم ٣٠٣/٧١٤

تاريخ ١٩٩٣/١٢/١١

الموضوع: محضر تحقيق حول سقوط مارون بغدادي في منور درج بناية سماحة/ محلة التباريس، سبب وفاته.

في الساعة الثالثة عشرة من يوم السبت الموافق للحادي عشر من شهر كانون الأوّل عام الف وتسعماية وثلاثة وتسعين.

نحن الرائد يوسف سمنة آمر فصيلة الجميزة،

ثبت انّه أثناء وجودنا في مركز الفصيلة أُعلمنا هاتفياً عن وجود شخص على أرض الطابق السفلي منور الدرج في محلّة التباريس بناية سماحة ممدداً على الأرض والدماء تنزف منه. عندها أعلمنا حضرة المقدم قائد السرية الإقليمية الثالثة بهذا الحادث وانتقلنا برفقته على رأس دورية مؤلّفة من المعاون سمير عيسى رقم ٤٢١٥ والرقيب مشموشي رقم ٧٧٤٨ والعريف سمير المعلوف رقم ١٥٨٣٣ والشرطي انطوان المعلوف رقم ١٨٦٨٩. وبوصولنا شاهدنا قوّة من

Twitter: @ketab_n

الجيش اللبناني في مدخل البناية وعلمنا منها أنّ الشخص الجريح قد نُقل إلى أحد المستشفيات ويعتقد أنه مستشفى الجامعة الأميركية. عندها، ولدى الكشف على مكان الحادث شاهدنا بعض الدماء على حجر باطون في الطابق السفلي للبناية بقطر عشرة سنتم وعلى مسافة أربعين سنتم تقريباً يوجد بقعة دماء ثانية بقطر خمسة عشرة سنتم تقريباً طلبنا من مكتب حوادث بيروت فحضرت دورية برئاسة حسّان قونيد وقامت بأخذ الرسوم لبقع الدماء، أعلمنا قيادة سرية بيروت الاقليمية والمقرّ العام بموجب برقية رقم ٢٣٩٥ بهذا الحادث وتبيّن لنا أنّ المصاب يدعى مارون بغدادي كما صرّح لنا ناطور البناية المدعو غسّان عبد المسيح زياده قمنا باستماعه على الشكل التالي: (.....).

***

الكشف على الجثّة:

جثّة رجل في العقد الرابع من العمر القامة ١٨٠ سنتم تقريباً حليق الذقن والشارب يوجد خدوش وتورّم في الوجه مع جرح بليغ في الرأس وكسر في يده اليمنى وجرح بليغ في رجله اليسرى وجرح في صدره ويرتدي بنطلوناً أسود وجاكيتةً سوداء وحذاءً لونه باج غامض وهذه الجثة عائدة للمتوفى مارون بغدادي...

***

تقرير الطبيب الشرعي:

بتاريخه وبناء على التكليف الرسمي من قبل مخفر الجميزة عاينت في الساعة الثامنة عشرة في مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت جثّة السيد مارون بغدادي (عمره ٤٣ سنة) فتبيّن أنّ طوله ١٩٠ سنتيمتر تقريباً، وعند فحص الجسم والأطراف العليا والسفلى لم يتبين وجود أي علامة عنف أو مقاومة.... وتبيّن وجود تورّم الجفن الأعلى والأسفل... من العين اليمنى واليسرى نتيجة كسر قاعدة الجمجمة (Fracture de la base du crane) ووجود سحجات جلدية (Egratignures) عديدة على الصدر والبطن وظهر

Twitter: @ketab_n

اليد اليسرى وإبهام اليد اليمنى نتيجة احتكاك الجسم بالأرض.

– وجود كسر في الكتف الأيمن.

– وجود سحجات متعدّدة على الوجه الأمامي من الفخذ الأيسر.

إنّ هذه الجراح متسبّبة عن اصطدام الجسم بالأرض من مكان مرتفع.

في سبب الوفاة:

إنّ الوفاة السريعة التي حدثت كان سببها كسر قاعدة الجمجمة ونزيف في الأوعية الدموية الدماغية. وللبيان حرّر.

الطبيب الشرعي لمدينة بيروت

محمد قليلات

في ١٩٩٣/١٢/١١

***

Twitter: @ketab_n

٥

في ١٥ كانون الأوّل ١٩٩٣، بعد خمسة أيّام على موت مارون، كتب حسن داوود في صحيفة «الحياة» اليومية مقالاً طويلاً بعنوان: «مشهد أخير من سينما الحياة». وممّا جاء في المقال المذكور: «... حين التقيته قبل حوالي شهر من وفاته، كان مضيئاً في بيت زهير رحال. قلت له بِتُّ أصغر في العمر يا مارون. وهو بدا فعلاً كذلك. السنوات العشر الفاصلة جعلتنا، نحن المقيمين هنا، أقلّ معرفة بالأناقة. وهو كان أنيقاً على عادته، الأناقة الاستثنائية التي تليق به. بوجهه وبجسمه الطويل.... أن أشاركه في نصّ فيلمه الأخير الذي لم ينجز، وفي حواراته، فهذا أقرب إلى أن يكون وضع عقلين في رأس واحد.... كان مارون يرى أنّ الحياة هي هكذا، سريعة كثيرة الأحداث، والبشر الذين فيها شخوص من فيلم أميركي متوتر قلق.... يرى مارون شخصياته في حركة متّصلة ومبالغة إذ لا يمنعه شيء من أن يقتل رجلاً أو اثنين بقلب وعقل باردين. لا ينتظر أن يصير موت الرجل مقنعاً حتى يميته. لا يتردّد في الوقت الضيّق الذي يسبق حدوث الحدث... جدْ يا مارون طريقة لنتخلّص من الرجل الرابع، أقول له. يجدها، هكذا في لحظة، قال لي مثلاً، بعد دقيقتين، انه يمكن أن يسقط عن سطح مًا، من طابق عال. ثم وصف هذه الميتة بأنّها أسخف الميتات... إنها أسخف الميتات، قال لي. كان ذلك قبل يوم ونصف اليوم من وفاته. في الحادية عشرة والنصف اتصلت بإيلي أضباشي وطلبت منه أن يعطيني مارون لأودّعه. قال

Twitter: @ketab_n

إنّه لم يأتِ وإنّه تأخّر عن مواعيده وإنّ بال إيلي بدأ ينشغل عليه. كان سقط في الواحدة ليلاً من درج الطابق العالي، إلى الأسفل، هكذا من دون مسوغ ولا لحظة قلقة تسبق حدوث الحدث. حول وقائع الحادثة سمعت روايتين أو ثلاثاً انتهى كلّ منها بوجوده مسجى نازفاً في ذلك القبو المفتوح صعداً حتى الطابق السابع. كان ذلك أشبه بإعادات متكرّرة لحادثة واحدة قلبتها الشائعات. إيلي اضباشي وحسن بدر الدين فيما بعد، وصفا حادثة نقله إلى المستشفى: كنا كثيرين. ركضنا متصايحين إلى الأسفل. بعضنا أوقف سيارات على الطريق وجعل ينادي المارّة. أحضرنا مقعداً خشبياً كسرناه ليصير مثل محفة نقلنا عليه مارون. في «الفان» الذي نقلناه به إلى المستشفى كانت قدما مارون في الخارج، وكنا معه فيه. وسارت معنا سيارتان واحدة في الأمام وأخرى في الخلف ولم نتوقّف عن إطلاق الزمامير لتفسح السيارات الطريق. هذا مشهد من فيلم لمارون، أو مشاهد من أفلام كثيرة له: حروب صغيرة، خارج الحياة، وسواهما. كان يعتقد بأنّ أموراً مثل هذه قد تحدث لا في السينما فقط بل في الحياة أيضاً».

***

ذلك الأسبوع أيضاً كتب الياس خوري في «ملحق النهار»:

«جاء مارون بغدادي إلى بيروت حاملاً مخطوطة السيناريو.

كان مصراً عليها...

هذا فيلم سيرة ذاتية، قال، أريد أن أبدأ من سيرتي الذاتية ثم أمدّ منظور الرؤيا كي يشمل ما بعد الحرب في بيروت...».

***

مضى كانون الأوّل ثم كانون الثاني ثم شباط. والأيام تركض. عام ١٩٩٣ انتهى. بدأ عام ١٩٩٤.

في «ملحق النهار» الصادر صباح السبت ١٢ آذار ١٩٩٤ قرأ «ك» ما يلي: «ننشر النصّ الأخير، الشهادة، التي كتبها مارون

Twitter: @ketab_n

بغدادي، كمقدّمة لسيناريو فيلمه «زوايا» الذي جاء إلى بيروت ليصوّره فوجد نفسه مرمياً في «زوايا» الدرج المعتم في منزل والدته... جاء مارون إلى بيروت حاملاً هذا النصّ ومشروع السيناريو المرافق له، قال إنّه فيلم شخصي....»

توقّف «ك» عن القراءة. أخذ يتفرّج على الصور. صورة أثناء تصوير «فتاة الهواء»، ظهر مارون ينحني قليلاً كأنّه يستعدّ للقفز. صورة وسط الحقول ينظر إلى شيء لا يظهر في الصورة. صورة أثناء تصويره «بلد العسل والبخور». صورة خلال تصوير «خارج الحياة». لفتت الصورة الأخيرة انتباه «ك». في هذه الصورة رجل يحمل كاميرا – فيديو على كتفه ويركض مطارداً مشهداً ما. خلف الرجل، إلى يساره، يظهر مارون بنظارته السوداء. قربه هيبوليت جيراردو، الكاميرا الفوتغرافية تتدلّى من عنقه. وكلاهما يرتدي الثياب نفسها. حدّق «ك» جيّداً، رأى الساعة في يد مارون.

في نهاية النصّ ثبتت الملاحظة التالية: «نقله عن الفرنسية بسام حجّار». «عربية ثم فرنسية ثم عربية»، فكر «ك» أنّه أمر مضحك.

قرأ «ك» في الصفحة ١٤: «كنت في طريقي لرؤية زياد، الصديق الحقيقي الوحيد الذي كنت أودّ أن أراه منذ عودتي إلى البلد. قضينا سوياً سنتين في كلية الحقوق في جامعة القدّيس يوسف للآباء اليسوعيين. وسوياً ناضلنا في صفوف منظمّة العمل الشيوعي في لبنان، وأشرفنا على تحرير الصفحات الثقافية في المجلّة التي تصدرها المنظمة، وشهدنا تتابع أحداث الحرب الأهلية، لأننا كنا نشترك في السكن بشقة تقع على مقربة من حديقة الصنائع في منطقة شديدة الاختلاط ببيروت الغربية.

لقد كنت مصرّاً طوال الوقت على الاتصال بزياد. حتى إنّه أتى ذات مرّة لزيارتي في باريس، وحاولت أن أقنعه بأن يحذو حذوي فيبدأ دراسة الطب هناك.

ثم فجأة انقطعت عنّي أخباره خلال السنوات الثلاث الأخيرة. توقّف عن كتابة الرسائل وامتنع عن الردّ على كافة الرسائل

Twitter: @ketab_n

الشفهية التي كنت أحمّلها لمسافرين قد يرونه أو يتصلون به. وآخر ما بلغني عنه، انه اختار حياة العزلة في الجبل حيث يعيش كمتزهّد. وقيل لي إنّه أصبح يؤمن، كعدد كبير من ابناء طائفته، بتقمّص الكائن البشري. وهي العقيدة التي ترى أن الروح بإمكانها أن تحيى على التوالي عددا من الأجساد.

إنّ هجرة الروح الداخلية هذه كانت تفتن زياد. ولقد حدّثني عنها مطوّلاً ذات يوم حين علمت أنّه درزي. لقد حدّثني آنذاك بشيء من الدقّة، ولم أستطع أن أتبيّن بوضوح: هل يخالط كلامَه شيءٌ من السخرية؟ كان يقول إنّ الإنسان مكوّن من عقل، ومن روح تتّحد بها صورة روحية على هذا القدر أو ذاك من الكمال، ومن جسد أيضاً. الجسد غلاف الروح أو كسوتها، غالباً ما يُسمّى: «القميص». واتّحاد الروح بجسد معين يكوّن الشخص. تنتقل الروح على التوالي من جسد إلى آخر ثم آخر ثم... وتشكّل بهذه الطريقة عدداً من الأشخاص... فأي واحد من هؤلاء الأشخاص سألتقي اليوم حين ألتقي زياد؟...

كان زياد هو زياد الذي أعرفه. وكان استقباله رائعاً وحاراً على جاري عادته، لكنّه ازداد سمنة تُضاعف من مظهر طيبته. لم يفقد شيئاً من نزعته التهكمية التي كنا نحسب انها مجرّد حسّ دعابة، فاستقبلني بالعبارة التالية: «مرحباً، مسيحي هنا، سوف تكون وليمة بالفعل».

سألني: هل انتهيت من مسألة مقتل والدي. فأجبته بأنني هنا لأدفن أمّي.

كان زياد بعد انفصاله عن منظمة العمل قد عاد إلى الجبل ليعمل في ....».

توقّف «ك» عن القراءة، أخرج محرمة من جيبه، تمخط، قفزت نظراته على الأسطر.

وصل إلى المقطع الأخير: «...بات يكرّس وقته لتربية النحل. أقضي الليلة في ضيافة زياد. وفي اليوم التالي، أنهض من النوم

Twitter: @ketab_n

متأخّراً فأذهب لملاقاته بين بيوت النحل، فيحدّثني عن النحل ودقّة تنظيم عالمها وعن التنظيم الكوني... فأصارحه بأنّني عدت لأعثر على قتلة والدي. في البداية يمازحني، ثم يجد الأمر عبثياً. ويقول لي إنّ ما افعله ليس أكثر من مراهقة رومانسية، لأنّني لو كنت فعلاً أريد الانتقام، ولو كان لديّ فعلاً «نداء الدم» هذا، لما كنتُ غادرت لبنان، وأنّه فات الأوان لكي ألعب دور مونت – كريستو».

يشرد «ك» قليلاً ثم يضع خطّاً فوق «مونت – كريستو» ويكتب: «الكونت دي مونت كريستو».

يرمي القلم جانباً، ينظر في المرآة المغبّشة، يمضي إلى البستان.

Twitter: @ketab_n

٦

جئت إلى هنا في تشرين الأوّل. خلال تشرين الثاني أعدت طلاء أباجور النوافذ بنفسي، ودهنت أعمدة السرير. قمت أيضاً بإبعاد معظم الكنبات والأسرّة إلى القبو. هكذا بات بمقدوري أن أتحرّك بين الغرف بمزيد من الحرية.

الأغراض أشتريها من ساحة البلدة. خلال شباط والشهرين اللذين سبقاه، كنت أنزل إلى الساحة مرّة واحدة فقط كلّ أسبوع، تجنّباً للانزلاق على الجليد الذي يغطّي الطريق طوال ساعات النهار تقريباً. في المتجر سمعت عجوزاً يتكلّم عن امرأة سقطت وكسرت وركها، وهي تلمّ الغسيل عن الحبال. كان يتكلّم كمن يخبر نكتة.

قرأت الخبر عن مارون بعد ثلاثة أيّام من حصول الأمر. كنت قد نزلت إلى البلدة كي أقصّ شعري، وجلست على الكنبة في الصالون. كان الحلاّق يقصّ لشاب في نحو العشرين من عمره. سألته متى ينتهي، قال لي: ارجعْ بعد نصف ساعة. خرجت وابتعت ربطة خبز وبعض الخضار من المتجر القريب.

قفلت عائداً إلى صالون الحلاقة. كانت بوّابته الزجاجية تُظهر صورتي عريضة جداً. ابتسمت لشكلي المشوّه وتابعت التقدّم وأنا أحدّق في وجهي وفي البيوت المرتسمة من حوله. فجأة سمعت صوتاً عن يميني. التفت فلم أرَ أحداً. حيث أنظر يمتد قبو عقد

Twitter: @ketab_n

مفتوح من الجانبين. في الجهة الأخرى منه معصرة زيتون كان جدي يمتلك نصفها حين كان شاباً. القبو أشبه بنفق معتم. حين اعتادت عيناي الظلمة تبيّنت شخصاً يقترب. كان له طول مارون. وكان يمشي مثله. وكنت متأكداً أنني لم أرَه من قبل قط.

سألته ماذا يريد.

قال إنّه لا يريد شيئاً.

قلت: لكنّك ناديتني، أنا سمعتك.

قال إنه لم يفعل.

اعتذرت ثم دخلت إلى الصالون.

وضعت الأكياس بين قدميّ وجلست على الكنبة. قال لي الحلاّق إنّه سيقصّ لي بعد خمس دقائق فقط. أخرجت سيجارة وأشعلتها. رأيت الدخان يتصاعد في المرايا الكثيرة. وصوت المقصّ ذكّرني بحلاّق آخر وصالون آخر.

قال الحلاّق: على الطاولة صحيفة اليوم إذا أردت، وهناك أيضاً مجلاّت.

نظرت صوب الطاولة. متى كانت آخر مرّة ابتعت فيها صحيفة أو قرأت خبراً عن العالم الخارجي؟ لم أتذكّر. وقفت وجمعت بعض المجلاّت والصحف وعدت بها إلى الكنبة.

قرأت العنوان العريض: قمّة الهراوي – الأسد.

قفزت نظراتي إلى وسط الصفحة، رأيت صورة مارون. قبل أن أقرأ شيئاً أدركت أنّه قد مات.

الكلمات القليلة الأولى: ها هو انتهى بالنسبة إلى مارون بغدادي زمن الاغتراب.... العنوان: عريس السينما اللبنانية... وفي آخر المقطع: بل أي سينما؟ (التتمة صفحة ١٢).

افتح الصفحات، يداي ثقيلتان، جسدي برميل رصاص، جاذبية الأرض تمتصني نزولاً.

Twitter: @ketab_n

على الصفحة التاسعة أرى له صورة أخرى وهو يتلقّى جائزة «كان ٩١»، عن فيلم «خارج الحياة». البذلة السوداء، ربطة العنق، المنديل الخارج من الجيب العلوي. أقرأ ما كُتب في الأسفل.

أراه يبتسم. ليس اللون أبيض حول بؤبؤيه، بل بنفسجي. هذا مارون، هذا كان مارون، هذا...

نظراتي تزوغ. أضع الصحيفة جانباً.

الحلاّق يقول شيئاً ما للشاب.

الشاب يقول إنّه يفضّل قراءة الصحف القديمة.

الحلاّق يقول: نعيماً ربيع!

الشاب يترك الكرسي الكبيرة.

أراه يتقدّم منّي. أغمض عيني. أسمع صوت ثيابه، حركته، كيف ينحني، كيف يجذب إحدى الصحف المستقرّة على الكنبة قربي، كيف يتنفّس، كيف يستقيم واقفاً، كيف يبتعد خطوتين. افتح عينيّ، أرى الأشياء عبر غلالة....

– ما برجك؟ يسأل الشاب الحلاّق.

يقول الحلاّق إنه من برج الحوت. ويقرأ الشاب: «تبقى كما أنت ولن تدفع ما عليك إلاّ والصواب معك والحساب قمت به جيّداً».

أفكّر بمارون، أراه يسقط، أحسّ بانقباض مفاجئ في عضلات القلب. وأقرّر أن أتنفّس، فأخرج نفساً وآخذ آخر.

أصابعي لونها أزرق. مارون من مواليد برج الميزان، أفكّر. وأحسّ عرقاً بارداً يسيل على عنقي وظهري، ويقوى الوجع تحت أضلاعي.

أتنفّس أيضاً، أتشجّع، الادرينالين يجري في دمي، أقول إنني بخير وأطلب ماءً من الحلاّق. وبعد أن أشرب من الإبريق الذي جلبه لي أقوم واقفاً.

– ما برجك؟ يسألني الشاب مبتسماً.

Twitter: @ketab_n

أفكّر أنّني كنت مثله قبل زمن بعيد.

– الميزان.

– «العذراء، العذراء، الميزان. اسمع: الميزان، ها أنت في وحدتك ولست كذلك حقاً بل تخطو الخطوة الأولى. وهناك أحدهم قريب وسوف يأتي إليك ويحييك.

أحمل أغراضي وأتحرّك صوب البوّابة.

الحلاّق: ألا تريد أن تقص؟

أقول شيئاً لا أعرف ما هو ثم أغادر. أمشي في أنحاء البلدة حتى الظهيرة. أدور حول معمل الباطون والمدرسة القديمة، ثم أتّجه صوبَ الكنيسة المهدّمة. لا أنتبه للغيوم التي تزداد دكنة. ضوء أزرق يخترق الأفق ثم يتلاشى كأنّه لم يكن. في لحظة خاطفة أسمع دوياً هائلاً، يرتج الفضاء حولي، وترتعش الأرض تحت قدمي. ثم تسقط الأمطار كأنّها شلاّل.

أخذت أركض صوب البيت. كان البيت بعيداً جدّاً. الطريق طويلة وخالية ولهاثي يَطْغى على صوت المطر. توقفت عن الجري. الآلام في الصدر مجدّداً. أخذت أمشي. سقط كيس الخبز من يدي، تلطّخ بالوحل. أحسست أنّني لن أصل أبداً. ووجدتني أقول: عليّ أوّلاً أن أقطع نصف المسافة.

في الليل لم أستطع النوم. العاصفة تهدر كراجمة صواريخ أرض – أرض. فكّرت أنّ السقف سيقع فوق رأسي. مع الفجر، تحرّكت الأرض تحت البيت فتخيّلته يهوي إلى الوادي متدحرجاً. غفوت قرابة الخمس دقائق، وحلمت أنّ مارون يعثر عليّ مطموراً تحت الثلوج وأنني لم أمت.

Twitter: @ketab_n

٧

تساقطت الثلوج للمرّة الخامسة في الأسبوع الثاني من شهر آذار. لكنها ذابت قبل غياب الشمس. الشاحنة التي نزلت إلى بيروت عادت محمّلة بالصناديق. وقف «ك» على المصطبة وراقب الشاحنة تصعد الطلعة الصغيرة ثم تتوقّف. انزل العمّال الصناديق وصفوّها في الصالون الشرقي. قبل الصناديق انزلوا الألواح الخشبية الطويلة والواح الفلّين المربّعة.

أكبر العمّال قال لـ«ك» إنّ محمد وعبدو يبلّغانه التحيات.

قال «ك»:هل تعبتم في فكّ الألواح عن الجدران؟.

قال كبير العمّال: انه عملنا. نفكك الأشياء، ننقلها، ثم نركّبها.

دفع «ك» للرجل النصف الثاني من المبلغ الذي اتفقا عليه في اليوم السابق. راقب «ك» الشاحنة وهي تبتعد.

قال «ك» لنفسه: وسأشتري دجاجاً، وسأشتري أرانب.

وبعد أسبوع واحد، وكان قد أعاد قراءة النصّ المنشور في «الملحق»، قال لنفسه: وربما جلبت قفير نحلٍ أيضاً!.

Twitter: @ketab_n

٨

جاء صاحب الثور وفلح أرض البستان. دفعت له خمسين ألف ليرة. وقفت أمام الأرض المفلوحة وتخيلتني أنحني وأقبض على حفنة من التراب وأشمّها. سرت نحو البيت ضاحكاً.

كان ذلك قبل يومين. في الليل رأيت ذلك المنام مرّة أخرى. أسمع الأنين وأقرع الباب ثم أفتحه وأدخل. أجدني أهوي في الفراغ المظلم. رأسي يخبط الجدار، كتفي الأيمن يلتوي إلى خلف، كأنّ غوريلا ضخمة تمسك به، وقبل أن ارتطم بالأرض أستيقظ.

في النهار ذاته، أحسست أوجاعاً في ظهري وركبتي، فتركت البستان ورجعت إلى السرير. دون أن أنتبه غفوت. ومرّة أخرى تكرّر المنام ذاته. فتحت عيني، حدّقت في حبل المصباح. الساعة تقارب الواحدة ظهراً. لم أعد قادراً على رؤية الحبل. كيف مضت الساعات، لا أعلم. هبط الظلام.

البارحة صباحاً صعدت إلى تلّة الكروم. كان هدفي النزهة. اخترقت حرج الملّول، وصعدت في الطريق المؤدّية إلى حيّ النصارى القديم. درت حول البيوت المهدّمة وتابعت سيري. كان الهواء بارداً قليلاً، أحكمت لفّ الشال حول عنقي.

كانت الساعة تقارب الثامنة حين وصلت إلى المنحدر حيث بقايا الخلوة. درت حول البئر وانحنيت قليلاً كي لا تصطدم أغصان الشجرة اليابسة برأسي. هذه البئر لها حكاية. إنّها هنا منذ مئات

Twitter: @ketab_n

السنين. هي ليست جافّة، لكنّ أحداً لا يَقْرَبُ ماءها خوفاً من الثعابين التي تقيم في قعرها. قرب هذه البئر عاش جدّي الكبير يوسف وحيداً. في الصيف يأكل التين الأخضر، وفي الشتاء التين اليابس. وحين يريد الماء يذهب إلى النبع ويملأ جرّة الفخّار. جلست على الأحجار التي كانت جدران بيته ذات يوم. سمعت هدير عاصفة بعيدة ورأيت جسده العجوز يتكوّم تحت البطانيات. الرياح تنبح فوق السقف كقطيع كلاب مسعورة. والمطر يلفح الأباجور الخشبي، والأباجور في أنين يشبه الاحتضار.

ثم عاد الصمت، وفكرت أنني فوق سطح القمر.

نظرت إلى البلدة تحتي. بدت مغطّاة بغلالة من الضوء الأصفر. كان هناك دخان يتصاعد من إحدى المداخن، وخيّل إليّ أنّني أسمع صخب أطفال يلعبون. ثم لم أعد أسمع شيئاً.

صرخت باسمي ولم أسمع صوتي. كان الأمر مرعباً. رأيتني أركض في أزقّة البلدة، أفتح الأبواب، أجتاح البيوت. القدور على النّار، البخارَ يتصاعد من الصحون، البطانيات مجعوكة فوق الأسِرّة، ولا أحد.

– إلى أين تهربون؟

كنت أصرخ ولا أسمع صوتي.

– لا تهربوا إلى البحر. الأمواج عالية هناك.

كنت أصرخ ولا أسمع صوتي.

وأدركت أنّ البلدة باتت مهجورة وأنّ العالم أيضاً قد غادره ساكنوه.

نزلت إلى البيت. أعددت قرعةَ المتّة. جلست على السرير النحاسي العالي. نظرت إلى المغسلة الصغيرة في الزاوية وإلى الطشت المستقرّ تحتها. فكّرت أنّ هذا المكان واسع جداً. سكبت أوّل قرعة، رشفت رشفة واحدة. وضعت القرعة على الأرض، فمالت

Twitter: @ketab_n

ووقعت. نزلت المياه المصبوغة باللون الأخضر، وسالت على البلاط. تركتها، والتحفت بالبطانية.

خلف النافذة يتبدّل الضوء: أصفر، برتقالي، رمادي، رمادي داكن، أسود، أسود. لا صوت، لا أحد.

تركت السرير، أخذت الإبريق، مشيت صوب المطبخ. لا بأس، سأنقع المتّة من جديد. وسأسخّن المياه مرّة أخرى. وأجلب فوطة أمسح بها ما سال على البلاط.

التفتّ إلى الخلف وكنت أبتسم. كنت أسمع صوته ورأيته جالساً وسْطَ السرير، وكانت القرعة في يده.

جذب البطانية حتى ذقنه ثم قال لي: «الآن دوري، أليس كذلك؟».

– تمت –

Twitter: @ketab_n

غادر مارون بغدادي فرنسا، متوجّهاً إلى بيروت، مساء السادس من تشرين الثاني عام ١٩٩٣.

كانت الطائرة شبه خالية. والبرق يشقّ السماء خلف النافذة المربّعة. استرخى مارون في المقعد ٤٣، فكّ الزرّ العلوي لقميصه، فتح حقيبته السامسونيت، أخرج منها ظرفاً ورقياً كبيراً، ثم اغمض عينيه.

كانت هناك رائحة عطر خفيفة في جوّ المقصورة، سمع صوت موسيقى خافتة تنبعث من المقدّمة، وغاب في الذكريات.

اللوحة للرسام: ادوارد هوبر

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت